الجامعة الأزهرية

كلية أصول الدين

محاضرات

في التاريخ المصري القديم

ألقاها الأستاذ

عبد المنعم ابو بكر

أستاذ التاريخ المصري القديم

لطلبة مادة التاريخ

بكلية أصول الدين

١٩٣٩ — ١٩٤٠

طبعة خاصة للكلية

مطبعة شبرا ومكتبتها بجوار جامع الخازندارة تليفون ٥٨٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

لله الحمد دائما وعلى رسوله الصلاة والتسليم وبعد

فقد ظهرت لى رغبة طلبتى في قسم مادة التاريخ بكلية أصول الدين أن أقدم إليهم هذه المحاضرات كما ألقيتها عليهم فأجبتهم إلى ذلك خدمة للعلم الذى ندرسه ، وشغفا بعصر التى نعرض حضارتها وتحقيقا لأملهم عندى وهو مما أسعد به وأنهض اليه والسلام .

عبد المنعم أبو بكر

التاريخ المصرى

مقدمة

التاريخ من أهم الدراسات التى تساعدنا على تحليل عوامل البيئة وعلى اظهار الأسباب التى دعت إلى تطور معيشة الانسان الذى بدأ حياته بأن سكن الكهوف والمغاور ثم تقدم فى سبل حياته فنزل إلى الوديان الواسعة ثم تعلم الزراعة فأجبر على الاستقرار في منطقة واحدة وهنا اندمج الفرد في الجماعة والجماعة فى الحكومة

ودراسة التاريخ القديم تختلف عن دراسة التاريخ الحديث فى شيء واحد هو ان الوثائق ليست فقط المرجع الوحيد للمؤرخ بل كل ما يحيط بالانسان من آثار . فنحن فى دراسة التاريخ القديم يهمنا أن نتتبع الانسان منذ عاش فى الكهوف . ندرس ما خلفه لنا من آلات استعملها فى الصيد والقنص كما ندرس عظام الحيوانات التى كان يعيش على لحمها وما نعثر عليه في هذه الكهوف من جماجم أو عظام هذا الانسان

فى هذه العصور الأولى التى سبقت عصور الوثائق المكتوبة نعتمد في دراسة تاريخها على ما نعثر عليه من أدوات الصوان ومن بقايا الأوانى الفخارية . وفى هذه البقايا نجد معلومات وافيه عن مدنيات هذه العصور الغابرة وتطورها وعن اتصال الشعوب بعضها بالبعض الآخر

ومن هذا نرى ان المؤرخ يجب إن يستعين ببعض العلوم لدراسة العصور القديمة . هذه العلوم هى علم الآثار وعلم الانسان وعلم طبقات الأرض .

وعلم الآثار علم حديث العهد فى مصر اتجهت اليه الانظار منذ قرن واحد . وكان هذا العلم إلى اعوام قليلة موقوفا على الأجانب ونحن لا ننكر أن للاجانب الفضل

الأكبر في انماء هذا العلم فجهودهم معروفة وابحاثهم لا تزال المورد الوحي
لكل من أراد أن يدرس آثار مصر . ولكن المصرى بدأ يشارك الاج
فى اهتمامه بهذا العلم وخصوصا فيما يتعلق بآثار مصر . وحفائر كلية الاد
سواء فى الهرم أو فى المعادى أو فى تونه الجبل اكبر دليل على نشاط المص
وعلى انه لا يقل عن زميله الأجنبى فى علمه وتعمقه فى دراسته

مصر فى عصر ماقبل التاريخ

نقسم التاريخ المصرى إلى قسمين أساسين
١) عصر ماقبل التاريخ (أو عصر فجر التاريخ)
٢) العصر التاريخى
ويبدىء العصر التاريخى فى الوقت الذى تمكن فيه المصرى القدي
يكتب بالخط الهيروغليفى مايجول فى فكره أو ماتعود أن ينطق به . وبف
نقوش مكتوبه تحدثنا عن الأنسان الذى قطن مصر فى هذا العصر وتفسر
ما كان عليه من حضارة انقشع لنا ما كان مظلما فى التاريخ المصرى ومن
يبتدىء التاريخ . أما العصر الأول فهو العصر الذى لانعتمد فى دراسته إلا
ماخلفه لنا المصرى من آثار لاوجود لأى نقش عليها ولكنها تدلنا على
حياته وتفسر لنا اعتقاداته ومبلغ تقدمه فى حضارته
ومن الصعب علينا أن تحدد مبدأ ظهور حضارة العصر الأول عصر
التاريخ لأننا لانعرف تماما متى استقر نهر النيل فى حوضه الحالى ولأ ننا لا
نجزم بالوقت الذى تمكن المصرى فيه من استيطان الدلتا . نحن نعرف
أن مصب النيل كان بالقرب من القاهرة وأن الدلتا أحدث فى عمرها من و
النيل إذ أنها لم تتكون إلا بتراكم الطمى بعضه فوق بعض وقد كان وادى
غير صالح لسكنى الأنسان إذ كانت مياه النيل تغمره واضطر الأنسان ا

أن يلجأ إلى التلال والهضاب التي تحاذي وادى النيل ووجد فيها مكانا صالحا لسكناه ولم ينزل إلى الوادى ليستعمره إلا بعد أن استقر النيل فى مجراه ولذلك نكتفى اليوم بأن نقول إن العصر فجر التاريخ انتهى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق م وهذا هو العام الذى بدأ فيه التاريخ المصرى الذى نستند فى تأريخه على وثائق مكتوبة

ولقد كان عصر فجر التاريخ عصراً مظلما لم نتمكن من الأهتداء إلى دراسته دراسة وافية حتى السنين العشرة الأخيرة وذلك بعد اهتم بعض العلماء بهذا العصر وقاموا بحفائر واسعة في المناطق التى كان يسكنها إنسان هذا العصر وكانت نتائج هذه الحفائر باهرة أعطتنا صورة تكاد تكون كاملة لتطور الحياة والحضارة خلال هذا العصر الطويل ثم جعلتنا نعتقد أن حضارة مصر فى هذا العصر كانت حضارة مصريه بحته لم تأت إليها من الشعوب المجاورة بل نكاد نؤكد أنها كذلك لم تأت مع الشعوب التى هاجرت اوطانها ونزلت أرض مصر كما كان يؤكد ذلك الأستاذ فلندرس بترى Tlinders Petrie من قبل وهذا الأستاذ كان من اوائل الذين قاموا بحفائر واسعة من عصر فجر التاريخ. وكان فى كل مرة يعثر فيها على آثار تختلف في طابعها عما وجده من قبل يرجع ذلك إلى هبوط شعب آخر جديد ارض مصر له حضارة تختلف في طابعها عن حضارة المصريين وبذلك كان لا يفتأ من حين إلى آخر يتحدث عن جنس جديد

وقام بعض العلماء بابحاث اناتوميه تشريحيه كان من اثرها

إلغاء نظرية بترى والأعتقاد بأن الشعب المصرى في اول امره كان قد استوطن مصر دفعة واحدة دون ان يتكون من عناصر مختلفة .

اقسام هذا العصر

نقسم عصر ماقبل التاريخ إلى ثلاثة اقسام شاملة : ـ

١) العصر الحجرى القديم وفيه استعمل الأنسان الات حجرية كبيرة لم يتقن صنعها كان يستغلها فى المدافعة عن نفسه وفى الصيدواثار هذا العصر نجدها فى قرنه (بالقرب من الأقصر) وفى العباسية

٢) العصر الحجرى المتوسط وفى هـذا العصر استعمل الانسـان الات صغيرة في حجمها مصنوعة ايضا من الحجر وآثار هذا العصر نجدها في حلوان ثم بالقرب من كوم امبو عند قرية السبيل ثم في الفيوم

٣) العصر الحجرى الحديث وهنا بدا الأنسان يتقدم فى حضارته وطرق معيشته فهذب صنع آلات واستعمل الطمى فى تكوين انيته ونجد آثار هذا العصر في نقاده — بلاص —العمرة البلينه — والكاب

وقد كان الجميع يعتقدون ان أثار عصر ماقبل التاريخ محصورة فى مصر العليا ومصر الوسطى وان الدلتا لم تشـارك اقسام مصر الأخرى فى حضارتها بل ظن الكثير ان الدلتا لم تكن لها حضارة البتة . حتى وفق الاستاذ يونـكر في سنة ١٩٢٨ إلى العثور على بعض آثار من العصر الحجرى الحديث فىمرمده بنى سلامة غرب الدلتا وعلى بعد خمسين كيلومتر من القاهرة . وقام الاسـتاذ بحفائر هناك منذ عام ١٦٢٩ واثبت ان للدلتا حضارة ترجع الى هـذا العصر

وبعد ان تم اكتشاف آثار الدلتا يحق لنا الآن ان نقسم حضارة مصر فى العصر الحجرى الحديث إلى قسمين .

ا : حضارة الشمال ب حضارة الجنوب

حضارة الشمال

ونجدها ممثلة كما قلنا في حفائر مرمدة بني سلامه . وفيها نرى أن الأنسان عرف كيف يستغل الأرض بزرعها ثم كان يربى الحيوانات المنزلية مثل التيران والغنم والكلاب والخنازير ولم يترك الصيد بل كان لا يزال يصطادالوحوش والسمك وحصان البحر وبهذا نرى واضحا أن انسان العصر الحجرى الحديث بذ أخاه الذى عاش في العصور المتقدمة والذى اقتصر فى معيشته على الصيد والقنص.

زرع انسان الدلتا القمح فى المزارع التي تحيط بقريته وبعد الحصد كان يجلب القمح ويخزنه في أكياس كبيرة موضوعة فى حفر فى الأرض . أما القرية فكانت مستديرة يحيط بها سور من جذوع الأشجار . يتوسط القرية « العشش » التى كانت أيضا مستديرة سطحها عال يشبه « الشمسية » وجدرانها قليلة الارتفاع مصنوعة من القش . ثم فى أيام الشتاء الباردة كانوا يلجأون إلى حجرات بيضاوية مبنية من الطمى ومدفونة إلى نصفها فى الأرض وكانوا لا يبنون لها بابا بل كانوا يصعدون اليها ثم ينزلون فيها بواسطة سلم بسيط درجاته من عظام فرس البحر

أما ما وجد من آلات استعملوها فى حياتهم المنزلية فيدل على تقدم حضارتهم وهذه الآلات كانت الخناجر والسكاكين والبلط من حجر الصوان ثم أوانيهم الفخارية كانت متعددة الأشكال منها ما يشبه الأطباق « والسلاطين » والزجاجات .

وهذه الحضاره مهمة جدا لأنها أرتنا لأول مرة طريقة جديدة في دفن الموتى فبينما اعتاد الناس في مصر العليا ومصر الوسطى دفن موتاهم فى جبانات بعيدة عن قراهم نجد أن هذه العادة غير مستعملة فى مرمده فهنا كانت الموتى تدفن في وسط القريه وذلك لكى يشاركوا الأحياء الأحياء فى أكلهم وشربهم وفى أعيادهم وأغرب من هذا أنهم لم يضعوا مع الميت حاجياته الخصوصية

على نحو ما كان يفعل مصري الجنوب في هذا العصر وكل المصريين القدماء في العصور التاريخيه

حضاره الجنوب

ا » مصر الوسطى .

وهى جزء من المناطق التى عمت حضارتها بالصلة إلى حضارة الجنوب ونجدها ممثلة أولا ـ فى العمرى « بالقرب من حلوان » وهى تشابه فى بعض نواحيها حضارة « مرمدة » إذ أن العشش كانت أيضا مستديرة ولكن المقابر كانت بعيدة عن القرية وكل مقبرة كان يعلوها تل صغير من الأحجار لتميزها وبالقرب من كل مقبره مربع يحيطه سور قليل الارتفاع من الحجر لأجتماع أهل الميت عند زيارتهم للمقبرة . وهنا بدأت عادة إعطاء الميت بعض حاجياته التي كان يعتز بها أثناء حياته

ونجد أيضا هذه الحضارة ممثلة في الفيوم : والحفائر فى هذه المنطقة لم تتم بعد وماوجد فيها يدل على أن التشابه بين حضارة الفيوم وحضارة مرمده ضئيل وأقل بكثير من تشابهما بحضارة العمرى

(ب) مصر العليا

ونحن نتابع تقدمها فى الحضارات الآتية

١) حضارة تازا ٢ حضارة البدارى ٣) حضارة نقادة الاولى ٤) حضارة نقاده الثانية .

١ حضارة تازا

هذه الحضارة كانت غير متقدمة من الناحية الفنية سبقت حضارة البدارى أوانيها الفخارية رديئة الصنع وأدوات الزينة كانت قليلة بسيطه غير متقنه لاتتعدى القواقع أو عظام الحيوانات أو خرز المصنوع من العاج .

٢ حضارة البدراى

وهي تلي حضارة تازا وعلي حضارة البداري هذه

بنيت حضاره العصر التاريخي المصري ففيها نجد مبدأ تطور الحضارة وتقدمها خطوة خطوة حتى زهت في عصر الأسرات . وفي كل ناحية من نواحيها نجد مصرية المصري مطبوعة بطابعها المصري المحض . فالديانة وفن البناء وطريقة الدفن والأعتقاد في الحياة الأخرى . كل هذه الأشياء نجدها في تطورها الأولى ظاهرة في آثار هذه الحضارة

كانت القرية حينئذ صغيرة في مساحتها و « العشة » بسيطه في طريقة بنائها و « الشونة » كانت عباره عن حفرة عميقة في الأرض تشبه عش النحل عرف أهل هذه الحضارة الزراعة وتربية الماشية والصيد والقنص وتمتاز هذه الحضارة عن حضارة الشمال الممثلة في مرمده بما يأتي : ــ

١) استعمال السراير من الخشب وقاعدته مملوءه بالقش المجدول

٢) استعمال وسائد من التيل أو من الجلد

٣) تقدم صناعة الأواني الفخارية تقدما كبيرا فكانت الأواني محروقة حرقا جيداً دقيقة في صنعها رقيقة في شكلها

٤) استعمال الحلى بكثره منها القلائد والأساور والأقراط للاذن والأنف

٥) الجبانات كانت قريبة من القرية والموتى كانوا يدفنون عادة على شكل القرفصاء ويوضعون في حصير والرأس على وسادة

٦) وجود مقابر دفن فيها ثيران وغزلان وهذا يدل على أن أهل هذه الحضارة عبدوا هذه الحيوانات وبذلك نرى عبادة الحيوانات المشهورة عند قدماء المصرين ممثلة في مظهرها البدائي في هذه الحضارة

حضارتا نقاده

اعتاد الأستاذ بترى أن يعتبرها حضارة واحدة ولكننا لوامعنا النظر لوجدنا أن هذه الحضارة التى وجدت آثارها بكثرة بالقرب من قرية نقاده تنقسم إلى قسمين الثاني يكمل الأول ولذلك اعتدنا الآن أن نسمي القسم الأول حضارة

نقاده الأولى والثاني حضارة نقاده الثانية

وأول من قام بحفائر واسعة فى هذه المنطقة هو الأستاذ بترى وكان ذلك فى عام ١٨٩٥ وشاركه فى هذه الحفائر الأستاذ Québell كويبل وكما ذكرت من قبل فوجىء بترى بآثار هذه المنطقة واعتبرها حضارة شعب جديد نزل أرض مصر واستوطن هذه الجهة وأسهب فى ذلك وأرخ مجيئهم بعصر الأسرة السابعة ولكن بترى اضطر إلى تغيير نظريته واقتنع بأن هذه الحضارة ليست إلا حضارة مصرية لشعب مصرى عاش في عصر فجر التاريخ

ونظرا لكثرة ماعثر عليه من آثار فى هذة المنطقة وللفرق الشاسع بين بعضها والبعض الآخر فى طريقة الصنع وتقدم الفكرة بحيث أن كان من الواضح أن كل هذه الآثار لايمكن أن تكون من عصر واحد . ولكى يجد حلا لترتيب تطور درجات هذه الحضارة ترتيبا تاريخيا قام بعمل نظرية مشهورة وهى تسمى التأريخ المتتابع : وذلك أنه قسم حفائره إلى طبقات وعمل جدولا بما يعثر عليه من آثار فى كل مقبرة تقع فى طبقة من الطبقات التى قسم إليها حقل الحفائر وفى هذا الجدول دون عدد الآثار التى عثر عليها وخصوصا عدد الأواني الفخارية وشكل كل آنية . ثم قسم هذا الجدول إلى مائة قسم ترك من واحد إلى ٣٠ لما عساه أن يعثر عليه فى المستقبل ثم من ٣٠ إلى ٨٠ لآثار هذا العصر ومن ٨٠ إلى ١٠٠ تركه أيضا للمستقبل ثم وضع أشكال وأنواع الأواني الفخارية الغالبة الموجودة فى أعمق الطبقات فى ٣٠ ثم النادرة من هذة الأنواع والأشكال فى ٣١ أو ٣٢ معتمدا على النظرية القائلة إن كثرة عدد الأواني فى مقبرة تدل على قدم عصرها بالنسبة إلى الأواني الأقل عددا فى هذه المقبرة وهكذا تدرج صاعدا فى الطبقات .

ــ حضارة نقاده الأولى ــ

وقد وجدنا أن حضارة نقاده الأولى احتلت من جدوله من ٣٠ إلى ٣٩ .

وأنواع الأوانى الغالبة فى هذا العصر هى

١» النوع الأحمر

٢» النوع الأحمر ذوالحرف الأسود

٣» النوع الأحمر المرسوم عليه باللون الأبيض

٤» النوع الأسود ذوالحفر البيضاء

حضارة نقاده الثانيه .

تتشابه هذه الحضارة مع حضاة نقاده الأولى من أوجه عدة . وخصوصا من ناحيةأن الأوانى الفخارية كانت لا تزال تستعمل بكثرة فيها أيضا . غيرأنه ظهر فى هذه الحضاره نوعان آخران من الأوانى

١» اوانى ذات آذان مموجه

٢» أواني صفراء أو حمراء مرسوم عليها بالأحمر الغامق « القانى »

وهناك من يؤكد أن حضارة نقاده الثانية منشأها الدلتا وأنا اميل إلى الاعتقاد بهذه النظرية وها هى ذى الأسباب التى تؤكدها

أولا : من بين آثار هذه الحضارة نجد صولجانا يشبه الكمثرى وهذا النوع لم يظهر فى حضارة تازا أو حضارة البدارى أو نقاده الأولى بينما ظهر فى حضارة مرمده « بني سلامه » فى عصر يسبق هذا العصر بمئات السنين : وهنا تجب الملاحظة بأن صولجان حضاره نقاده الأولى كان يشبه الطبق

ثانيا : انتشار الأوانى الفخارية المسماه بالأوانى ذات الآذان المموجة فى منطقة فلسطين وهذا يدل على أنها ظهرت فى الدلتا ثم انتشرت شمالا وجنوبا مع ملاحظة أن هذا النوع من الفخار لم يظهر فى شمال افريقيه أو بين شعوب أسيا القريبه .

ثالثا الأواني الصفراء والحمراء المرسوم عليها باللون الأحمر الغامق كانت

تحوى مناظر تدل على أن منشأها الدلتا . فمثلا رسومات القوارب المتعدده تدل على أنها كانت تستعمل عند قوم تعودوا أن يجولوا مناطق مملوءة بالمياه . ثم على سارية كل قارب من هذه القوارب علامة للاقليم التابع له هذا القارب وإذا جمعنا كل هذة العلامات وعددها ٢٨٨ علامة وجدنا أن ١٩٦ منها تدلنا على أقاليم واقعة في الدلتا .

رابعا أوانى عصر حضارة نقاده الأولى المرسوم عليها بالأبيض كانت تصور حيوانات أفريقيه مثل الفيل والزرافة وفرس البحر مع أن هذه الحيـوانات لم تصور قط على أوانى حضارة نقاده الثانية

خامسـا ظهر بين آثار حضارة نقاده الثانية نوع من الفخار المطلى بطبقة ملونة لونها أخضر وهو ما نسميه بالخزف واسم هذا النوع باللغـة المصرية تحى نو الذى يطلق أيضا على وادى النطرون فى غرب الدلتا . ولعل ذلك لأنه صنـع هناك لأول مرة ويشبه ذلك تسمية « الصيني » باسم البلد « الصين » الذى اكتشف وصنع فيها لأول مرة .

عصر ما قبل التاريخ فى نوبيا

بلاد النوبه

ظهرت فى نوبيا حضاره معاصره لحضاره البدارى وتشابهها كل الشبه وخصوصا فى كثرة الأوانى الحمراء ذات الطرف الأسود Blacr Aoppes

وهذا يدلنا على أن حضارة البدارى انتشرت فى مصر ونوبيا على حد سواء وهذا أمر ليس بالغريب فحضارة البدارى اختص بها الجنوب فى مصر

بعد ذلك تأثرت نوبيا بحضارة نقاده الثانية وكان هذا التأثر متأخراً ثم من الغريب أن نوبيا لم تشارك مصر بعد ذلك في تقدمها السريع بل وقفت ومما

يدهشنا أن وقوفها هذا أو قل جمودها بلغ إلى عام ٢٠٠٠ ق . م اذ اننا وجدنا فى نوبيا الجنوبية من عصر الدولة المتوسطة أواني فخارية لا يمكننا أن نضعها إلا فى عصر ؛قاده الثانية فى مصر

تأريخ عصر ماقبل التاريخ

ونقصد بالتأريخ تحديد البدء والنهاية لأقسام هذا العصر بالسنين

ولقد سبق أن تحدثت عن هذا التاريخ وقلت أنه من الصعب علينا أن نؤرخ عصور تاريخ مصر فى عصر ما قبل التاريخ وقلت أيضا إنه من المهم أن نعرف أنه انتهى عام ٣٢٠٠ ق . م ولكن هناك من حاول تأريخ هذا العصر المظلم على حد التقريب وهو كما يأتى : ـ

١» العصر الحجرى القديم ما بين سنة ٨٠٠٠ق.م ، ٧٠٠٠ق . م

٢» العصر الحجرى المتوسط ما بين ٧٠٠٠ ق . م ، ٦٠٠٠ ق . م

٣» العصر الحجرى الحديث ما بين سنة ٥٠٠٠ حتى ٣٢٠٠ ق . م

وعلى ذلك تكون المدة ما بين ٦٠٠٠ ، ٥٠٠٠ فترة تطو ولعلنا نرى هذا التطور مبينا أوضح تبيين فى المقارنة بين آثار العصرين المتوسط والحديث . إذ نجد الفرق كبيرا إلى درجة تحمل على الاعتقاد بأن هناك حلقات فى سلسلة التطور الطبيعى قد سقطت فلا بد من تقدير فترة مناسبة تكفى لاتصال اللاحق بالسابق .

مصر وحضارتها

لقد صدق الذى قال إن مصر منحة النيل : فكلنا يعرف أن النيل أنجب مصر وهو الذى يمدها بالحياة،مصر وهى هذه الواحة الكبيرة الممتده إمتدادا

طويلا . قد حوت شعبا يعد أول شعوب الأرض حضارة وتمدينا . فالحضاره المصرية غذت شعوب الأرض وعلى أسس هذه الحضاره الرائعة بنى أهل اليونان حضارتهم التى يعتز بها إلى الآن شعوب أوروبا ويرجعون حضاراتهم اليها

وطابع المدنية المصرية لا يمكننا أن نصفه إلا بانه طابع نيلى زراعى فالنيل فى خطره الدائم وفيضانه الموسمى الذى إذا لم ينظم أصبح كارثه بدلا من نعمة ثم في امتداده الطويل واختراقه لكل المناطق المصرية أصبح الطريق الوحيد للمواصلات وقد أجبر النيل المصرى من ناحية علي التعاون والاتحاد لكى يتقى شر فيضانه ولكى ينظم هذه النعمة التى خلقت له واديه والتى إذا لم يعرف كيف ينظمها انقلبت شرا وهدمت له قراه وأغرقت حقوله ثم من ناحية أخرى سهل النيل على المصرى التعاون والاتحاد إذ أنه أسهل وأحسن طريق يوصل بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال

ثم أرض مصر الخصبة الغنية بمحصولاتها جعلت المصرى رجل سلام لا يحب التنقل ولا يفكر فى الهجره وجعلته أيضا يتقدم في حضارته تقدما سريعا فالكسب الهين والحياه السهلة لا تعوق الفنان عن عمله.

عاشت المدنية المصرية مده لا تقل عن أربعة آلاف سنة . ويمكننا أن تؤكد أن مصر طوال هذه القرون العديده أعطت أكثر مما أخذت فهى أول من قدم للعالم ثمارا يانعة لتفكير طويل وجهود جباره ، فى مصر اخترعت الكتابة وأصبح الانسان قادرا على تدوين ماينطق به وأهمية هذا الاختراع ظاهرة لاتحتاج إلى بيان ثم فى مصر ظهرت القوانين وعلوم الكميا والهندسة والطب والحساب والعلوم الفلكية ثم الفن المصرى الرائع سواء في التماثيل أوفي الرسومات البارزة كل هذا معروف لا يرتاب فيه أحد

ويمكننا أن نقول أن مصر هى أول من نادى بكلمة الحق والواجب فللحق إله بين الهة المصرين والواجب من أمجد الصفات عند المصرين القدماء

هذه الأمة عاشت حتى هرمت وظهرت أمم أخرى مجاورة عرفت الحياة بعد أن تمسكت باهداب الحضارة المصريه وحذت فى تكوينها حذو مصر

ثم دارت الدوائر على مصر وسقط منها علم القياد وهاجمتها شعوب فتيه فبدأ الغزو الاشوريون ثم الفرس ثم اليونان فالرومان . وحلت الديانة المسيحيه محل عبادة رع وازوريس ثم العرب فدخل الدين الاسلامى أرض مصر وأدخل معه اللغة العربية وأصبحت هذه اللغة بمد وهلة لغة البلاد حتى خيل للبعض أن حلقة الاتصال بين مصرنا الآن ومصر الفرعونية قد قطعت ولكن هذا خطأ فانه إذا كان ديننا الاسلام وإذا تحدثنا باللغة العربية فنحن كنا ولا زلنا مصريين بل أن طرق تفكيرنا والتعبير عن أنفسنا تمت بصلة كبيرة محسوسة إلى المصريين القدماء ثم هناك عادات كثيرة بقيت منذ عصر بناة الأهرام إلى عصرنا هذا نقوم بها ونسير عليها دون أن نعرف أن هذه العادات مصرية قديمة

ولعل من الطريف أن نذكر لكم بعض هذه العادات لترو إلى أى حد بلغت هذه الصلة بين ماضينا البعيد وحاضرنا الراهن

فمن التعبير المصرى القديم قولنا فلان قام قال كذا ، ويسحب لسانه عليه ، ويتف فى عبه ، كما أن اسم بتاو وبصارة وكلمة توت حاوى ولعبة الميس والسيجة كلها مصرية قديمة

تقديس الشمس

لما كانت الشمس من الالهة التى عبدها المصريون جميعاً منذ ظهور الحضارة المصرية إلى أن قضى على الديانة المصرية فقد ظلت فى مصر بعض عادات تمت إليها بالصلة حتى اليوم : وأكبر دليل على ذلك أن بعض الناس فى الوجه البحرى لا يزال يقسم القسم الآتى : « وحياة الشمس الحره » (كما فى بلدة سند بسط مركز زفتى) وهناك من يقسم قائلا (وحياة اللى تشوفنى ولا أشوفهاش)

أما فى الوجه القبلى فهناك من يقسم قائلا (وحياة البهيه عندما تطلع من جبلها)

الشكوى إلى الشمس

وكانت العادة عند قدماء المصريين أن يتشاكوا إلى الشمس ويحكموها في أمورهم ومن بقايا هذه العادة مايصنعه كل طفل مصرى عندما تسقط سن من أسنانه . فيرمى هذه السن المخلوعة طالبا إلى الشمس أن تبدلها بسن أحسن منها فالولد يقول ياشمس ياشموسة خدى سن الحمار وهاتى سن الغزال أما البنت فتقول : ياشمس ياشموسة خدى سنة الجاموسة وهاتى سنة العروسة :

تقديس بعض الحيوانات مثل ١ القطط (وكانت القطة تدعى بالمصرية القديمة باست ولا يزال الاسم باقيا فى اسم البلد الذى كانت تعبد فيه وهى تل بسطه بالقرب من الزقازيق . ولاتزال القطة من الحيوانات المحبوبة جدا فى مصر ومن الغريب مانقوله عنها . إن القطة بسبع أرواح وهذا ما كان يعتقده المصرى فى القطة التى كان يتمثل فيها الآلة رع وهو الذى كان معروفا فى المتون المصرية بأن له سبعة أراح) ثم مثل ٢ التمساح الذى بقى احترامه حتى يومنا هذا فنرى بعض البيوت المصرية الحديثة تعلقه على واجهاتها صنعا للشر وتيمنا به ويشاهد ذلك فى معظم جهات القطر مع العلم بأن هذا الحيوان أصبح معدوما فى كل جهات القطر المصرى ولانجده اليوم إلا فى أعالى النيل

ثم الثعبان وعبادته وتقديسه فى مصر القديمة معروف مشهور وبقى هذا التقديس إلى يومنا هذا فى العادة الغريبة التى نؤمن بها وهى أن لكل بيت حارسا وهذا الحارس هو ثعبان ضخم كبير يغالى بعض الناس حتى يقدم إليه اللبن يوميا .

أما تقديس الأشجار التى كانت تعبد فى مصر القديمة فهو شىء نشاهده

٤) أما تقديس الأشجار التى كانت تعبد فى مصر القديمة فهو شىء نشاهده كل يوم . وأهم الأشجار التى تقدس فى مصر هى الجميزة والنخلة والسنطة وأهم الأشجار احتراما هى شجرة الجميزة واحترامها شائع فى كل جهات القطر إذ قلما نجد جبانة دون أن يكون فى وسطها أو على حافتها شجرة جميز ويعتقد العامة أن قطع الجميزة من الأشياء المحرمة لأنها تروى الموتى وتظللهم

أما العادات المأتمية فأكثرها مصرى قديم :— فتغسيل الميت عادة إسلامية ولكن غسل الميت بماء الورد عادة مصرية (جاء هذا فى ورقة اللوفر البردية ترجمها Maspero) وأحياناً نجد فى الوجه القبلى بعض القرى تغسل موتاها بمنقوع ماء النبق وقد عثر على نقوش تثبت ذلك فى متون الأهرام ولا زلنا نعتقد أن أكل النبق مطهر للفم

ثم عادة قراءة العتاقة للميت مصرية قديمة ولكن هناك بعض الناس يقيم لنفسه عتاقة قبل مماته فيأتى بالفقهاء الذين يقرأون الصمدية ومعهم خيط طويل وفى كل دفعة تعقد عقدة حتى تصل العقد الى عدد محدود ويحتفظ بهذا الخيط لكى يدفن معه .

وكذلك الذبيحة . وتسمى كفارة أو ونيسة

كسر القوارة

كان قدماء المصريين يكسرون وراء الميت عند خروجه من البيت إناء ويضعونه معه فى قبره منعاً من أن تعود قرينته الى الأحياء فتؤذيهم . وهذه العادة موجودة لدينا سواء عند الأحياء حتى لا يعود الزائر الثقيل أو وراء الميت اذا كان قد مات قتيلا حتى لا ترجع روحه لتؤذى الأحياء

ثم الاحتفال بالدفن

وتوزيع الرحمة : وقولهم رحمة ونور على روح الميت .

جهاد مصر فى سبيل الاتحاد

طبيعة مصر وامتدادها الطويل لم تسهل فى أول الأمر أن تتجاور مقاطعتان فى منطقة واحدة وخصوصاً فى مصر العليا . وعندنا من الدلائل ما يجعلنا نعتقد أن مصر كانت حتى عصر فجر التاريخ مقسمة الى طوائف أو جماعات تسكن كل جماعة منها منطقة محدودة . ولم يسهل التجاور بين هذه الجماعات ومناطقهم . سهل فى الدلتا إذ أن طبيعتها سمحت بذلك . فمساحتها من من الشرق الى الغرب كانت متسعة اتساعها من الشمال الى الجنوب . وكل منطقة من هذه المناطق كانت تسكنها جماعة أو قبيلة يحكمها حاكم ولكل حاكم رمز أو شعار خاص به اتفق العلماء على تسميته توتم هذا الشعار يمثل قوة فعالة مقدسة تكون مصدر حياة وحركة للمنتسبين اليه

ويختلف الشعار أو التوتم باختلاف القبائل ومقاطعاتها . ولقد كان فى مصر فى العصر التاريخى ٤٢ مقاطعة نظن أنها كانت فى الأصل الأقاليم المختلفة التى كانت تسكنها القبائل قبل اتحادها . ويختلف التوتم أيضاً فى شكله ونوعه فقد يكون شجرة مثل شجرة الجميز أو طائراً كبيراً مثل الصقر أو أبى قردان .

وكنا نعتقد الى عهد قريب أن مينا هو أول ملك حكم مصر ووحد أقاليمها وأنه أول من ركز الملكية فى مصر ولكننا عثرنا على حجر تاريخى من عصر الأسرة الخامسة دون عليه أحد ملوكها أسماء أجداده ملوك مصر وكم كانت دهشتنا أن هذا الحجر ذكر أسماء ملوك عدة سبقوا حكم مينا . وهذا جعلنا نرجع الى بحث كل ما كتب فى العصر التاريخى من المصريين القدماء أنفسهم وما خلفوه لنا من قصص دينى خاص بهذا العصر الغامض .

وأصبح الآن من المؤكد أن مصر وحدت قبل عصر مينا ثم انقسمت على نفسها ثم أتى الملك مينا ووحدها للمرة الثانية.

ومما يستلفت النظر من بين القصص المصرية المعروفة قصة أوزوريس إذ تزاوج الأله جب (آله الارض) مع الآلهة نوت (آلهة السماء) ثم ولد لهذين الزوجين أولاد أربعة هم أوزوريس وزيت وايزيس وتفتيس

أما أوزوريس فورث عن أبيه عرش الدنيا وكان عادلا محبوبا أحسن سياسة الملك ، وعلم الشعب الزرع وشرع له الاحكام والقوانين بينما أخوه زيت كره أن يؤول الملك الى أوزوريس ويبقى هو حاكما لمدينة الجنوب فقط بينما أخوه في أول أمره كان يحكم مثله مدينة في الشمال

كاد زيت لأخيه مكيدة ودعاه لكي يحضر معه وليمة وكان قد صاغ له تابوتاً من الذهب وبعد أن جلس الناس يتسامرون وفرغوا من أكلهم ولهوهم جيء بالتابوت وأظهر الملأ إعجابهم به وتسابقوا في الأضطجاع فيه حتى إذا جاء دور أوزوريس واضطجع فيه أسرع زيت بأغلاق التابوت وإحكام غطائه عليه ثم رموا بالتابوت في النيل وحملته الأمواج الى البحر الابيض ثم الى بلاد سوريا ثم قذفت به الأمواج على ساحل (جبلين) وما كاد التابوت يستقر على الشاطىء حتى نبتت شجرة كبيرة أظلته و حفته عن عين الرقباء . وبعد حين مر بالشاطىء حاكم (جبلين) فراقته الشجرة فأمر بنقلها وفيها التابوت الذهبي الى قصره

أما ايزيس فقد ذهبت تبحث عن أخيها وزوجها في كل مكان حتى قدر لها العثور على الشجرة في قصر الحاكم وما زالت هناك حتى تمكنت من نقل التابوت الى مصر ووضعته في مكان أمين بين أحراش الدلتا وبقيت بجانبه مدة تندبه وتبكيه ثم تركته الى حين لكي تذهب الى وحيدها حوريس الذي

بقى فى مدينة Buto بوتو

وبينما هى مع ولدها حوريس اذا بزيت يعثر اثناء تجواله فى احواش الدلتا على تابوت أخيه فيتور لذلك ويخرج الجثة ويمزقها ويرمى بكل جزء منها فى إقليم من أقاليم مصر

وبعد أن ترعرع حوريس قام لينتقم لأبيه وبعد نزاع طويل وكفاح مر تمكن من استرداد الملك وأصبح بذلك ملك مصر بأجمعها

إننا إذا تأملنا فى هذه القصة التى أصبحت فيما بعد قصة دينية تحدثنا عن الآلهة أوزوريس وزيث وحوريس وازيس نجدها تحدثنا عن الحالة السياسية فى عصر فجر التاريخ . فالإله أوزوريس كان مقره شرق الدلتا وحوريس غرب الدلتا وزيث مقره مصر العليا .

وفى هذه الحالة يمكننا أن نفسر هذه القصة بأن أشد حكام الجنوب تمكن من مهاجمة الدلتا وقوض أركان حكم ملكها وبعد وهلة تمكن أحد حكام شرق الدلتا من إرجاع السلطة ومن توحيد الجنوب مع الشمال .

ثم هناك أدلة أخرى تدلنا على أن الحالة السياسية فى هذا العصر تطابق ما استنتجناه من هذه القصة

١) عبادة أوزوريس كان منشأها الدلتا ثم استقرت بعد ذلك فى مصر العليا فى ابيدوس (العرابة المدفونة)

٢) انتشار حضارة نقاده الثانية فى الوجه القبلى ولقد أثبتنا قبل ذلك أنها نشأت فى الدلتا

٣) ثم كان أوزوريس يلبس أولا تاجا مكونا من ريشتين

ثم لبس بعد ذلك حوريس تاجا مزدوجا مكونا من تاج الوجه القبلى وهو التاج الأبيض ومن الريشتين

مصادر التاريخ المصرى

الآن وقد تركنا فجر عصر التاريخ سنبدأ نشرع فى العصر التاريخى وأعتقد أن كلا منكم سوف يتساءل : ماهى المصادر التى نستمد منها مانعرفه عن مصر القديمة .

هذه المصادر تنقسم الى قسمين : الأول وهو وهو أوثقهما ماخلفه لنا المصريون من آثار عديدة ونقوش لاتحصى وخصوصاً القوائم التى أراد بعض ملوك مصر أن يخلدوا عليها أسماء الملوك الذين سبقوهم فى الحكم وهى:

١) أقدم هذه القوائم هى التى نسميها قائمة حجر بالرمو وهى التى تحدثت عنها فيما سبق وتذكر ملوك مصر حتى الأسرة الخامسة

٢) قائمة ملوك أبيدوس وهناك نسختان منها إحداهما فى متحف القاهرة والثانية فى المتحف البريطانى . نقشتا فى عصر الملك سيتى الأول من الأسرة التاسعة عشرة (حوالى عام ١٣٢٠ق. م) وذكر فيها أسماء الملوك الذين حكموا مصر من أول مينا حتى عصر سيتى الأول وحذفت من هذه القائمة أسماء الملوك الذين حكموا فى عصر الهكسوس وكذلك أسماء عصر اخناتون ثم سمنخكارع وتوت عنخ أمون والملك إى . والسبب فى ذلك واضح إذ أن ملوك الهكسوس كانوا أجانب دخلوا مصر غازين متعسفين ولا يمتون بأى صلة الى مصر . أما عصر أخناتون فكان يعد عصر الملوك الذين خرجوا على دين أمون وادخلوا البدعة الجديدة فى رأى المصريين وهى عبادة الآله آتون وتوحيد الآلهة فى مصر .

٣) قائمة ورقة تورين البردية : كتبت هذه الورقة البردية أيضا فى عصر الأسرة التاسعة عشر وهى تمتاز بذكر أسماء الملوك ومدة حكمهم بالسنة والشهر

واليوم ولقد ذكرت كل الأسماء ولم يحذف أى عصر ولكن نأسف لأن هذه الورقة البردية ممزقة شر تمزيق ولقد ضاع جزء كبير منها ولكن مع هذا ساعدنا ماتبقى منها على معرفة أسماء ملوك عصر الهكسوس وكذلك ملوك الدولة الوسطى الذين ذكرتهم الورقة وحفظ الجزء المكتوب عليه هذه الاسماء تمام الحفظ

٤) قائمة سقارة : كتبت على جدران مقبرة لأمير عاش فى عصر الملك رمسيس الثانى (١٣٠٠ الى ١٢٣٤ ق م) ولقد حذف هنا عصر الاضمحلال الأول وعصر الاضمحلال الثانى (وهو عصر الهكسوس)

٥) قائمة الكرنك : كتبت فى عصر الملك تحتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر) (حوالى عام ١٥٠١ الى ١٤٤٧) وهو الجدول الوحيد من عصر هذه الاسرة ولقد أخطأ كاتبه كثيراً فى ترتيب الملوك وتقسيم الأسر فكتب ملوك الاسرة الثالثة عشرة بعد ملوك الاسرة الخامسة . ثم ملوك الاسرة الحادية عشرة بعد ملوك الاسرة الثامنة عشرة . أما ملوك الاسرة الثانية عشرة فقد أخطأ فى ترتيبهم بأن جعل آخر ملوك الأسرة أول ملوكها وانتهى بأول ملوكها .

المصدر الثانى

ويمدنا ببعض المعلومات التاريخية وهو ماوصل الينا من نبذ عديدة كتبها المؤرخون القدماء عن مصر فى كتبهم التاريخية . وهؤلاء المؤرخون قدموا الى مصر فى عصر متأخر ، ويجب ألا ننسى أن مصر فى عصورها الأولى كانت مغلقة فى وجه الأجانب الذين إن أتوا الى مصر فهم يأتون فقط لمشاهدة معالم حضارتها وتمدينها وتقدم عمرانها وأول من سهل للأجنبي دخول مصر كان.

بسامتيك الأول أول ملوك الاسرة السادسة والعشرين (حوالى عام ٦٦٠ ق.م) والسبب فى ذلك ان هذا الملك تبوأ عرش مصر بعد أن ساعده ملك اليونان بجيشه . وبعد النصر أدرك هذا الملك أن عرشه وأسرته لن يتمكنا من البقاء فى مصر دون مساعدة الجند المرتزقة وعطف الشعب اليونانى عليه . فسمح لهؤلاء الجند بالبقاء فى مصر وشجع اليونان على السفر الى مصر فحضر اليها نفر كبير واعجبوا بها وبحضارتها .

هذه البدعة الجديدة أجبرت المصرى أن يفكر فى طريقة يرضى بها أسئلة هؤلاء الزوار أو السياح . ولذلك نجد ان أول تاريخ كتب عن مصر كان مصدره هؤلاء التراجمة الذين كان من الصعب عليهم أن يخلصوا فى مهنتهم إذ أن الأجنبي الذى يتكبد مشاق رحلة طويلة ويحضر الى مصر يود أن يرى ويسمع فقط مايلذ له سماعه وما يلذ للسائح يبعد كل البعد عن الحقائق التاريخية ودون لأول مرة هكاتييوس من مدينة ميليتى الذى زار مصر حوالى ٥٢٠ ق . م ماسمعه من تراجمة مصر فى كتابه عن مشاهداته فيها . ثم تبعه هيردوت (أتى الى مصر حوالى عام ٤٣٠ ق.م) ونحن اذا اعتمدنا على هذين المصدرين فانما نعتمد عليهما لأنهما يريانا صورة واضحة لمصر فى العصر الذى زار مصر فيه هؤلاء السياح أى العصر الاخير من تاريخها .

ومن أهم من كتبوا عن مصر كان مانيتون الذى كتب تاريخ مصر فى ثلاثة أجزاء . ومانيتون عاش فى عصر بطليموس الأول أى حوالى ٣٠٥ الى ٢٨٥ ق.م وخصص هذا المؤرخ فى كتابه هذا جزء للتاريخ وآخر للديانة وثالثاً للحياة الاجتماعية وملاحظاته الشخصية .

ومانيتون كان كاهنا مصرياً ولو أنه اعتمد أيضاً فى كتابة تاريخه على ما كان يتناقله الشعب من أحاديث عن ملوك مصر القدماء وما كان معروفا عند كهنة

هذا العصر من التاريخ القديم إلا أنه كان بلا نزاع أقرب الى الحقيقة من هؤلاء الزوار اليونان االذين استقوا معلوماتهم من تراجمة الآثار

ومما يؤسف له ضياع كتاب هذا المؤرخ فلم يصلنا منه إلا مانقله عنه بعض المؤرخين الذين عاشو بعده بسنين عدة إذ نقلوا بعض أجزاء من كتابه لكى يستشهدوا بها على نظريات أرادوا تحقيقها ومما يؤسف له أيضاً ان هؤلاء المؤرخين لم يهتموا إلا بالجزء المخصص لديانة قدماء المصريين . ولقد اهتم اليهود خصوصا بما كتبه مانيتون عن الديانة إذ أرادوا أن يظهروا هكسوس مصر بأنهم اليهود الذين طردوا فى عصر الملك أحمس

وأهم هؤلاء الكتاب ٠ ١) يوسيفوس الذى كتب فى آثار اليهود وعلق على ما كتبه مانيتون فى طرد الهكسوس

٢) يوليوس أفريكانوس ٣) أوزيبيوس

ولقد قسم مانيتون ملوك مصر الى ٣٠ أسرة وأخذنا بنظريته وخصوصاً بعد أن وجدناها تنطبق على ماعثرنا عليه من آثار لهذا العصر الطويل

ثم كتب فى تاريخ مصر فى أوائل ظهور المسيحية ديودور واسترابون .

عصور التاريخ المصرى

نقسم التاريخ المصرى الى الاقسام الآتية :

١) عصر الاسرات الاولى ويشمل الاسرة الاولى والثانية

٢) عصر الدولة القديمة ويشمل الاسرة الثالثة الى آخر السادسة

٣) عصر الاضمحلال الاول ويشمل الاسرة السابعة الى آخر العاشرة

٤) عصر الدولة الوسطى ويشمل الاسرة الحادية عشرة الى آخر الاسرة الثالثة عشرة

٥) عصر الاضمحلال الثاني (الهكسوس) يشمل الأسرة الرابعة عشرة الى آخر الأسرة السادسةعشرة

٦) عصر الدولة الحديثة ويشمل الأسرة السابعة عشرة الى آخر الاسرة العشرين

٧) عصر حكم الكهنة يشمل الأسرة الحادية والعشرين

٨) عصر حكم الليبيين يشمل الأسرة الثانيـة والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين

٩) عصر حكم النوبيين يشمل الاسرة الخامسة والعشرين

١٠) العصر الصاوى يشمل الاسرة السادسة والعشرين

١١) عصر حكم الفرس يشمل السابعة والعشرين الى آخر الثلاثين

١٢) عصر حكم اليونان وذلك بدخول اسكندر الأكبر حوالى عام ٣٣٢ ق.م

١٣) عصر البطالسة من عام ٣٣٢ الى ٣٠ ق م

١٤) العصر الرومانى من عام ٣٠ ق.م الى دخول العرب ٦٤١ ميلادية

عصر الاسرات الاولى (الاولى والثانية)

لقد حدثتكم فى دروسى السابقة عن توحيد القطرين فى عصر فجر التاريخ وقلت ان أول محاولة لضم الجنوب الى الشمال أتت من الدلتا وحكم مصر ملوك نسميهم ملوك مقاطعة الصقر وكانت عاصمة مصر فى هذا الوقت (ونحن نؤرخ هذا الحادث بعام ٤٢٤٠ ق.م على وجه التقريب) هيليوبوليس . ثم ضعفت هذه الاسرة وانقسمت مصر مرة ثانية الى جزئين: الوجه البحرى والوجه القبلى.

وتقسيم مصر الى وجهين أمر تحتمه طبيعتها ، ومن الغريب أن كلا من الوجهين اعتز بتقاليده وحافظ على حضارته وساق هذا التعادل فى القوة والمدنية

الى تشابه كبير بين الوجهين . فالوجه البحرى كانت له عاصمتان : ١) بوتو ٢) بى والوجه القبلى نجد له عاصمتين أيضا : ١) نخبت ٢) ونخن . ثم فى الشمال نجد أن الآله الذى يحمى العاصمة هو الحية (أوتو) بينما الجنوب له العقاب (نخبيت) . والآله الذى يحمى دولة الشمال كان حوريس الذى كان مقره دمنهور والآله الذى يحمى دولة الجنوب كان حوريس آخر ومقره أدفو

ثم ملك الشمال كان يلبس تاجا أحمر

بينما كان ملك الجنوب كان يلبس تاجا أبيض

ثم كان علم الشمال نبات البردى

بينما كان علم الجنوب نباتا لعله القش

ونحن إذا بدأنا الآن بتاريخ الاسرة الاولى فأننا نقصد بذلك تاريخ الاسرة التى وحدت مصر للمرة الثانية وقد أتى هـذا التوحيد الثانى من الجنوب إذ قام به حكام مدينة طينة .

شن أحد حكام هذه المدينة الغارة على الدلتا واضطرها للخضوع وهـذا الكفاح نجده ممثلا على صولجان هـذا الحاكم وهو الذى أصبح معروفا فى التاريخ بالملك العقرب . فنراه مصورا وعلى رأسه التاج الابيض (تاج الوجه القبلى) وبيده فأس يهدم به حصون الوجه البحرى

اسماء ملوك هذا العصر

الأسرة الأولى :—

١) نارمر مينا (٢) عحا (٣) جر (٤) زت (الثعبان) (٥) دن (٦) عنج إيب (٧) سمرخت (٨) كع

الأسرة الثانية :—

١) جتب سخموى (٢) نبرع (٣) نثر إن (٤) سخم إيب (٥) پر ايب سن (٦) خاسخموى

وذكر مانيتون المؤرخ المصرى فى كتابه ان ملوك هاتين الاسرتين كان عددهم ثمانية عشر ملكا وان مدة حكمهم ٤٠٠ سنة ولقد اثبتت الآثار التى عثرنا عليها من هذا العصر ان مانيتوز لم يخطىء كثيراً فى نظريته .

ولقد اقتطعنا هذا العصر من الدولة القديمة وسميناه عصر الاسرات الاولى ليس لانه يقل فى اهميته عن عصر الدولة القديمة بل لأنه ذو طابع خاص ولأنه كان العصر الذى اشتد فيه النزاع بين الوجه البحرى والوجه القبلى والذى فيه كونت مصر لنفسها أسس الحضارة الزاهرة التى تباهى بها كل أمم التاريخ القديم .

ان التوحيد الثانى لم يتم إلا بعد حروب طويلة رأينا آثارها منتشرة فى كل ماعثرنا عليه من وثائق مكتوبة من هذا العصر . وأهم ماوصل إلينا هو لوحة نارمر المحفوظة فى المتحف المصرى وهى من حجر الاردواز . ولقد مثل على احدى جانبيها الملك نارمر متوجا بتاج الوجه القبلى قابضاً بيمينه على صولجان يهوى به على رأس العدو الجاثى بين قدميه . ثم أمام الملك نرى رمز المقاطعة التى خرج منها الملك وهو الصقر (أى الأله حوريس) يقدم الى الملك ٦ آلاف أسير من سكان الدلتا . وفى أسفل هذا الجانب من اللوحة

نرى أسيرين يهربان وذلك رمزا لهروب أعداء الملك أمام بطشه وعلى الجانب الثانى نجد الملك متوجا بتاج الوجه البحرى الاحمر خارجا من قصره وأمامه وزيره وأعلام القبائل التى اتحدت معه خرج ليتفقد قتلى الحرب بعد أن وطد ملكه وبطش بأعدائه وبأسفل اللوحة نرى ثورا كاسرا يهدم بقرنيه قلاع الاعداء الذين يرمز اليهم بأسير ولى الفرار . هذا الثور الكاسر كان رمز الملك

حجر بالرمو : ثم اشهر حوادث الاسرة الاولى والثانية دونت على الحجر التاريخى المحفوظ فى متحف بالرمو . (ولقد عثر حديثا على قطعة حجر مكملة له محفوظة فى متحف القاهرة ثم على قطع كثيرة وجدت فى المقابر الملوكية فى ابيدوس وسقارة .

آثار أخرى : والآن قد كثرت آثار هذا العصر بعد أن نجح المستر امرى ومساعده زكى افندى سعد فى حفائرهما من هذا العصر فى سقارة

وكما ذكرت كان من أهم الأمور التى اهتم بها كل من جلس على عرش مصر هى توطيد الحكم وإخضاع الثائرين على نظام وحدة السلطة وهناك دلائل عدة توضح لنا تماما كيف كانت سياسة الدولة فى عصر هاتين الاسرتين متجهة بكليتها هذا الاتجاه

من هذه الدلائل ١) استعان نارمر على إخضاع الشمال بأن تزاوج مع بيت من صا الحجر واسم السيدة التى تزوج منها نايت حيت

٢) تزوج الملك زت بأحدى أميرات الوجه البحرى واسمها مريت نايت وهى أم الملك دن

٣) كانت العادة ان يضع كل ملك اسمه فى مربع مرسوم على هيئة واجهة القصر يعلوه الصقر وهو كما تعرفون آله المنطقة التى منها خرج الملك الذى وحد القطرين (نارمر)

ثم فى عصر الاسرة الثانية وجدنا بعض الملوك وضعوا بدلا من الصقر حوريس صورة الاله زيت

ثم وجدنا ملوكا آخرين من ملوك الاسرة الثانية وضعوا كلا الالهين على هذا المربع وهذا دليل على أن كل ملك كان يعتز برمز الاله الخاص بمنطقته التى خرج منها ثم اتجه الملوك فيما بعد الى التوفيق بين المقاطعتين المتنافستين على السلطة .

مميزات هذا العصر

١) اللغة فى عصر الاسرة الاولى والثانية تكونت لغة المصريين القدماء وأصبحوا قادرين على أن يعبروا بها عن كل مايجول بنفوسهم وفى عصر الاسرة الثالثة أصبحت اللغة كاملة تحوى الافعال والمصادر والمشتقات وهذه الخطوة نراها فى تدرجها بشكل واضح إذ انها كانت فى أول أمرها لايمكن التعبير بها إلا عن الاعلام فمثلا على لوحة الملك نارمر المحفوظة فى متحف القاهرة كان كل ما أمكنهم أن يصلوا إليه هو أن يكتبوا اسم الملك واسم الوزير وأسماء المناطق التى انضمت الى الملك ولم يكتبوا جملة تعبر عن هذا الحادث التاريخى بل اقتصروا على رسم هذا المنظر مع إيضاح الأشياء بأساميها . ولكن بعد ذلك فى عصر الأسرة الثالثة نجد جملا تحوى أفعالا وأسماء وحروفا .

وعلى ذلك كانت اللغة المصرية فى أول أمرها عبارة عن مجموعة صور ثم تقدمت وأصبحت كلمات .

٢) أما فى الفن : فكانت آثار مصر فى عصر فجر التاريخ تشابه آثار كل الأمم المجاورة ثم بدأت مصر تفصل نفسها عن هذه الأمم فى العصر الذى سبق عصر

الأسرات وكونت لنفسها فنا ذا طابع خاص له مميزات خاصة لم تتغير حتى آخر عصور التاريخ المصرى القديم ظهرت بوادر هذا الطابع على لوحة الملك نعرمر المحفوظة فى المتحف المصرى ثم على لوحة الملك زت المحفوظة فى اللوفر

٣) أما الديانة المصرية فلا يمكننا أن نحكم عليها حكمنا على الفن ولكن يمكننا أن نقول أن كل ماوصل إلينا عن هذه الديانة وجدت أصوله فى عصر الأسرات الاولى

مصر والامم المجاورة لها

فى عصر الأسرتين الأولى والثانية

تحيط بمصر من الجنوب بلاد النوبة ومن الشمال الغربى ليبيا ومن الشرق البحر الاحمر الذى يفصل بلاد العرب عن مصر ثم من الشمال الشرقى شعوب الاسيويين .

ولم تتصل مصر ببلاد النوبة اتصالا وثيقا إلا فى عصر الدولة القديمة فطبيعة الأرض فى جنوب اسوان كانت ولا تزال جدبة لاخضرة فيها ثم أن النيل نفسه فى هـذه المنطقة تعترضه شلالات هائلة الحجم لاتسمح ألبتة لأى سفينة أن تعبرها ولكننا نعرف أن المناطق الواقعة بين الشلال الاول والثانى كانت مسكونة بقبائل من عنصر حامى ليبى قريب من العنصر المصرى له مدنية تشبه مدنية مصر فى عصر فجر التاريخ ، ولكننا نلاحظ ان هذه المدنية لم تتقدم وتتطور كما كان حالها فى مصر إذ أن البيئة هناك لم تساعد على هذا التطور ، ولقد حدثتكم فى محاضراتى عن عصر فجر التاريخ وقد عثرنا على آثار فى بلاد النوبة من عصر نؤرخه بعصر الدولة المتوسطة ولكنها كانت تشابه فى شكلها وطابعها آثار عصر حضارة نقادة الثانية فى مصر

لقب المصريون البلاد الواقعة بين الشلال الأول والثانى بمنطقة ستى كما سموا سكانها النحسيين

ولما توغل المصريون فى العصور المتأخرة فى بلاد النوبة فيما وراء الشلال الثانى تحدثوا عن منطقة اسمها خنتى حن نفر ثم كانت فى جنوبها منطقة أخرى يسكنها شعب الكوش الذى يجاور بلاد الحبشة . وكانت هذه البلاد تقدم لمصر كميات وفيرة من الماشية والعاج والجلود والاشجار

ثم كانت الحدود الغربية أيضا آهلة بالسكان الذين عاشوا على ماتنتجه أراضى الواحات (ولا يزال منها حتى الآن الواحات الخارجة والداخلة وفرافرة وسيوة) وكلمة واحه أصلها مصرى قديم (وات) أخذها اليونان وأصبحت فى لغتهم وازيز وكان يسكن هذه المناطق الغربية شعب اللبيين الذين يلقبون باسم تحنو وتدل آثار ملوك الاسرة الاولى على أن المصريين اشتبكوا معهم فى حروب.

أما فى الشمال الشرقى فكانت مصر محاطة بشعوب كثيرة ينتمون الى الجنس السامى . وهؤلاء كانوا دائماً يشنون الغارة على مصر طامعين فى خيراتها هاربين من بلادهم الفقيرة .

وكان المصرى يسمى هذه الشعوب بأسماء مختلفة منها : حروشع (الذين يعيشون على الرمل أى البدو) ثم العامو والمنتيو

ومصر كانت متصلة اتصالا وثيقا منذ عصر الاسرات الاولى ببلاد سوريا حيث كانوا يجلبون الاخشاب التى يستعملونها فى انشاء السفن وبناء المعابد ثم اتصلوا ايضا بشبة جزيرة سينا حيث تكثر المعادن

الديانة عند المصريين القدماء

نحن نعرف أن الانسان والحيوان يشتركان فى صفاتهما العامة وإنما ميز الله الأول على الثانى بميزة التفكير ، ونعرف أيضاً أن الحيوان يصرخ ليعبر بذلك عما فى داخله من شعور بينما الانسان يتحدث ، ونعرف كذلك أن الغريزة التى حملت الحيوان على أن يعيش فى قطعان حملت الانسان على أن يكون الأسرة ثم القبيلة ثم الأمــة ، كما أن الغريزة التى تدفع الحيوان إلى التناسل دفعت الانسان إلى الحب والزواج ، وكذلك نرى الغريزة التى تدفع الحيوان إلى الخوف والهرب أمام كل شىء لايعرفه هي التى دفعت الانسان إلى احترام تلك القوى الخفية التى تسير الـكون من حوله وتسيطر على كل شىء ، ومن هذه الغريزة نبتت أول جذور مانسميه نحن « الدين » فما الدين إلا الاعتقاد بأن هناك قوى لايعرف كنهها الانسان وإن كان يشعر بغلبتها وسيطرتها عليه.

وإن كان ليس فى مقدور الانسان أن يرى هــذه القوى الخفية وأن يصل إلى أصلها إلا أنه كان يشعر بأنه يعرفها بل يكاد يحسها ويميزها ويفرق بين بعضها والبعض الآخر ويعطي كلا منها اسما خاصا به ، وكان يعرف أن بين هذه القوى ماينفعه فيجعل منها قوى يصادقهـا وأن بينها مايضره فيجعل منها قوى يعاديها ، وليس فى مقدوره أن يميز بينهـا على نحو آخر فهو إنسان له صديقه وله عدوه ، وكان يعرف أن الصديق من ينفع وأن العدو من يضر

وإنى إذا حاولت أن أبين لـكم الدافع الأول للانسان الى الاعتقادات التى تكون منهـا الدين فأنه ينبغي أن أبدأ بالانسان الأول من يوم ظهر فى هذه الدنيا متمتعا بما أسلفنا من غرائز متميزا على الحيوان بالعقل . فما لاشك فيه أنه توجه باحترامه وخضوعه إلى تلك القوى الخفية التى كان يشعر بوجودها

حتى ليكاد يلمسها وإن كان لا يراها .

ثم إذا مارست العصور الأولى على الانسان فكون الأسرة ثم القبيلة ثم الأمة . فان هذا التقدم فى أساليب الحياة الاجتماعية لم يقلل البتة من شعور الانسان بحاجته الماسة الى تلك القوى التى ذكرناها وضرورة تنظيم علاقته بها ، لا سيما أن الانسان لم يكن محتاجا إلى معين له فحسب بل كان محتاجا أيضاً الى إله يلوذ به ويناجيه إذا خلا بنفسه.

ويجب ألا ننسى أن طبيعة كل بلد لها اكبر الأثر فى ديانته ، فان الشعوب التى تسكن الشواطىء ترى حواليها طبيعة تختلف كثيرا عن الطبيعة التى تراها شعوب الغابات أو السهول كما أن الشعب الذى سكن أرضاً خصبة وعرف الزراعة فربطته هذه بأرضه إنما يتخيل إلهه على وجه يختلف اختلافا بينا عما يتخيله أهل المناطق المجدبة المتنقلين وراء الماء والخضرة غازين مكافحين .

ولذلك اختص الدين المصرى بطابع يميزه عن غيره ، طابع يوافق طبيعة مصر الخصبة وشعبها الهادىء الصبور الذى اعتاد أن يزرع حقوله ويربى ماشيته معتمدا على نيله الفياض الذى يجلب إلى أرضه الخصوبة ويعظم فيضانه مرة فى كل عام

بل كانت فى مصر قوى طبيعية أخرى سوى النيل أجبرت المصرى على أن يفكر فيها ويحاول أن يعرف كنهها ، فهناك الشمس تظهر فجأة صباح كل يوم من وراء الجبال فتغمر الكون بنورها وتدفىء الارض بحرارتها وتهب الزرع الحياة وتساعده على النضج ، ولكنها كانت تصليه فى الصيف نارا حامية ، ثم هناك القمر والنجوم التى تظهر ليلا فقط بعد اختفاء الشمس وراء الجبال فى الغرب وكذلك رأى المصرى كيف تتزاحم السحب أحيانا حتى تحجب الشمس

وكيف يدوى الرعد ويلمع البرق ثم ينهمر المطر . كما لو كانت هنالك فى السماء حرب عوان قامت بين قوى لا يعرف من أمرها شيئا ...

لقد كان ذلك كله كافيا أن يبعث المصرى الى التفكير الطويل فى هذه المظاهر الغريبة محاولا تفسيرها والاهتداء الى من يثيرها أويديرها ، ولقد فكر ثم أمعن فى التفكير ثم لم يستطع إلا أن يجعل من هذه القوى المتعددة آلهة مختلفة بل اعتبرها الآلهة الكبرى

ولكن المصرى تساءل فى حيرة — وهو ذلك المخلوق الضعيف الذى يعيش على الارض — عن علاقته بهذه الآلهة الكبرى : هل كانت تهتم بأمره وتخف إلى معونته إذا دهمته الخطوب ؟ هل كانت هذه الآلهة تسرع لنجدته إذا هاجمه عدو أو مرضت ماشيته ؟ إنها بعيدة عنه كل البعد وهو محتاج الى آلهة قريبة منه تساعده وتشد أزره وتخفف من ويلاته ، ولم يصعب على المصرى أن يجد هذه الآلهة فقد وجد بين مظاهر الطبيعة التى تحيط به ما يلقى الرعب فى قلبه كما وجد بينها أيضا ما يثير دهشته ويملؤه إعجابا : فهناك الحيوانات التى كانت تسكن نيله الفياض أو الصحراء التى تحيط بمصر كالتمساح وفرس البحر والأسد وبعض الزواحف كالثعبان ، وكذلك رأى هذه الأشجار الضخمة الشاهقة التى نبتت فى حقوله من أزمان بعيدة لا يعرف متى زرعت ولا من زرعها

كل هذه الأشياء رأى فيها المصرى قوى خفية عليه أن يستجلب رضاها ويستدفع أذاها لاسيما أنها قريبة منه فما أسرع ماتناله بذلك كله ، وهكذا تكونت تلك الآلهة المتعددة التى يصعب علينا حصرها فقد تعددت بتعدد أغراضها والمناطق التى عبدت فيها وقد نجد بعضها عبد فى منطقة واحدة ، وبعضها فى مناطق مختلفه بأشكال مختلفة أو بشكل واحد ، وبأسماء مختلفة أو تحت اسم واحد

ولقد بقيت الحال كذلك فلكل قبيلة أو جماعة ولكل جهة أو مدينة آلهتها الخاصة بها حتى العصر الذى تكونت فيه مصر سياسيا واختفت تلك القبائل فتكونت المقاطعات ثم تضامت هذه فتكونت منها الأقاليم ثم الوجهان البحرى والقبلى ثم اتحدت مصر وأصبحت دولة

فأن هذه المراحل السياسية قد أثرت فى الحال الدينية تأثيرا عظيما فرأينا هذا العدد الهائل من الآلهة قد تطور بحيث يمكن تقسيمه ثلاثة أقسام :

أولا : آلهة عبدوا لأنهم مثلوا للمصرى قوى الطبيعة مثل إله الشمس (رع) وآله القمر (خونسو) وإله الارض (جب) وإله الهواء (شو) وإله المحيط (نو) وإله النيل (حابى) وغير ذلك

ثانيا : آلهة عبدوا لأن المصرى اعتقد أن فى عبادتهم استرضاء لهم ودفعا لبطشهم لأن هذه المخلوقات كانت تؤذيه وتسىء إليه وذلك كالتمساح (سوبك) وابن آوى (أنوبيس) والثعبان (أوررت) وغير ذلك

ثالثا : آلهة رمزية عبدت فى المدن المختلفة والمقاطعات الكثيرة مثل الاله حوريس فى مدينة دمنهور فى غرب الدلتا ، والآلهة عنجدتى فى شرق الدلتا والآلهة نايت فى وسط الدلتا والعجل فى شمال الدلتا والالهة نخبيت فى مدينة الكاب والاله أمون فى الاقصر والاله خنوم (الكبش) فى اسوان

فأما الآلهة الاولى فكانت عبادتها منتشرة فى جميع البلاد ، وأما الثانية فكانت عبادتها فى الجهات التى تظهر فيها ويعظم خطرها وتكثر اعتداءاتها وأما آلهة القسم الثالث فان عبادتها كانت محلية فقط إلا اذا تمكن حاكم المنطقة التى يعبد فيها أحد هذه الالهة أن يسيطر على مناطق أخرى فيلزم أهليها أن يعبدوا إلهه ، حتى اذا تمكن من بسط سلطانه على مصر جميعا فرض عبادة إلهه على البلاد جميعها فأصبح إلها للدولة.

على أن المعروف أيضاً أن المصرى من أول التاريخ حتى آخر عصوره اعتقد أن هنالك إلهاً خلق الارض وهو يحافظ عليها ، عينه اليمنى الشمس وعينه اليسرى القمر ونفسه هو الريح ، وهناك مناجاة وصلت الينا من عصر الدولة الحديثة تقول :

« انت الاله الذى وجدت أولا حيث لم يكن فى الكون أى إله آخر أو أى اسم لأى شىء قد وجد ، إذا فتحت عينيك اللتين ترى بهما أمكن كل مخلوق على الارض أن يرى النور »

وكان المصرى القديم يفسر اختفاء القمر ورجوعه خلال الشهر القمرى بأن هذا الاله قد فقد عينه فهو يناضل ويكافح حتى يسترجعها

وربما كان هذا أساسا للعادة الموجودة عندنا الآن ، وهى أنه كلما حدث خسوف للقمر نرى العامة يسيرون فى الطرقات صائحين يقرعون الصفيح والطبل وبعضهم يطلق النار لكى ينجو القمر من العدو الذى يحاول أن يسرقه

ومما ينبغى ذكره أيضاً أن المصرى القديم كان يعتقد وجود إله آخر وأنه واحد يشكو ليه ويطلب منه العون وهذا الاله كانوا يذكرونه بعنوان (الاله) فحسب غير مسمى باسم خاص كأسماء رع وأتوم وحوريس مثلا

ومما عرف من أقوالهم ١) « الانسان من طين وقش والاله هو بانيه »

٢) « حقا أنت لاتعرف مايفكر فيه الرب كما لاتعرف ماذا سيأتى به الغد ولكن ألق بنفسك بين يدى الاله »

هذا ثم إنى أؤكد لكم أن هذه الديانة المصرية هى أصعب الديانات القديمة فى دراستها إذ أن تنوع آلهتها وتشعب نظرياتها وتناقضها يجعل من الصعب أن نكون عنها فكرة كاملة متسلسلة كما نفعل مثلا عند دراسة التاريخ المصرى .

ولعل من أسباب ذلك : ١) التقدم السريع الذى أحرزته مصر فى تدرجها من بلاد عرف إنسانها الصيد فقط وكانت ساكنة الكهوف ، الى بلاد تقدمت وترعرعت فيها الحضارة فعرف أهلها الزرع والحصاد ووضعوا النظم والقوانين الاجتماعية التى تلزمه الحياة فى جماعات ذات قوانين وأنظمة خاصة يجب أن يسير عليها ، ثم أيضاً انتقال مصر من مجموعة مقاطعات الى بلد واحد عرف الملكية ، كل هذه التطورات السريعة التى مرت بها مصر كانت ذات أثر كبير فى دينها إذ تبع هذه الانقلابات الثقافية والاجتماعية والسياسية انقلاب دينى اختلطت فيه العقائد وتعددت وتشعبت إلى درجة خطيرة حتى كانت تجمع بين المتناقضات

٢) وقد ساعد على ذلك محافظة المصرى على القديم فكان اذا ظهرت فكرة أو عقيدة جديدة أخذ بها فضمها الى عقيدته القديمة دون أن يفكر فيما بينهما من تناسق أو تناقض ، وهذا مما يجعلنا نرتاب فى أن المصرى القديم كان فيلسوفاً أو أنه استعمل المنطق فى الحكم على الامور

٣) الكهنة المصريون وقد كانوا — كأمثالهم فى جميع البقاع والعصور القديمة — فئة من الرجال أخذوا على عواتقهم القيام بخدمة هذه الآلهة المتعددة والعناية بها ولقد تمتعوا فى ظل هذه الالهة بمركز سام بين أوساط الشعب لم يكن لهم أن يحلموا به لولا تلك الالهة فكان عليهم إذن ليحتفظوا بنعمتهم ومجدهم أن يعتكفوا عن الشعب ويتشحوا بالغموض وينشروا الأساطير عن آلهتهم ويحتفظوا بمميزاتها وأسرار طبيعتها ما استطاعوا حتى يكونوا وسطاء بينها وبين هذا الشعب الجاهل لاينازعهم فى ذلك أحد ، وقد كان إمعانهم فى التهويل ووضع الأساطير لتوطيد مركز الآلهة من أسباب التعصب والغموض والتناقض فى الديانة المصرية القديمة

درجات الكهنة

كان الملك يلقب « نترعا » أي الاله الأكبر كما كان يعتبر الكاهن الأول الذى يقوم بكل المراسيم الدينية . وقبل دخوله قدس الأقداس لأداء الشاعر كان يطهر بالماء ومحلول النطرون ويتطيب بالبخور ويتضمخ بالعطور

ولما كان من الصعب أن يقوم الملك يوميا فى المعابد كلها بالمراسيم الدينية فقد عاونه الكهنة الذين كانوا يتخرجون من مدرسة طيبة فى معبد الكرنك، أو مدرسة « أون » بمدينة عين شمس حيث يتلقون العلم والغش الدينى على كهنة أكفاء ، وكانت لهم درجات منها :

(١) الكاهن (خريحاب) وكان يقوم عادة بقراءة التراتيل القديمة فى الحفلات وكان يسمى كاتب الكتاب المقدس ويعتبر من علماء الأدب القديم.

٢) الكاهن (أواعب) المطهر وهو الذى كان يقوم بعملية التطهير ، ويقال أيضا إنه كان يمتحن دماء الحيوان الذى يذبح قربانا ويشهد بسلامته من الامراض

٣) الكاهن (حم نتر) خادم الاله

ثم كان هناك عدد لا يحصى من صغار الكهنة بجانب كبارهم يقومون بالأعمال المختلفة بالتناوب ويجب على الكاهن « أن يكون على معرفة تامة بأنواع القرابين التى تقدم للاله وبأوقات تقديمها وان يحفظ الصور المختلفة للآلهة وشاراتها المقدسة وأن يعرف (پردوات) أى بيت الصباح وهو المكان الذى يدخله الملك للغسل والطهارة فى أول النهار . وأن يقوم بوضوح المسوح على تمثال الاله وأن يحمله فى المناسبات والحفلات الدينية الرسمية ولا يدخل قدس الأقداس إلا وهو متطهر ومرتد ملابسه الخاصة ويتحتم عليه أن يحتفظ بأسرار وظيفته ولا يبوح بها ولدينا نص كتبه أحد كهنة الأسرة الثامنة

عشرة وفيه يقول (قمت بوظيفة «أواعب» الذى يدخل معبد أمون ووضعت المسوح المقدسة على تمثال الاله وكنت أحمل تمثاله على منكبى وكنت أنحنى احتراما أمامه ولم أرفع صوتى أبدا فى قدس الاقداس ولم يلمس فى القرابين المقدسة ولم أبح بشىء مما يقال ويعمل سرا فى المعبد »

الحفلات الدينيه

كان الكهنة على اختلاف درجاتهم يقومون بواجبات وظائفهم فى المعابد كل يوم ، ويتبعون فى عملهم طقوساً مرسومة مصحوبة بأناشيد وتراتيل خاصة سواء فى ذلك الحفلات الدينية والمواسم والأعياد وسائر أيام السنة

وهاك بعض التراتيل التي كانت تتلى عند تأدية العبادة فى المعبد :

١) ترتيلة إيقاد النور

٢) ترتيلة إشعال نار المباخر

٣) ترتيلة حمل المباخر

٤) ترتيلة السير الى باب قدس الأقداس

٥) ترتيلة فض الأختام التى على باب قدس الأقداس

٦) ترتيلة فتح باب الناوس

٧) ترتيلة دخول الناوس

٨) ترتيلة تقبيل الأرض أمام الآله

٩) ترتيلة رفع الغطاء عن وجه الآله

١٠) ترتيلة رؤية وجه الآله

١١) ترتيلة الجثو والتمرغ أمام الآله

١٢) ترتيلة وضع العطور على التمثال

وكان على الكاهن عند فتح باب الناوس أن يحرق البخور ويضعه أمام

أنف تمثال الآله وينحنى احتراماً مرتلا الأناشيد بصوت شجى ثم يخرج الأوانى المختلفة من صندوق يحمله ويقوم بعملية التزيين اللازمة للأله بأن يرش الماء مرتين على وجهه ، ثم يضع عليه الملابس الكتانية البيضاء والخضراء والحمراء ثم يعطرها بالعطور ، ثم يقدم أمام تمثال الأله الطعام والشراب من خبز ولحوم وأوز ونبيذ وأزهار لتتغذى بذلك روح الآله

وقد كان بالمعبد أيضا عدد كبير من الكاهنات اللائى يقمن بالرقص والعزف على الآلات الموسيقية للأله

الدولة القديمة

٢٧٨٠ ــ ٢٢٧٠ ق . م .

عصر بناة الاهرامات :

بالأسرة الثالثة تبدأ الدولة القديمة . وعنوان هذا العصر الاهرامات التى تمتد من ميدوم الى دهشور الى سقارة إلى أبوصير ثم إلى الجيزة وأبو رواش

واذا كان العصر الذى سبق الاسرة الثالثة عصر الانتقال من الاقطاعيات إلى الاتحاد ومن التفكك إلى الاندماج ومن اللامركزية إلى المركزية فان العصر الحالى الذى يبدأ بالاسرة الثالثة عصر يذكر التاريخ فيه مصر ككتلة واحدة لا انشقاق فيها إلا حروب أهلية . فكانت مصر من شمالها الى أقصى جنوبها يحكمها ملك واحد ويدير دفتها هو وحده وله أن يأمر وينهى من يشاء كما يشاء . بل كان الملك فى عصر الدولة القديمة ابن الاله ويلقب نفسه بالاله من حقه أن يحكم مصر لانه الهها الارضى الذى له الحق فى الاتصال بعالم الآلهة أما ما عدى الملك من كهنة وموظفين فهم ليسوا إلا أشخاصا خلقوا لكى يساعدوا الملك فى حكمه فلا سلطة لهم البتة هذا العصر الذى سمعنا فيه أن وزراء الجنوب ينقلون إلى الشمال كما أن حكام مديريات الوجه القبلى كانو

يحكمون أيضا بعض مديريات الوجه البحرى . مما يدل على الاتحاد التام والمركزية الثابتة

هذا وان كان الانفصال الاول بين الوجهين بقى ظاهرا فى بعض مظاهر الحكم فمثلا كان الملك يلقب دائما بملك الارضين أو بملك الجنوب والشمال وكانت هناك ارادتان إحداهما لشئون الجنوب والاخرى لشئون الشمال وكذلك محكمة للشمال ومحكمة للجنوب ولكن هذه الارادات كانت تابعة من ناحية أخرى للحكومة المركزية التى كان مقرها العاصمة منفيس

ونحن إذا وصفنا هذا العصر بأنه عصر ذهبي فيجب أن نميزه عن العصور الذهبية الاخرى بأنه لم يظهر كنتيجة لعوامل خارجية مثل الفتح أو كثرة الاموال المتدفقة من الجزية أو لكثرة الاسرى الذين يستخدمون لتقوية شأن مصر . بل هذا العصر الذهبي الاول انما كان نتيجة لاتحاد مصر إذ نهضت ككتلة واحدة لا تمييز فيها بين مصرى الشمال ومصرى الجنوب

ولكن ليس معنى هذا أن نفضل هذا العصر الذهبي على العصور الذهبية الآخرى مثل عصر الدولة المتوسطة (الأسرة الثانية عشر) ثم عصر الدولة الحديثة (الأسرة الـ ١٨ — الـ ١٩) ثم فى العصر المتأخر (الأسرة الـ ٢٦) بل لكل عصر طابعه الخاص ومآثره الحميدة فى المساهمة فى تقدم حضارة مصر وشعبها . ولكن يمكننا أن نقول بأن العصر الذهبي الأول هو العصر الوحيد الذى تتمثل فيه قوة الملك وبطشه هذه القوة التى جعلت من الحجر تماثيل فاخرة وأبنية شاهقة تضارع فى فنها وهندستها أحسن أبنية الشعوب القديمة هذه القوة الجبارة التى دفعت مصر فى طريق العلم والمعرفة ففى هذا العصر عرف المصرى الطب فاتقنه ثم اهتدى الى العناصر الكيماوية التى برع فى مزجها وحنط بها جثث موتاه بطريقة لا تزال الى اليوم أعجوبة من أعاجيب البشر .

الأسرة الثالثة :

تولت الأسرة الثالثة الحكم فى مصر بعد معارك كثيرة رأينا آثارها ظاهرة واضحة فى الأسرة الثانية . بعد أن تمكن الملك خاسخموى من إذلال الشمال وضمه الى الجنوب وتوحيد القطرين توحيدا نعتقد أنه كان سياسياً فقط ويؤكد هذا الاضطرار أول ملوك الأسرة الثالثة الى التزوج من أميرة شمالية إسمها « نى ماعت حاب » أم الملك « زوسر » أشهر ملوك الاسرة الثالثة

ملوك الاسرة الثالثة

١) زوسر — نترخت (٢) سانخت (٣) نب كا (٤) حونى .

زوسر : نحن لا نعرف الكثير من أعماله الحربية . ولقد عثرنا على لوحة تذكارية فى منطقة شبه جزيرة سينا نرى فيها الملك زوسر وهو يعاقب العدو الجانى بين ساقيه بأن يضربه بالصولجان . هذا العدو هو قبائل البدو التى تسكن الصحراء الشرقية .

ثم هناك لوحة أخرى نسميها « لوحة المجاعة » كتبت فى عصر متأخر وتحدثنا عن المجاعة الطويلة المدى والتى حدثت فى مصر فى عصر الملك زوسر وهى تذكر كيف أن الملك فرض على بلاد النوبة (التى كانت خاضعة وقتئذ لحكم مصر) جزية تساوى عشر المحصول تقدمها الى مصر أو بمعنى آخر إلى إله الشلال (خنوم) وذلك لكى يخفف الملك من وطئه المجاعة التى كانت فى مصر .

ونحن نأسف من أنه لم تصلنا أخبار كثيرة عن الملوك الذين ورثوا عرش زوسر .

نب كا : ولا نعرف عن « نب كا » إلا أنه حاول أن يبنى هرما له ومات قبل أن يتمه ولا زالت آثاره موجودة فى المكان الذى نسميه الآن بزاوية العريان جنوب الجيزة .

حونى : أما الملك حونى فهو الذى بنى هرم دهشور المنكسر الاضلاع وبذلك أصبح الحلقة الثانية من سلسلة تقدم فكرة الهرم التى بدأها زوسر بأن بنى هرمه بشكل مدرج ثم بلغت أوجها فى عصر الملك سنفرو بأن أصبح الهرم هرمى الشكل ممتد الاضلاع .

وكانت للملك حونى ابنة اسمها حوتب هرس تزوجها الملك سنفرو أول ملوك الاسرة الرابعة وأنجبت منه الملك خوفو أشهر ملوك الأسرة الرابعة .

إن ما وصلت اليه الحضارة المصرية فى عهد الأسرة الثالثة لم يظهر لنا بوضوح إلا بعد إزالة الرمل عن منطقة هرم زوسر المدرج فى سقارة . فلقد ظهرت لنا الحفريات التى قام بها الاستاذ فيرث وكويبل ثم الآن المسيو لو وير عن أبنية أستعمل فى بنائها فن كنا نعتقد الى مدة قريبة أن موطنه اليونان وليس مصر . هذا الفن الذى أقيمت سقوفه على عمد مضلعة كل ضلع منها قليل الاستدارة . هذه العمد التى أطلق عليها poto dorie قد عثر عليها فى سقارة فى عصر يسبق عصر ظهورها فى بلاد اليونان بعدة قرون . ثم كشفت لنا هذه الحفريات عن أول أبنية من الحجر . وأهمية هذا الاكتشاف عظيمة جدا اذا عرفنا أن المصرى استعمل الحجر لأول مرة فى عصر الأسرة الاولى ولكنه استعمله فقط فى أرضية المقبرة التى بنيت فى أبيدوس للملك Den ثم استعمل الحجر بعد ذلك فى مقبرة الملك خاسخموى من الاسرة الثانية

فالتقدم السريع الذى تمكن المصرى أن يجتاز درجاته بمثل هذه السرعة أدهش رجال الفن فى العالم الحديث ولقد قال بعض العلماء ان هذه الدرجة

التى وصل اليها فن البناء فى عصر الاسرة الثالثة كان كنتيجة لتقدم مستمر ظهرت آثاره فى عصر الاسرة الأولى حيث كانت العادة أن يبنى الملوك مقابرهم من الطمى ثم ظهرت فكرة استعمال الحجر فى مقبرة واحدة ثم بعد ذلك فى الأسرة الثانية وجدنا مقبرة واحدة بنيت جدرانها من الحجر وعلى ذلك وجب أن نعثر فى عصر الاسرة الثالثة على بناء ضخم كله من الحجر . ولكن من الغريب أن الملك زوسر كان قد بنى فى أول أمره مقبرة هائلة فى بيت خلاف من الطوب النى . أى أنه نحى نحو ملوك الأسرة الثانية فى ذلك ولكنه فجأة ترك مقبرته الاولى فى بيت خلاف وذهب إلى سقارة حيث بنى هرما ومعبدا ضخما كله من الحجر الجيرى الابيض . وعلى ذلك أصبحنا نعتقد الآن أن هذه الخطوة الجريئة لم تكن كنتيجة لتقدم فكره بل كانت نتيجة عبقرية فنان كبير . هذا الفنان الجرىء هو وزير زوسر إيمحوتب هذا المهندس الذى كان طبيبا ووزيرا والمشرف على كل صغيرة وكبيرة فى شئون المملكة . ولقد كان هذا الرجل أشهر من نار على علم وتحدث بنبوغه كل مصرى عاش حتى الاجيال المتأخره ولقد بلغ تقدير المصريين له أن جعلوا منه الها يخالف الاله بتاح اله الفن والصناعة . ونحن نعرف أنه أصبح عند اليونان اله الطب وسموه Ascleopios ومن البديع أن نعثر على نص تحدث فيه كاتبه الذى عاش فى عصر داريوس الاول (أى بعد ٣٠٠٠ سنة) بهذا الوزير النابغة

الاسرة الرابعة

٢٧٢٠ — ٢٥٦٠ ق . م

ملوك الاسره الرابعة :

١) سنفرو (٢) خوفو (٣) ددفرع (٤) خفرع (٥) منقرع (٦) شبسكاف

سنفرو : أخذ الملك « سنفرو » أول ملوك هذه الأسرة ابنة الملك حونى زوجة له واسمها «حوتب.هر.س» ويظهر أنها كانت واسعة النفوذ حتى إنها وصفت فى مقبرة زوجها بالوصف الآتى : « أم أولاد الملك التى اذا أمرت بأى شىء نفذ لها فى الحال »

من آثار الملك سنفرو هرمه فى ميدوم بالقرب من الفيوم ثم هرمه الثانى فى دهشور بالقرب من سقارة

وفى عصره حصنت مصر حدودها وأمنت على نفسها من الغارات الأجنبية ولقد قام سنفرو بحملة حربية ضد قبائل النحسيين الذين سكنوا بلاد النوبة وهزمهم وأسر منهم سبعة آلاف شخص واستولى على عشرين الف رأس من الغنم . ثم حارب البدو فى بلاد شبه جزيرة سينا وبعد إذ هزمهم بنى القلاع .

ثم ورد على حجر بالرمو اسم الملك سنفرو وذكرت ثلاث سنوات من حكمه : السنة الأولى سميت بسنة احضار الاربعين سفينة المحملة بخشب الأرز الدى كان ينبت فقط على تلال لبنان وهذا يدلنا على أن العلاقات التجارية كانت قائمة بين مصر وسوريا فى هذا العصر ونستدل بذلك أيضا على أن هذه العلاقة كانت بلا ريب قائمة أيضا فى عصر يسبق سنفرو .

أما السنة الثانية فسميت بسنة تعداد الماشية السابع وعلى ذلك يجب أن يكون قد سبق هذا التعداد ستة تعدادات أخرى للماشية

ثم فى الثالثة ذكرت غزوته لبلاد النوبة السابقة الذكر ومن الأشياء المهمة التى يجب ذكرها هنا أن أحد آثار هذا الملك ذكر لنا احضار حجر (نصف كريم) أزرق اللون ومن المعروف أن هذا الحجر كان المصريون القدماء يستوردونه فى العصور التالية من بلاد الفرس وهنا نتساءل هل كانت مصر فى أول عصر الأسرة الرابعة فى علاقات تجارية مع بلاد الفرس ؟

خوفو : لقد خلد هذا الملك اسمه فى التاريخ ببنائه هرمه المعروف فى الجيزة . وإنى أعتقد أن هذا البناء الضخم هو أكبر دليل على قوة الحكومة فى هذا الوقت وعن عدم شتغ لها بحروب أو فتوحات أياً كانت وعلى ذلك يمكننا أن نتحدث عن الأسرة الرابعة بأن عصرها كان عصر هدوء تام تمركزت فيه السلطة فى يد الملك ولذلك انصرف ملوك الأسرة الرابعة الى بناء إهراماتهم الهائلة ومعابدهم الواسعة وقلما نجد فى عصر هذه الأسرة حوادث خارجية تستحق الذكر وسوف تكون دراستنا للاسرة الرابعة قاصرة على دراسة آثارها الخالدة دراسة تمكننا من فهم هذه الآثار والوصول الى المغزى الذى من أجله بنيت .

الهرم

فى أوائل الاسرة الثالثة كان الملوك والمصريون أجمعون يبنون مقابرهم بالقوالب المصنوعة من الطمى الغير المحروق (الطوب النى) ولقد عرفنا كيف أن الملك زوسر نفسه بدأ بأن بنى مقبرة له من الطوب النى وفجأة تمكن المصرى من استغلال الحجر فى بناء مقابره وإهراماته وكان ذلك فى عصر الملك زوسر أيضا .

وكانت المقبرة تنقسم الى قسمين . قسم فى جوف الارض معد لدفن الميت وآخر فوق الارض . ولان الجزء المبنى فوق سطح الارض كان مائل الجوانب اصطلح الأثريون على تسميته « مسطبة » وذلك لأنه يشابه مساطب الفلاحين فى العصر الحديث .

وعلى ذلك تكون المسطبة فى أول أمرها عبارة عن بناء إما من الطمى أو من الحجر مستطيل الشكل مائل الجوانب . ومن سطح هذه المسطبة تنخفض

بئر عميقة يتراوح عمقها بين ٣ أمتار و ٢٥ متر يوصل الى حجرة الدفن التى يدفن فيها الميت فى تابوت إما من الخشب أو من الحجر .

ومن المسطبة نشأت فكرة الهرم . اذ أن الهرم المدرج ليس إلا ستة مساطب الواحدة فوق الاخرى ومن أول الاسرة الرابعة تقدمت فكرة بناء المساطب المدرجة أو ما نسميه نحن الاهرامات المدرجة وظهرت الاهرامات الحقيقية التى بنيت لتكون مقابرا للملوك حتى أوائل الاسرة الثامنة عشرة وأول هرم بناه سنفرو أول ملوك الاسره الرابعة موجود فى دهشور

لماذا بنى الهرم

يعتقد المصرى فى خلود الروح وبأنها ستحيى حياة لانهاية لها ولذلك عمل جهده على أن يسهل على الروح هذه الحياة وعرف أن من شروط هذه الحياة أن تبقى الجثة محفوظة لاتفقد أى شىء من معالمها . ولذلك بنى المسطبة ووضع الجثه فى تابوت محكم واخفاه فى اعماق الارض ثم حلى جدران المسطبة بكل ما اعتقد أنه سيحتاج اليه فى حياته الثانية من قوارب لعبور النيل الى مناظر الحصاد والزرع الى مناظر الصيد على اختلاف أنواعها الى المناظر التى تجرى فى منزله من المطبخ وتربية الحيوانات المنزلية وغير ذلك وزود كل هذه المناظر بنصوص تفسرها حتى لاتتحير الروح فى التعرف اليهـا أو تذكرتها ثم خاف أيضا أن الزمن ربما يتغلب على الجثة المحفوظة فيبليها أو يجعل العطب يدب اليها فرسم صاحب المقبرة فى مواقفه المتعددة ثم قطع من الحجر عدة تماثيل على صورة صاحب المقبرة وأودعها مكاناً خاصا نطلق عليه اسم « السرداب »

والهرم ليس إلا مقر الخلود الملك . لايحوى بدؤه إلا جثة الملك وأحيانا يوضع جثة الملكة فى حجرة خاصة بها أو يبنى لها هرم صغير بجانب هرم الملك

وفى الدولة القديمة كانت مساطب الأشراف وكبار الموظفين تبنى مرصوصة فى خطوط مستقيمة عند سفح الهرم وبذلك يطل الملك عليهم فى دار الخلود ويرعاهم كما كان الحال فى دار الدنيا

ونجد بجوار كل هرم من اهرامات الجيزة معبدين الاول معبد خاص يسمى المعبد الجنائزى يبنى عادة شرق الهرم يخصص لكبار الكهنة وللبيت المالك تقام فيه الطقوس الدينية وتقدم فيه القرابين الى الملك الراحل . ثم المعبد الثانى وهو مانسميه معبد الوادى أى المعبد الذى يقام فى الوادى بالقرب من النيل وكان بمثابة مدخل كبير تصل اليه الوفود من كل جانب حتى إذا اجتمع شملهم صعدوا الى المعبد الجنائزى بواسطة ممر طويل يصل المعبدين .

هرم الجيزة الاكبر

بناه خوفو وهو بناء هندسى محكم ، أضلاعه متساوية ، وأركانه الأربعة متجهة نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب

وطول القاعدة ٢٢٧ر٥ متر هذا مع العلم بأن طول هذه القاعدة الأصلى أى بالغطاء الذى كان يكسو الهرم كان ٢٣٠ر٣٨

وارتفاع الهرم الآن ١٣٧ر١٨ متر وكان فى الأصل ١٤٦ر٥٩ متر

ولقد أراد بعض المهندسين الأوربين أن يعرفوا مقدار ضبط المقاييس عند قدماء المصريين فانتهت أبحاثهم إلى أن الاتجاهات الضلعية لجوانب الهرم لم تحل عن خطها المستقيم إلا بضعة مليمترات

أخذت الأحجار لبناء هذا الهرم من محاجر طره والمقطم والبعض من المنطقة نفسها . ونحن اذا تصورنا العدد الهائل الذى يحتويه بناء الهرم

ومعبديه من الأحجار وتصورنا أين قطعت هذه الأحجار وكيف نقلت من محاجرها إلى سفح الهرم حيث صقلت وأعطيت الزوايا اللازمة لموضعها ثم نقلت الى مكانها لوجدنا ان هذا عمل شاق يحتاج الى نظام دقيق وهندسة عالية ودقة فى العمل وتوزيعه ثم على قوة إدارية محكمة لا يمكن للفرد العادى أن يتخيلها وقد ذكرنا أن محاجر طره كانت المصدر الرئيسى للاحجار التى بنيت منها الاهرامات فى الجيزة استغلت أيضا لهذا الغرض . أما ما استعمل من حجر الجرانيت فكان يجلب من أسوان .

وكانت الطريقة المتبعة فى قطع الأحجار هى أن توضع أوتاد (قطع خشبية طويلة) فى فجوات تنحت من الصخر على أن يكون طول وعرض الصخر بين هذه الفجوات مناسبا لمقاييس قطع الحجر اللازمة فى البناء ثم تبلل هذه القطع الخشبية بالماء حتى اذا كمل تبليل هذه القطع زاد حجمها فتنفصل الصخور التى حفرت فى جوانبها الفجوات المذكورة .

ثم تنقل هذه الأحجار بعد ذلك على زحافات حتى شاطىء النيل وبعد ذلك على المراكب حتى تصل قرب هضبة الهرم ومن هنا كانت تنقل مرة ثانية على زحافات يجرها آلاف من العمال أو الثيران على سطح مائل من الرمال والطوب ملس معبد يعلو سطحه بالتدريج كلما ازداد ارتفاع الهرم

ومن الغريب أن الملك خوفو الذى خلد اسمه فى التاريخ الى الأبد ببنائه الضخم لم يترك لنا سوى تمثال صغير من العاج عثر عليه فى أبيدوس وهو معروض الآن فى المتحف المصرى .

وقد بدأ خوفو بناء هذا الهرم عند توليته عرش مصر مباشرة وكان يجمع العمال اللازمين للقيام بهذا العمل العظيم فى وقت الفيضان حينما تعلو مياه النيل وتغمر المزارع وتجبر الفلاح على المكث فى داره طوال أشهر الفيضان

ولقد أخبرنا هيرودوت المؤرخ الاغريقى الذى زاد مصر عام ٤٥٠ ق.م أن مائة الف من العمال كانوا يعملون فى بناء هذا الهرم وكانوا يستبدلون كل ثلاثة أشهر وكانت لهم مدينة خاصة بهم وكان على الملك أن يطعمهم ويؤويهم وحدثنا أيضا هذا المؤرخ بأن الملك أمضى عشر سنوات فى قطع الأحجار اللازمة لبناء هذا الهرم بينما البناء نفسه استغرق عشرين سنة أخرى

ولقد قام أحد مهندسى الألمان المشهورين إسمه الأستاذ بورخارث بأبحاث علمية قيمة استدل منها على أن الملك استغل لبناء هذا الهرم نفس العدد الذى حدثنا به هيرودوت وهو مائة الف عامل ولكنه يعتقد بأن الهرم لم يستغرق فى بنائه مع قطع الأحجار ونقلها أكثر من ٢٠ عاما

أما الباب الأصلى لدخول الهرم فكان فى الجانب الشمالى ويقع هذا المدخل على ارتفاع ١٥ متر من القاعدة . وبأسفل الباب فتحة فتحها الخليفة المأمون ابتغاء الوصول الى داخل الهرم . ويؤدى مدخل الهرم الاصلى إلى طريق مائل ارتفاعه ١ر٢٢ وعرضه متر .

الملك خفرع : أهم ما بناه هذا الملك هو هرمه الثانى الذى يظهر كما لو كان مرتفعا عن الهرم الأكبر بينما هو أصغر منه ويبلغ ارتفاعه الآن ١٣٧ مترا وطول القاعدة الحالى ٢١٠ مترا (مقابل ٢٣٢ مترا فى هرم خوفوا) وسبب ظهوره أعلى من هرم حوفو أنه بنى على هضبة تعلو الهضبة التى بنى عليها هرم خوفو .

ويظهر أن الملك خوفو كان قد أستنزف جزءا كبيرا من موارد البلاد فى بناء هرمه لأن بناء هرم « خفرع » جاء أقل منه اتقانا . ولهذا الهرم مدخلان فى الجانب الشمالى أحدهما لا يرتفع الا قليلا عن سطح الهضبة والآخر يعلو سطح الهضبة بنحو ٤٥ متر وكلاهما يؤدى الى غرفة الدفن التى يوجد بها تابوت من الجرانيت الاحمر ليس عليه نقوش أو كتابات .

وكانت الاهرامات عادة مكسوة من الخارج بلوحات حجرية ملساء ولقد بقى جزء من هذا الكساء فى أعلى الهرم الثانى

وقد ذكرنا أن لكل هرم معبدين المعبد الجانزى ومعبد الوادى ولقد بقى معبد الوادى لهرم خفرع حتى الآن

وواجهة هذا المعبد كانت تشبه فى بنائها المصطبة وكان يوجد أمامها فى الوسط ناووس حجرى يحتمل أنه كان يحوى تمثال الملك . وكان لهذا المعبد مدخلان أمام كل منهما تمثال لأبى الهول بقيت منه الى الآن قواعدها المستطيلة وهذان المدخلان يوصلان إلى دهليز مستطيل يوصل من ناحية أخرى إلى ردهة بشكل حرف T الافرنجى بها ستة عشر عمودا مربعا من الجرانيت ستة أعمدة فى الذراع العرضى وخمسة أعمدة على كل جانب من جانبى الذراع الطولى . وكان ارتفاع كل منها خمسة أمتار . أما هذه الردهة فكانت تضاء بواسطة فتحات منحرفة فى زوايا السقف . فيسقط الضوء على الارض المكسوة

بالمرمر وعلى الجدران الجرانيتية وينعكس لذلك ضوء جميل فى جوانب الردهة ولم يكن بهذه الردهة ولا الدهليز أى نقوش أو صور .

وكان أمام جدران هذه الردهة ٢٣ تمثالا للملك خفرع يدلنا على ذلك الحفرات المستطيلة التى احتفرت لتكون قواعد لهذه التماثيل . وقد نقل بعض هذه التماثيل الى المتحف المصرى بالقاهرة وأغلبها من المرمر كما كان البعض منها من حجر الديوريت الأزرق الجميل وحجر الشيست الأخضر .

وتجد فى الزاوية الجنوبية الغربية للذراع الطولى من الردهة عدة مخازن مكونة من طابقين يعلو أحدهما الآخر وبكل طابق منهما ثلاث غرف وفى الزاوية الشمالية الغربية للذراع العرضى للمعبد ممر به غرفه مبنية كلها من المرمر تشتهر باسم غرفة البواب . وأمام هذه الغرفة مستوى مائل يؤدى بك الى سطح المعبد وأرضية هذا المستوى وحوائطه مبنية من حجر المرمر .

ولهذا المعبد باب فى جانبه الغربى حيث يبدأ منزلق طويل نسميه الممر مرصوف بحجارة جيرية ضخمة ولقد أنتجت الأبحاث الجديدة فى منطقة الهرم أن هذا الطريق كان مسورا ومسقوفا وكان يضاء بفتحات صغيرة

أبو الهول

فى شمال معبد الوادى لهرم الملك خفرع نجد تمثال « أبو الهول » وكان فى الاصل صخرة طبيعية نحتها الفنانون على شكل أسد رابض له وجه الملك خفرع . فكأنه صورة الملك رابضا كالأسد ومولياً وجهه ناحية الشرق ليعبد الشمس .

وارتفاع أبى الهول ٢٠ مترا وطوله ٤٦ مترا وعرض وجهه أربعة أمتار وارتفاع الاذن متر وثلث والأنف متر ونصف وعرض الفم متران ونصف

ويوجد على رأسه جزء من تاجه وبقية من الحية (رمز الملكية) التى كانت على جبهته .

وقد طمرته الرمال فى عصور التاريخ المختلفة وأزيلت عنه عدة مرات وكان أول من قام بذلك الملك تحتمس الرابع ودون لنا ذلك فى اللوحة الجرانيتية التى بين مخلبيه إذ يقول : انه خرج مرة للصيد فى الصحراء ثم غلبه النعاس فنام قليلا ورأى فى نومه الملك خفرع فى هيئة أبى الهول وبشره بأنه سيرتقى عرش مصر وطلب منه أن يزيل عنه الرمال . وقد نفذ الملك هذه الرؤيا عند جلوسه على عرش مصر

ثم أزيلت عنه الرمال ورمم التمثال فى عهد البطالسة وكذلك فى عصر الرومان وأضافوا إليه فى نفس الوقت مذبحا للقرابين وكذلك السلالم التى بالجهة الشرقية

ثم فى العصر الحديث قامت مصلحة الآثار بدورها فى إزالة الرمال عنه حتى ظهر بارزا جميعه

هرم الجيزة الثالث

بناه الملك منقرع وارتفاعه فى الاصل ٦٦ مترا والآن ٦٢ مترا وطول القاعده وعرضها ١٠٦ أمتار

ويدل بناء هذا الهرم على أن البلاد فى عهد الملك منكورع كانت قد أنهكت قواها ونضبت موارد الثروة فيها فلم يتمكن من اقامة بناء ضخم كما فعل كل من خوفو وخفرع من قبل . فكما نرى يبلغ ارتفاع هرمه نصف ارتفاع الهرم الاكبر . ويمكن أن نفسر صغر هرم الملك منقرع بأن الملك لم يعمر طويلا حتى يتمكن من انشاء هرم كبير . فبينما خوفو عمر ٦١ سنة وعاش خفرع ٦٣ نجد أن منقرع حكم فقط مدة لا تزيد عن ثمانية سنوات . وعلى كل حال كان الملك منقرع ملكا ضعيفا ازداد نفوذ كهنة عين شمس فى أيامه فأضعف هذا من سلطته .

وما زال هذا الهرم محتفظا بجزء كبير من كسوة قمته التى كانت من الحجر الجيرى . أما أسفله فكان من الجرانيت الاحمر . ومدخله فى الجهة الغربية . وقد كسيت أرضية مدخله بالجرانيت ويؤدى هذا المدخل إلى غرفة أولى مزينة بمربعات منحوتة فى الصخر ثم نجد ممرا أفقياً يؤدى الى غرفة يظهر أنها لم تنته بعد يبلغ طولها ١٤ مترا وعرضها أربعة أمتار وكان القصد منها تضليل اللصوص وقد وجد فيها تابوت باسم الملك منقرع . وفى هذه الغرفة ممر مختف فى الأرض يؤدى الى غرفة الدفن الحقيقية وهنا وجد تابوت جميل من حجر البازلت بدون نقوش ووجد غطاؤه المكسور والجثة فى الممر (والجثة موجودة الآن بالمتحف البريطانى) .

وقد أخرج التابوت البازلت وأرسل إلى لندن ولكن السفينة التى نقلته غرقت به بالقرب من الساحل الاسبانى

وتحت هذه الغرفة غرفة أخرى كان بها تماثيل الملك

ووجد في الجهة الشرقية من هذا الهرم على بعد ١٢ مترا أطلال قاعدة المعبد الجنائزى ويظهر أن معبد الوادي لهذا الهرم لم يتم بل بنى فقط باللبن (الطوب النى)

ددف رع : هذا الملك ذكرته فى مبدأ محاضراتى عن الأسرة الرابعة بعد الملك خوفو والسبب فى ذلك أنه ذكر فى جدول أبيدوس وسقارة بين الملك خوفو وخفرع . ولو أن هناك من يضعه بعد الملك منقرع معتمدين فى ذلك على مانيتون ومما يؤسف له أننا لم نعثر على آثار لهذا الملك سوى خاتم مستدير مكتوب عليه اسمه . والأستاذ يونكر يضع هذا الملك بعد خوفو . ويقول انه نقل جبانته من منطقة الجيزة الى شمالها فى منطقة أبو رواش التى تبعد ١٠ كيلو متر عن الجيزة . ولقد اختار هضبة عالية ليبنى عليها هرمه وهذه الهضبة كانت منحدرة انحدارا مستقيما فى جانبها الشرقى . ثم ان هرمه كان يختلف فى فن بنائه عن اهرامات الجيزة وهو يشبه هرم الملك خوفو الموجود فى المنطقة التى نسميها «زاوية العريان» . أى انه يحفر أساس الاهرام على مساحة واسعة جدا مربعة الشكل عميقة يتوسطها تابوته ، والمدخل يبدأ من سطح الأرض وينحدر تدريجيا باستقامه الى الجزء الأسفل حيث التابوت ويعتقد الأستاذ يونكر أن حكومة الملك ددف رع عمرت حوالى ثمانية سنوات

شبسسكاف : خلف منقرع ولقد ذكر اسمه على لوحة بالرمو وربما كان ابن منقرع ونعرف عنه أنه حكم ما يقرب من أربع سنوات ولم نعثر له على هرم ولكن حجر بالرمو ذكر سنة من عصر هذا الملك سماها « سنة بناء الهرم » ولذلك بحث العلماء فى منطقة أهرامات الجيزة عن هرم له واعتقد البعض أن هرمه هو ذلك البناء المتهدم الذى بقى منه أساسه فقط فى منتصف الطريق بين معبد الوادى للملك خفرع ومعبده الجنائزى

هجر الملك شبسسكاف المنطقة التى اعتاد أجداده أن يبنوا أهراماتهم فيها وهى منطقة الجيزة وذهب الى سقارة وبنى لنفسه مقبرة ضخمة تشبه فى شكلها التابوت بغطائه المقوس . وفى الجهة الشرقية منه بنى معبدا صغيرا يختلف فى نظام بنائه كل الاختلاف عن معابد اهرامات الجيزة . وهذا البناء هو المعروف عند أهالى سقارة بمصطبة الفرعون .

يجدر بى هنا وما زلنا فى الحديث عن الاسرة الرابعة أن أحدثكم قليلا عن الاكتشاف المهم الذى عثر عليه الدكتور سليم حسن بك فى منطقة الأهرام بالجيزة وهذا الاكتشاف هو ما اصطلحنا على تسميته بالهرم الرابع وقد بنته ملكة لم تكن معروفة قبل ذلك اسمها « خنت كاوس » تعتبر فى الغالب من أواخر الأسرة الرابعة . ويعتقد الكثير بأنها أخت الملك شبسسكاف وبنت الملك منقرع ويتبين من المنظر العام أن الملكة اختارت موقعا فى الجبل الغربى كان الجزء الاكبر منه عبارة عن صخرة مرتفعة جعلتها على شكل مربع وغطتها من الخارج بطبقة من الحجر الجيرى الابيض ثم أضافت الى هذه الصخرة عدة أجزاء فتم لها الشكل الهرمى .

ومما سبق عرفتم أن لكل هرم معبدين معبد جنائزى يقام بجوار الهرم

ثم معبد الوادى وقد أرادت هذه الملكة أن يكون معبدها الجنازى منحوتا داخل الصخرة الطبيعية المكونة للجزء المهم من هذا الهرم أما معبد الوادى فقد عثر عليه بجوار معبد الوادى الخاص بهرم سنفرع

الاسره الخامسة

حكمت الاسرة الخامسة من حوالى عام ٢٥٦٠ إلى عام ٢٤٧٠ ق . م وعاصمة البلاد بقيت فى منفيس وما جاورها وآثار هذه الاسرة معظمها موجود فى سقارة ثم فى أبوصير شمال سقارة وفى دهشور .

وتاريخ الاسرة الخامسة يظهر لنا مدى التطور الفكرى والاجتماعى الذى وصلت اليه مصر بعد تلك الخطوات السريعة التى قطعتها الحضارة المصرية منذ الاسرة الاولى حتى آخر الاسرة الرابعة . وهو تطور طبيعى نراه ممثلا فى حياة كل الامم المتحضرة . هذا التطور الذى تدعو اليه بل تحتمه النظم الاقتصادية فى بلد كمصر استمرت السلطة المركزية فيه قابضة على ناصية الامور كلها قروناً عديدة . ومن الصعب بل من المستحيل أن تستمر هذه السلطة المركزية فى تعسفها هذا قائمة بكل الالتزامات المطلوبة منها دون أن يأتى الوقت الذى تواجه فيه المعضلة الاقتصادية التى تواجهها كل الامم الديكتاتورية الآن . ألا وهى نقص موارد الدولة واستنفاد كل مجهود الامة لتحقيق فكره أو هدف واحد .

وقد كانت السلطة المركزية فى عصر الأسرات الاولى التى سبقت الاسرة الخامسة ونخص بالذكر الاسرة الرابعة قابضة بيد من حديد على جميع موارد الامة فكانت صاحبة الحق فى توزيع الاراضي علي من تثق فيهم من الاسرات

الغنية فى مصر وكانت صاحبة الحق فى السماح لرجال الدولة ببناء المقابر وصناعة التوابيت والتماثيل فى معامل ومصانع الدولة وترى ذلك ظاهرا فى كل مقبرة فيذكر صاحبها أن صاحب الجلالة الملك رضى عنه أو أعجب بمؤهلاته وأظهر هذا الرضى بأن أمر نحاتيه أن يصنعوا تمثالا لهذا الموظف ثم أمر بنائيه ببناء مقبرة له على أرض وهبها الملك له لهـذا الغرض

ثم وظائف الدولة الـكبيرة مثل الوزير — قيادة الجيش — رئاسة الكهنة — حامل الختم الملـكى — كانت منحصرة فى يد أفراد البيت الملـكى

وما أن انقرضت الأسرة الرابعة وجلس ملوك الأسرة الخامسة على عرش مصر حتى ضعفت السلطة المركزية ووزعت الوظائف الـكبيرة على أفراد من الشعب وأصبح لحكام الاقاليم شيء من النفوذ والسلطة المحلية ولو أنهم ظلوا متصلين كل الاتصال بالسلطة الرئيسية فى العاصمة

ثم هناك ظاهرة جديدة ظهرت فى عصر الأسرة الخامسة . وذلك أن الامة المصرية بدأت تبدى عنايتها بالبلاد الواقعة وراء حدودها وخصوصا بلاد النوبة بينما كانت الامة فى عصر الاسرة الرابعة تبـذل كل جهودها وتصرف نشاطها فى شئون داخلية مثل بناء إهرامات ضخمة ومعابد واسعة ولم تعن بالبلاد المجاورة لها الغنية بأخشابها ومعادنها وما حلت الاسرة الخامسة حتى رأينا البعثات قد تعددت ، فأرسلت فى عصر كل ملك بعثات إلى سوريا وإلى بلاد الصومال ثم إلى بلاد السودان فيما وراء الشلال

ونحن إذا قارنا بين الاسرتين الرابعة والخامسة وجدنا أن أهم الاختلافات بين عصريهما هو من الناحية الدينية .

فان الاسره الخامسة هى التى جعلت الاله رع (إله الشمس) إلهاً للدولة ونحن اذا رجعنا إلى الماضي أى إلى ذلك العصر الذى وحدت فيه مصر لاول

مرة لتذكرنا أن هيليو بوليس مقر عبادة الاله رع كانت عاصمة مصر المتحدة
وفى عهد الأسرات الأولى حتى آخر الأسرة الرابعة كانت منفيس عاصمة مصر
المتحدة . وفى عهد الأسرات الاولى حتى آخر الاسرة الرابعة كانت منفيس
عاصمة الدولة وكان إله الدولة فيها هو حوريس وعندما رجحت كفة كهنة
هيليو بوليس وتمكنوا من الاستيلاء على الحكم قربوا بين الالهين وأدمجوها
وجعلوا منهما الهاً واحداً سموه حوريس رع وصوروه على شكل انسان له رأس
الصقر وعلى رأسه قرص الشمس ؛ وأحياناً صوروا قرص الشمس وجعلوا له
جناحين هما جناحا الصقر

ولقد كانت هيليو بوليس مدينة أشتهرت بمدرستها الفلكية حتى أن رئيس
كهنتها لقب بالفلكى العظيم واليها يرجع الفضل فى وضع أساس الفكرة
الدينية « كيف وجد العالم » . فمن تعاليم كهنة هيليو بوليس أن الاله : « أتوم
رع » أول الهة المعمورة خلق من نفسه الهين : شو وكان اله الفضاء ثم تفنوت
الهة الماء ثم تزاوج هذان فأنجبا « جب » اله الارض و « توت » الهة السماء
فتزاوجا وأنجبا أوزوريس وإزيس ثم زيت ونفتيس وتزاوج الاولان فكان
ولدهما حوريس الذى انتقم لابيه من عمه زيت ، وهذه المجموعة من الآلهة
الناشئة عن التزاوج تسمى (تاسوعة هيليو بوليس) ، هذا وهناك تعاليم
أخرى عن خلق المعمورة ظهرت فى مدرسة منفيس الدينية وهى تقول إن
الاله بتاح هو أول الهة العالم وهو الذى خلقه ثم أتوم كان فكرته وحوريس
قلبه وتحوت لسانه وعلى ذلك استعان الاله بتاح بالفكرة والقلب واللسان
فى خلق العالم . ولقد بقيت هذه التعاليم بجانب تعاليم هيليو بوليس ولكن لم
تصل فى قوتها وانتشارها إلى ما وصلت الية تعاليم هيليو بوليس

ولم يتمكن الآله رع أن يصبح إلها للدولة إلا فى عصر الأسرة الخامسة ولكن ظهرت فى العصور التى تسبق الأسرة الخامسة بعض مظاهر تدل على أن هذا الآله وجد بين رجال المناطق المجاورة من يبجله ويعتقده : فمثلا نعرف أن ثانى ملوك الأسرة الثانيـة كان اسمه نب رع أى « الآله هو رع) ثم نجد ثلاثة من ملوك الأسرة الرابعة ذكروا رع فى أسمائهم وهم ددف رع ـ خفرع ـ منقرع . وأيضاً ظهور لقب خامس من ألقاب ملوك مصر الا وهو « ابن رع » ظهر هذا اللقب فى عصر الملك منقرع وهذا اختلاف كبير يبين لنا مركز الملك الدينى فكما نعرف كان الملك حتى الأسرة الرابعة هو حوريس وكان يطلق على نفسه اسم الآله العظيم وفجأة أصبح الملك ابن الآله رع وليس هو الآله رع بنفسه ، وفوق ذلك فقد اكتفى بأن يلقب نفسه « بالآله الطيب » وجعل « الآله العظيم » كصفة من صفات الآله رع .

هذا كله يدل على أن الملكية فى مصر أخذت شكلا آخر وأن الآله وضع فى درجة أعلى من درجة ملك مصر وكان ذلك كما ذكرت من أول الملك منقرع الذى بدأ بأن سمى نفسه ابن الاله رع وأخذت هذه الفكرة الدينية مظهرها الكامل فى عصر الأسرة الخامسة

بردية وستكار : ولقد وصلت الينا بردية قديمة تحدث كاتبها عن ملوك الأسرة الخامسة .

هذه البردية اسمها بردية وستكار (وسميت بهذا الاسم تخليداً لأسم من عثرت عليها فى مصر (مس وستكار) ولقد باعت هذه السيدة هذه الورقة البردية الى العالم الألمانى لبسيوس وانتقلت من هذا الى متحف برلين ولا تزال باقية فيه.

وتدل لغة هذه البردية على أنها كتبت فى عصر الأسرة الثانية عشرة غير

أن العصر الذى تحدث عنه الكاتب كان عصر الأسرة الرابعة ولقد ورد من أسماء ملوك هذه الأسرة خوفو وخفرع . وبدأ كاتب هذه القصة التى كتبت على بردية وستكار حديثه فقال :

ذات يوم لما كان الملك خوفو يحكم كل البلاد قال لكبير رجاله وكان واقفاً أمامه: اذهب وناد جميع أبنائى ووزرائى لأسألهم عن شىء . فحضر أولاد الملك ووزراؤه ووقفوا أمامه وعندئذ خاطبهم قائلا : هل يعرف أحد منكم رجلا يمكنه أن يقص على شيئاً من أعمال السحرة.

وهنا كتب بعض القصص التى حكيت للملك من أولاده عن رجال قاموا بأعمال سحر عجيبة وعاشوا فى أزمنة غابرة . وبعد أن انتهوا من ذلك تقدم اليه ابنه (حور ددف) وقال :

لقد سمعت جلالتك قصص السابقين التى لا يعلم صدقها أحد ولكنى سأجلب رجلا لجلالتك يعيش فى أيامك ، فسأله الملك : ومن يكون هذا الرجل ؟ فأجابه أنه رجل يدعى « ددى » له من العمر مائة سنة وعشر . يأكل كل يوم ٥٠٠ رغيف وفخذ عجل ويشرب مائة كأس من الخمر الى هذا اليوم . وهو يعرف كيف يعيد الرأس بعد فصلها وكيف يجر الأسد وراءه . وهو يعرف زيادة على ذلك صور منازل تحوت التى يبحث عنها جلالتكم منذ زمان بعيد ليعمل مثلها فى هرمه .

وفعلا أحضر الملك هذا الساحر وقام أمامه بكل أعاجيبه السحرية ونجح فيها كل النجاح .

ثم سأله الملك خوفو : وهل حقا مايقال انك تعرف رسوم منازل تحوتى؟ أجابه ددى ولا أنا لا أعرف هذه الرسوم ولكنى أعرف مكانها .

فسأله الملك وأين هـذا المـكان ؟ فأجابه ددى : يوجد صندوق حجرى في غرفة اسمها غرفة السطح فى مدينـة هيليوبوليس وهى فى هـذا الصندوق وليس يقدر على إحضارها اليك إلا رجل واحد . فسأله الملك ومن يكون هذا الرجل؟ أجابه ددى : هو أكبر الثلاثة الأبناء الذين فى جسم (رد ـ ددى) فقال جلالته : ومن تكون هذه السيدة فأجابه ددى هى زوجة أحد كهنة رع وقد علمت هى من رع بمولد هؤلاء الأبناء الثلاثة ولقد وعدها الآله بأن أولادها بالتتابع سيتولون الحـكم على بلاد مصر

حزن الملك على ذلك ولـكن ددى أكد له أنه — أى الملك خوفو — سيحكم ثم بعده أولاده ثم بعد ذلك أولاد هذه السيدة.

الأدب والفن : لقد تحدثت اليكم عن الانقلابات التى حدثت فى مصر فى عصر الأسرة الخامسة من الناحيه السياسية والدينية والأجتماعية . وبقى على أن أتحدث عن الناحية الأدبية والفنية :

عصر الأسرة الخامسة عصر غنى بوثائقه الأدبية ولقد وصلت الينا أوراق بردية دلتنا على مظاهر الفكر المصرى فى ذلك العصر .

ومن بين هذه الأوراق ماتحدث عن واجبات المصرى كفرد فى المجموعة وصاغها كاتبها (واسمه بتاح حوتب) فى قالب نصائح وبين فيها للمصرى قواعد الحديث ثم العادات المتبعة فى الزيارة وواجب الأبن نحو أبيـه ثم الصداقة وأسسها وحقوق الحاكم والتزاماته

وأعطيكم الآن أمثلة من هذه النصائح :ـ

١) إذا دخلت مجلسا فتـكلم فيما تعرفه والتزم الصمت إذا جهلت أمرا لأن الـكلام صناعة وفن وهو أصعب من أى فن آخر .

٢) لاتعتمد على الثروة إذا أصبحت من أصحابها ولا تنس أنها هبة من الله

وانها لاتعطى لك الحق فى احتقار من هو أصغر منك .

٣) إذا كنت صديقا لشخص فلا تكثر عليه الأسئلة ويكفى إخلاصك له ويمكنك إظهار صداقتك له من حديثك اليه

٤) إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل مايقدمه لك ولا تطل نظرك اليه ولا تبادره الحديث قبل أن يسألك . لأنك تجهل مايوافق مشربه بل تكلم عندما يسألك فيعجبه كلامك .

٥) لاتخن من ائتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك .

٦) إذا دخلت منزلا لغيرك فاحذر أن توجه ذهنك الى خدر نسائه فكم هلك أناس من جراء ذلك .

٧) إذا كنت عاقلا فرب ابنك حسبما يرضى الله تعالى . وإذا شب على مثالك وجد فى عمله فاحسن معاملته واعتمد به . أما اذا طاش وساء سلوكه فهذب أخلاقه وأبعده عن الشرور لئلا يستخف بأمرك .

٨) إذا كنت عاقلا فاتخذ لك زوجة . ودبر لنفسك منزلا . وأحب زوجتك التى هى شريكتك فى حياتك وقدم لها الطعام والشراب والملبس وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور . ولا تكن شديداً معها فباللين تملك قلبها . وأد مطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك

٩) لاتترك التحلى بحلية العلم ودماثة الاخلاق .

كذلك وصل الينا من عصر الأسرة الخامسة والأسرة السادسة مانسميه « نصوص الاهرامات » . وهى مجموعة قديمة جداً نقشت على جدران حجرات الدفن فى هذه الاهرامات . هذه النصوص ليست إلا الطقوس الدينية التى كانت تقام عند الوفاة . وفى أيام الأعياد . كتبت فى قالب أغانى تحوى آمال وتمنيات الميت فى الخلود . زد على ذلك أنها تشير الى بعض العادات والنظم

فى العصر القديم . ولذلك فهى تعد مجموعة تاريخيـة سجلت تطور المصرى فى حياته وعقائده الدينية والاجتماعية .

أما الناحية الفنية فسوف يطول شرحها إذا أردت الأسهاب ويكفيكم أن أن تعرفوا أن الأسرة الخامسة كانت تختلف عن الأسرة الرابعة من ناحيـة الفن. فنحن اذا نظرنا الى الاسرة الرابعة . وجدنا أبنيتها ضخمة عظيمة واسعة خالية من النقش والزخرفة . أعمدتها مربعة بسيطة . أما أبنية الاسرة الخامسة فكانت صغيرة بالنسبة للأسرة الرابعة . مزخرفة تكثر فيها الالوان والنقوش والرسومات . أعمدتها مستديرة أو مثمنة أو لها ١٦ ضلعا تنتهى بقمة كقمة النخلة أو كزهرة اللوتس .

اسماء ملوك الاسرة الخامسة

١) أومر كاف
٢) ساحو رع
٣) نفر إركا رع
٤) شبسسكا رع
٥) نفر إف رع
٦) نى أومر رع
٧) منكاو حور
٨) دد كا رع (اسيسى)
٩) أو ناس

لقد بنى كل ملك من ملوك الاسرة الخامسة هرما له ثم معبدا للشمس . وبذلك انفرد الأله بعبادة خاصة تقام فى معبد خاص . هذه المعابد الشمسية

كانت تختلف عن المعابد الجنائزية الملحقة بالهرم فكانت تبنى حول مسلة ضخمة مقامة على قاعدة عالية يبلغ إرتفاعها ٦٠ مترا . وكانت هذه المعابد لاتحوى صورة للاله أو تمثالا له . فاله الشمس لم يكن كالآلهة الاخرى التى تعيش على الارض أو تختفى فى جسم حيوان أو جماد . فالشمس تسطع فى السماء وترسل أشعتها على الارض . هذه الاشعة كانت تتجمع على قمة هذه المسلة الذهبية ثم تنعكس ثانية الى الارض

أوسر كاف : أول ملوك الاسرة الخامسة وكان من رجال الدين لم تقع فى عصره حوادث تذكر لأنه كان مهتما بتوطيد سياسته فى الداخل .

سحو رع : أما الملك سحو رع فكان أول ملك استغل هدوء الحالة فى مصر وصرف همه الى التوسع واتجه فى سياسته الى ماوراء الحدود . فأرسل اسطولا الى بلاد فينقيا حيث هزم شعبها وأسر عدداً كبيرا منهم وجلب الى مصر رؤساء القبائل وأولادهم ونساءهم ثم عدداً كبيراً من الماشية .

وكذلك اشتبك فى حرب مع القبائل التى سكنت بلاد ليبيا وهزمهم شر هزيمة وأرسل أسطولا بحريا الى بلاد بونت (الصومال) لجلب الاخشاب الثمينة . والصمغ والبخور كما أنه أرسل حملة برية الى شبه جزيرة سينا .

ولقد حافظ الملوك الذين خلفوا سحو رع على عرش مصر على علاقاتهم السياسية فيما وراء الحدود وكانوا تارة يخفقون وتارة ينجحون فى مهمتهم هذه يدفعهم الى ذلك نضوب الثروة مصر واحتياجهم الى توطيد سلطانهم على حكام الاقاليم الذين بدأوا يشاركون الملك فى سلطته المركزية سالبين منه هذه السلطة رويداً رويدا .

ومما يؤسف له أننا مازلنا غير قادرين على إعطاء صورة واضحة لعصر كل

ملك من ملوك الأسرة الخامسة الذين خلفوا سحو رع . ونكتفى
مظاهر الحضارة فى عصر هذه الأسرة

الاسرة السادسة

٢٤٢٠ — ٢٢٧٠

لقد انتهت الأسرة الخامسة بموت ملكها الأخير أوناس و
الدواعى التى أدت الى انقراض هذه الأسرة كما لا نعرف هل أتت ا
بعد أن تزوج أول ملوكها بأميرة من بيت الأسرة الخامسة أم اغ
بالقوة . وكل مانعرفه أن الأسرة الجديدة بقيت فى منفيس وحك
أسس الحكم القديمة .

وملوك هذه الأسرة هم :

١) تيتى : ويظهر أنه حكم طويلا ويقدرون مده حكمه بعشر
٢) أوسركا رع : ولا نعرف عنه إلا النزر القليل
٣) ببى الأول (ميرى ـ رع) حكم ٢٠ عاما
٤) مرنرع الأول : حكم ٥ أعوام
٥) ببى الثانى (نفركا رع) : ولقد تولى عرش مصر حينما
أعوام وتولى العرش تحت وصاية أمه ولقد عاش مائة عام ويكون
٩٤ سنة وهى أطول مدة حكم فيها ملك أمة .

ونلاحظ أن عصر الأسرة السادسة كان عصرا حافلا بحوادث
تهدم كيان الأمة المصرية وتقودها الى الخراب لولا يقظة ال
ولوجود قواد بارعين فى أساليب الحرب أخلصوا وتعاونوا فى
حدودها وضد ذلك التيار الجارف من القبائل المهاجرة التى

وهاموا على وجوههم لاهم لهم إلا الغزو والحرب وتدفقوا الى مصر من حدودها الشرقية . ونحن نعرف أن القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . كان ممتازاً بلقب قرن الهجرة . وذلك أن قبائل عديدة سكنت الجزء الغربى والشمالى من بلاد الفرس تحركت من أوطانها واتجهت مجتاحة كل ماوجد أمامها نحو الغرب والجنوب ووصلت فى هجرتها الى حدود مصر مجتازة فى طريقها بلاد الآموريين والكنعان ثم فلسطين .

ولقد استطاع الملك بيبي الاول أن يقضى على الغزاة وتمكنت مصر فى ذلك العصر أن تتقى شر هذه القبائل طوال الأسرة السادسة ولو أنها فشلت فى التغلب عليهم لوقعت فى المأزق الذى وقعت فيه عندما هاجمها الهكسوس فى عصر الأسرة الثالثة عشرة فدخلوها وخربوا معابدها وأبادوا حضارتها ورجعوا بمدنيتها أجيالا الى الوراء .

العهد الأقطاعى ومظاهره

ولقد عرفنا أن الأسرة الخامسة أسست من بين كهنة الآله رع وكان من المعقول أن هؤلاء الملوك وجهوا جل عنايتهم الى الامور الدينيــة . أرادوا بذلك أن يوطدوا ملكهم بتوطيد دينهم ومعتقداتهم ولكن فى نفس الوقت أغفلوا قليلا شئون السياسة وجعلوها تفلت من أيديهم وتتركز فى أيدى رؤساء الأقاليم الذين انتهزوا هذه الفرصة وأخذوا يعملون على جمع السلطة فى أيديهم ونجحوا فى ذلك كل النجاح بل تمادوا الى أكثر من هذا وجعلوا مناصبهم وراثية يتولاها الأبناء عن الآباء وتركوا العاصمة وأسرعوا الى ولاياتهم ومكثوا فيها لايتركونها إلا إذا تحتم عليهم ذلك . أما قبورهم التى كانت تبنى حول هرم ملك مصر بأذن خاص منه فقد أصبحت الآن تبنى فى الاقاليم بالقرب من مدنهم . بل ذهبوا الى أكثر من ذلك . إذ أنهم بعد أن

شعروا بسلطتهم أحاطوا أنفسهم بالحرس والموظفين وأصبح كل منهم أشبه بملك صغير وسموا أنفسهم (أمراء الاقاليم العظام) بدلا من حكام الاقاليم . هؤلاء الأمراء أصبحوا قوة يخافها كل من جلس على عرش مصر وهذا هو ماحدث فعلا إذ أن ملوك الاسرة السادسة بدؤا حكمهم بأن توددوا الى هؤلاء الحكام وأمعنوا فى التودد فكانوا يضيفون أبناءهم فى القصور الملكية ويربونهم مع أبنائهم . ولم يكن هذا التودد لخوفهم منهم فقط بل كان أيضاً سياسة أرادوا به أن يضمنوا ولاءهم للعرش . وكانوا يستميلونهم الى سكنى العاصمة كى يتمتعوا بنعيمها وينغمسوا فى ملاذها فيلهيهم ذلك عن التفكير فى الجاه والسلطان .

ونحن نكاد نشبه ذلك العصر بالعصر الاقطاعى فى أوروبا الذى حدث فى القرن الخامس والعاشر بعد الميلاد حيث كان حكام الاقاليم الذين يلقبون (بـ الدوق والكونت والمركيز) لهم من السلطة ماجعل الملوك يخرجون بجيوشهم لحاربتهم وسلب السلطة منهم وإضعاف شوكتهم كما حدث ذلك من ملوك الكارولينجين .

ولكن هؤلاء الحكام استطاعوا أن يستردوا سلطتهم مرة أخرى بعد موت شارلمان .

<u>ببى الأول</u> : ولقد كان الملك ببى الأول بلا نزاع أقوى وأعظم ملوك هذه الاسرة . فسياسته الداخلية كانت ناجحة إذ تمكن من أن يستميل حكام الاقاليم وبذلك أمن جانبهم وتفرغ للشؤون الخارجية . ولقد استعان بخدمات رجل فذ حكيم من بين موظفيه اسمه أونى أولاه كل ثقته وجعله قاضياً ثم كاهنا ثم ناظرا على أملاكه ثم قائداً أعلى لجيوشه .

ولقد نجح أونى هذا فى محاربة قبائل البدو الذين هاجموا حدود مصر الشرقية . ولقد جمع جيشاً جراراً من المصريين والنوبيين والليبيين واضطر

أن يصد هجماتهم خمسة مرات وفى كل مرة يوقع بهم خسائر فادحة ويطاردهم الى مدنهم ويخربها ويتركها قاعا صفصفا . ثم بعد ذلك اضطر أونى هذا نزولا على أمر ملكه ببي الاول أن يذهب مرة سادسة الى فلسطين على رأس حملة بحرية نجحت كل النجاح وفتك بالعدو ورجع سالما .

مرنرع : ولقد دام حكم ببي الاولى عشرين عاما كانت مصر فيها تتمتع بعصر ذهبي لم تر مثله فى عصر أى ملك آخر من ملوك الاسرة السادسة . ولما مات ببي الاول خلفه ابنه مرنرع الذى احتفظ بالوزير أونى ورقاه الى حاكم الجنوب وذلك لظهور الاضطرابات فى بلاد النوبة واضطراره أن يوجه همه الآن الى هذه البلاد لأرجاع السكينة والهدوء اليها . وفعلا توجه أونى الى بلاد النوبة على رأس جيش كبير وتمكن من هزيمتهم وجعل حدود مصر وراء الشلال الثانى ورجع بغنائم لاعد لها الى مصر .

ببي الثانى : عاش الملك مرنرع مدة قصيرة ومات بعد أن حكم خمس سنوات وخلفه أخوه ببي الثانى وهو فى السادسة من عمره وكما قلت لكم عاش حتى بلغ المائة فكانت مدة حكمه أطول مدة عرفها التاريخ .

ولقد مات أونى فى أوائل عصر هذا الملك وخلفه فى منصب حاكم الجنوب رئيس أسرة كانت تحكم جزيرة الفيلة التى تواجه أسوان واسمه حرخوف .

ولقد قام حرخوف بعدة حملات الى بلاد النوبة وتوغل فيها وتمكن من الوصول أيضا الى ماوراء الشلال الثانى وأخضع القبائل الثائرة هناك

وفى أواخر أيام ببي الثانى انتهز أمراء الاقاليم فرصة ضعفه لشيخوخته واستعادوا كثيرا من سلطتهم وجبروتهم وبعد وفاته خلفه ملوك ضعاف حكموا مدداً قصيرة

كلمة عامة عن الحالة الفكرية

في الدولة القديمة

يصعب علينا أن نشبه المصرى بالاغريقى فى ناحيته الفكرية . فالمصرى لم يهتم بالعلوم من ناحيتها العلمية المحضة كما فعل الاغريقى بل اهتم بها من ناحيتها العملية . فما استفاد منها عملياً درسه وتعمق فيه . ومن العلوم التى اهتم بها الفلك والحساب والهندسة والطب . ونخص الطب بالذكر وخصوصاً بعد أن ظهرت الورقة البردية التى نسميها بردية ادوين سميث ؟ (هذه الورقة كتبت فى عصر يسبق الأسرة الثانية عشرة ولكن فى أسلوبها وتراكيبها الفقهية ما يثبت أنها ألفت فى الدولة القديمة) هذه الورقة تحدثت باسهاب عن التقسيم الأناتومى لكل أعضاء الجسم ثم ذكرت دواء كل مرض وحظرت على الطبيب أن يصف الدواء قبل أن يشخص الداء .

ولقد ذكر لنا هيرودت أن الطب فى مصر متقدم الى درجة جعلت لكل نوع من الأمراض طبيبا خاصا وقال إن هناك فى مصر أطباء مختصين بالعيون وآخرين بالاسنان ثم بالأمراض الباطنية . ولقد أثبتت الابحاث صدق هيرودوت وخصوصا الحفريات التى عملت فى منطقة الجيزة أن كشفت لنا مقابر لأطباء مختلفين . ولقد عثر الاستاذ يونكر فى منطقة الجيزة على جثة لامرأة ظهر فيها تقدم طب الاسنان ظهورا جلياً إذ أن احدى أسنان هذه السيدة ربطت وثبتت بواسطة سلك ذهبي بالسن المجاورة . ولقد دلتنا ألقاب هذه الطائفة على نظامها الدقيق وتقسيمها البديع المؤسس على آثار الطبيب ومجهوده

الشخصى فهناك الطبيب ثم رئيس الاطباء ثم طبيب الملك ورئيس أطباء البلاط بل هناك أيضاً طبيب أسنان الملك ثم رئيس أطباء الاسنان فى البلاط الملكى . وهكذا .

وإن نظرة بسيطة نلقيها على أبنية الدولة القديمة من أهرامات ومعابد ومصاطب ترينا تفوق المصرى فى علوم الهندسة والحساب والعلوم الرياضية بأجمعها

أما النظم الاجتماعية والكمالات الخلقية التى كان يرنو اليها المصرى فقد رأيناها واضحة فى النصائح التى ذكرتها لكم والتى خلفها لنا الوزير بتاح حوتب .

عصر الاضمحلال الاول

وهو العصر الذى يفصل بين الدولة القديمة التى انتهت حوالى ٢٢٧٠ والدولة الوسطى التى بدأت حوالى ٢٠٠٠ ق . م

لقد عاش ببى الثانى قرنا كاملا حكم البلاد منه ٩٤ سنة وبذلك طالت مدة حكمه وقضى على الاسرة السادسة وانحلت بموته . وخلفه ملوك على عرش مصر لا نعرف عنهم شيئا والسبب فى ذلك عدم عثورنا حتى الآن على آثار تحدثنا عنهم . ومن هذا تروننا مضطرين أن نعتمد فقط على القوائم التى وصلتنا من عصور متأخرة وذكرت لنا أسماء بعض الملوك من هذا العصر . نحن نعرف من هذه القوائم (الجداول) إن ملكا اسمه مرنرع الثانى خلف ببى الثانى على العرش . وان مدة حكمه كانت سنة واحدة . ويقول مانتون أن سيدة اسمها نيتوكريس تولت عرش مصر بعد ذلك . ويقول أيضا ان مصر حكمت بسبعين ملكا كل ملك منهم حكم يوما واحدا . وهؤلاء كانوا ملوك الاسرة السابعة . وإذا صح هذا كان فى ملوك الاسرة السابقة ليسوا إلا أكثر

رجال الدولة المصرية الذين أقاموا من أنفسهم مجلسا نشبهه بمجلس الوصاية على العرش وحكم كل منهم يوما واحدا حتى تستتب الأمور وينتخب الملك على مصر . وعلى ذلك نرى أن من الواضح أن الأسرة السابعة لم تكن أسرة وأن ملوك هذه الأسرة لم يكونوا ملوكا

ومانيتون عرف ملوك الأسرة الثامنة وعدد منهم ١٨ ملكا حكموا ١٤٦ سنة ولكن جدول بردية تورين (وهذه البردية تهشمت وخصوصا فى الجزء الذى يتحدث عن هذا العصر) يذكر بعد الملك مرنرع الثانى ثمانية ملوك وأعطى السبعة الملوك الآخرين (الذين انتهت بهم الأسرة) سبعة سنوات أى أن كلا منهم قد حكم سنة واحدة . وجدول سقارة ذكر بعد ملوك الأسرة السادسة ملوك الأسرة الحادية عشرة تاركا كل ما يتعلق بملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة بينما جدول أبيدوس ذكر بعد الملك مرنرع الثانى ١٧ اسما للملوك نرى تشابها بين أسمائهم وأسماء الأسرة السادسة، فمثلا خمسة منهم كانوا يسمون باسم بيبى الثانى نفركارع وأحد هؤلاء الملوك كان اسمه نفرأيركارع (وهو كما تعرفون اسم ثانى ملوك الأسرة الخامسة) ومن هذا نرى أن هذه الأسرة اعتلت عرش مصر لأنها كانت تمت بصلة القرابة الى الأسرة السادسة ولكن للاسف ما زلنا غير قادرين على التوفيق بين أسماء جدول أبيدوس وجدول بردية تورين .وبين الملوك الذين ذكرهم مانيتون

وليس السبب فى عدم معرفتنا عصر الأسرة الثامنة هو عدم عثورنا على آثار لهؤلاء الملوك فحسب بل أيضا لأن مقابر أشراف هذا العصر (ولدينا منها الكثير فى سقارة وفى دندره) لم تذكر اسما من هؤلاء الملوك ، بل عند الحديث عنهم يذكرون فقط اسم « صاحب الجلالة » ولقد أصبح حكام الأقاليم أصحاب السلطة فى أقاليمهم . وأكبر مثل على ذلك أن أحدهم ويدعى حنقو

قال فى نصوصه انه حكم فى أول الأمر مقاطعته بالاشتراك مع أخيه خمرع ثم حكمها بعد ذلك وحده . ولقد وصف هذا الرجل نفسه بشكل يجعلنا نشك فى مقدرته على الحكم . فقد غالى فى وصف محاسنه ومآثره . وكل من كان كذلك كانت هذه الخواص ناقصة فيه . لقد تحدث قائلا : موجها حديثه الى أفراد شعبه .

« لقد كنت رجلا تقياً أحبنى آباؤكم وأثنى على أمهاتكم ولقد سعيت الى دفن الكهول منكم كما آويت من فقد أباه وأمه . ولم أحاول مرة أن أستعبد ابنة لأحدكم وأعطيت الطعام للجائع واللباس للفقير المعدم (العريان) ولقد ملأت حقولكم بالماشية بل لقد أطعمت الذئاب فى الجبل والنسور التى تحلق فى السماء . ولقد اصلحت ما تهدم من أبنية مقاطعتى وملأتها بعد ذلك بالماشية والرجال الذين أخذتهم من مقاطعات أخرى (ولم يذكر لنا كيف تمكن من احضار الرجال والماشية والمقاطعات المجاورة هل بالحرب والاسر أم بطرق سلمية) وأصبح بذلك من أستعبد قبلا من أصحاب الاراضى الآن »

هذا الوصف يعطينا أولا فكرة عن سلطة صاحب الحكم فى المقاطعة وأنه أصبح الآن بعيدا كل البعد عن تلك السلطة الممثلة فى مليك البلاد الذى كان يقطن فى ذلك الوقت أيضا منفيس . ومن ناحية أخرى تعطينا فكرة عن الحالة الاجتماعية فى البلاد حيث الجوع والفقر والتهدم الظاهر فى أبنية القوم والا فلماذا افتخر حتقو بذلك ولماذا تحدث رجل آخر من هذا العصر عما يأتى (وهو من حكام مقاطعة أسيوط) قال بعد أن فاخر بأعماله وسعيه لاحلال الهدوء بين رجال مقاطعته : « وأصبح كل موظف يجلس فى مقر وظيفته وانتهى القتال والفتك الذى كان يقضى على الطفل الذى جلس بجانب أمه ويسلب الرجل من امرأته »

ولقد كان هذا العصر عصر ثورات داخلية . أتى على وصفه بكل صراحة رجل اسمه ايبوور ؟ وبعض فقرات مما قاله تعطينا فكرة عن حالة مصر فى ذلك العصر قال .

« لقد انقلبت الحالة فى مصر رأسا على عقب . حقيقة النيل لا يزال يجرى ويأتى بفيضان ولكن لا يتقدم أى مصرى على حرث أرضه بل يقول كل منهم نحن لا ندرى ماذا حدث بمصر . حقا لقد وقعت مصر فى الهاوية ولقد عم الحزن البلاد وانتشر العويل . الأغنياء يولولون والفقراء عمهم الفرح ورجال كل مدينة يقولون : فلننقض على رجال السلطة الآن . ولهم الحق فى ذلك إذ أن الذهب والفضة والاحجار الكريمة تكاثرت حول أعناق الخادمات (العبيد) بينما نساء البيوت (الطبقة الراقية) يهيمن على وجوههن ويقلن هل لنا من كسرة نأكلها . أنظروا لقد فسد النظام وأصبح الناس كالماشية بدون راع لها . أنظروا من كان فى الوقت السالف يرتدى أحسن الملابس أصبح يسير الان وعليه خرق . ومن كان لا يملك نولا واحدا أصبح الآن يرتدى افخر انواع الكتان . أنظروا من كان لايملك رغيفا يأكله أصبح الآن من أصحاب الشئون ولكن هذه يملؤها بغلال الآخرين . أنظروا من كان معدما أصبح الآن من أغنياء البلاد ، ومن كان غنيا أصبح فقيرا ،

الاسيويون قد انتشروا فى البلاد وحضر الاجانب إلى مصر أفواجا وأصبح كل مصرى له ضمير يسير والحزن يملؤه لما يحدث فى البلاد إذ أن الاجنبى أصبح هو الآن ابن البلاد . حقاً إن الناس قليلون على الارض ولكن فى مصر أصبح كل أخ يقتل أخاه . لقد أصبح الجميع ينادون : ليتنا كنا أمواتاً والاطفال يقولون ليت أمهاتنا لم تلدنا »

ولقد اهتم الأستاذ يونكر (وهو من أكبر العلماء الألمان المشتغلين بالآثار) بهذا العصر وتمكن أن يستدل من حالة الآثار التى عثر عليها . على الحالة التى وصفها لنا ايبو ور . فقد كانت كل المقابر التى بناها عظماء الأسرة السادسة وما قبلها فى حالة سيئة تدل على الفوضى التى صرت فى البلاد فى ذلك الوقت . وكانت التماثيل منزوعة من مواضعها فى المعابد ومهشمة إلى آلاف من القطع . وحجرت الدفن قد سرقت والتوابيت قد كسرت واستعملت بعد ذلك لبناء المقابر والمنازل وكذلك الأبواب الوهمية والمناظر الجميلة التى حفرت باتقان على جدران المصاطب هشمت بطريقة وحشية

هذه الحالة وهذه الثورة لم تؤثر فقط على النواحى الاجتماعية فى مصر بل أيضا أثرت على الحالة الدينية وأصبح المصرى يرى مثله العليا تصاب أمام عينيه بكل أذى ويلحق بها الدمار بطرق وحشية . أصبح الملك ألعوبة فى أيدى حكام الاقاليم . وأصبح أشبه بالسجن فى عاصمته . وضاع بذلك مركزه الدينى الذى تمتع به والذى وضعه طوال الدولة القديمة كاله ثم فى عصر الاسرة الخامسة والسادسة كابن الاله ولكنه كان فى كلتا الحالتين الوسيط الوحيد بين دنيا الأرض ودنيا الآلهة . لم ير المصرى هذا فقط بل رأى أيضا حياته الثانية التى كان يحيا على الارض من أجلها وكان يعمل ويكد ويجهد نفسه ويجمع المال ويعلق بنفسه لكى يسهل لنفسه السبل التى تحفظ له الحق وتمكنه من حياة خالدة هانئة كلها سعادة إن الامل فيها قد ضاع . رأى المقابر تسرق والتماثيل تهشم والمناظر والنقوش يهزأ بها ورأى أكثر من ذلك أن الجانى لا يعاقب وهنا تساءل المصرى أولا عن معنى الحياة. وثانيا عن أهمية اعتقاداته الدينية ولاول مرة فى تاريخ مصر صادفتنا مثل هذه الاسئلة . وكلنا يعرف تماما كيف كان المصرى يحرص على آلهته ويحرص على معتقداته . ولقد وصلت

الينـا ورقة بردية محفوظة الآن فى برلين كتبها رجل اسمه نيسو تساءل
الرجل هل هناك من فائدة للحياة وقد حل بعصر الدمار وأصبحت الحيا
هموما ومتاعب . وهو فى تساؤله هذا لم يفسر لنا حالته الشخصية بل ك
يتحدث عن المجموعة التي هو واحد منها ويحق له أن يكون مثلا عاما الم
وكيف لا يبحث عن الموت ويزهد فى الحياة وقد تركت البلد لمجرميها يحك
ويواصلون العبث ضد آلهتها وينتهكون حرمة معابدها ويطئون قو
بأرجلهم ويحاولون العار بتاريخها المجيد

أما النقطة الثانية التي عرض لها فهى .المعتقدات الدينية : هل من أو
أن يعتقد الانسان فى الحياه الثانيـة وفى الخلود هنا انفردت مارد ا
ولقد كان التحدث بين نيسو (وهو الرجـل المصرى الفاضـل الذى يو
يحتفظ بمعتقداته ويود أن يذهب بسرعة إلى دنيا الخلود حتى يتمتم ب
منه فى دنيا الارض) كطرف أول وبين قرينته (روحه) كطرف ثانى
القرينة فكانت تطلب منه ألا يفـكر فى دنيـا الخلود وألا يسعى وراء
بل يجب عليه أن يأخذ حياته كما هى ويبحث عن الفرح ويلهو به ويطر
الحزن والهم ويقنع بما سمح له القدر به من حظ وحياة

ويحق لنا أن نقول إن القرينة انتصرت وان المصرى كان قـد تنح
ذلك العصر عن العقيدة الراسخة بحياة الدنيـا الاخرى ويدلنا على ذلك
تذكارية من عهد الاسرة الحادية عشرة نقش عليها الاغنية الآتية :

« كن سعيدا واجعل قلبك ينسى أنك ستموت يوما وأكثر من سع
على الارض حتى يحل اليـوم الذى يندبونك فيه . فتأكد أن أوزوريس
الدنيا الثانية لن يستمع الى صراخهم ولا يمنع العويل الموت عن أى
ولذلك فاحتفل بيومك السعيد ولا تجعل للتعب اليك سبيلا فى هذا ا
ولا تنس أن من مات لن يعود إلى الحياة ثانية »

هـذا العصر كان عصر فوضى قسم المصريين فى معتقـداتهم الى قسمين :
الأولا يفضل المرح والسرور يسعى جهـد طاقته أن يقنع عا هو فيـه وفى نفس الوقت يحتقر الدنيا الثانية ولا يعتقد فيها . أما القسم الثانى فهو هؤلاء الرجال الذين عرفوا الحياة وشعروا بالأزمة ولكنهم لم يفقدوا الأمل وبقـوا على اعتقادهم فى الدنيا الثانية وأملوا أنفسهم بالسعادة فيها ولكن عرفوا أن هذه السعادة والتمتع لا ينالونها بما يضعون من أثاث فاخر ومآ كل متراكة وملابس حريرية فى المقبرة بل بما صنعوا فى الحياه . فمن عمل صالحاً عاش حياة كلها متعة ومن كان مجرما ضيعت عليه آثامه التمتع فى الحياة الثانية .

هذه الفـكرة ظهرت لنا بعـد ذلك واضحة فى الدولة المتوسطة . فأصبح الميت يقدم أمام المحـكمة التى تزن حسناته وسيئاته وعندئذ يلقى ملك الدنيا الثانية ورئيس المحـكمة الاله أوزوريس بحكمه على ذلك الميت

وأحسن مثل يضرب لذلك ما قاله مرى كارع من الاسرة العاشرة محذرا للناس : لا تطمئن إلى حياتك الطويلة على الارض فان قضاة محكمة العـدل ينظرون إلى سنى حياتك كما لو كانت ساعة واحـدة الانسان سيبقى بعـد موته أعماله ستبقى بجانبه . سنحيى حياه الخلود فى الدنيـا الثـانية وأحمق كل من لا يعتقد فى دنيا الخلود . ومن يقدم أمامه (امام أوزوريس) ويجده قد خلى من السيئات أبقاه وجعله يسير كالآلهة بحرية »

وعصر الاضمحلال الاول أوجد عقيده جديده نشأت وترعرعت ألا وهى عقيده أوزوريس اله الموتى وملك الدنيا الثانية .

عصر حكام اهناسيا

الاسرتان التاسعة والعاشره

فى عصر الاسره الثامنة وجد حكام اهناسيا (غرب مدينة بنى سويف الحالية) الفرصة سانحة لـكى يمـدوا نفوذهم على ما جاورهم من المقاطعات

آملين بذلك أن يسقطوا ملوك الاسرة الثامنة ويتقلدوا هم الحكم فى البلاد ويكونوا أسرة من أنفسهم وعلى ذلك نعتقد بأن هؤلاء الحكام (أو الملوك حسب تسمية مانيتون) حكموا النصف الجنوبى من مصر فى نفس الوقت الذى كان فيه بعض ملوك الاسره الثامنة يتقلدون مهام الحكم الوهمى فى منفيس.

ومؤسس هذه الاسره كان اسمه خيتى وتبعه ملكان آخران يحملان هذا الاسم ثم ملك ثالث اسمه برى كارع . ولا نعرف أسماء أخرى لملوك هاتين الاسرتين غير هؤلاء الملوك الاربعة.

ومن هذا العصر عثرنا على مقابر لحكام مقاطعة أسيوط وكانوا أيضاً يسمون أنفسهم Cheai ويظهر أن هذا الاسم كان منتشراً فى ذلك العصر ولقد تحدث هذا الحاكم عن علاقته مع ملكه الذى أحبه وقال أيضاً أنه نشأ فى بلاط اهناسيا وتعلم السباحة مع أولاد الملك بينما أمه قامت بأدارة شئون المقاطعة .

ولقد عثرنا على لوحة تذكارية لملك اسمه ختى (من ملوك هاتين الأسرتين) فى جنوب مصر أى انهم تمكنوا فعلا من حكم كل البلاد المصرية وتمكنوا بذلك من القضاء على ملوك الأسرة الثامنة ولكن هذا الحكم لم يبق لهم طويلا بل انفصلت عنهم المقاطعات التى بجوار طيبة وانضوت تحت لواء حكام طيبة وقد قام هؤلاء الحكام بحركة يناوئون بها حكم اسرة اهناسيا . وكونوا أسرة حكمت الجنوب بأجمعه بينما الشمال كان تحت حكم أمراء اهناسيا وبذلك يمكننا أن نقول ، كما كانت الأسرة الثامنة والتاسعة تشتركان فى الحكم إشتركت أيضا الأسرتان العاشرة والحادية عشرة فى الحكم

الدولة المتوسطة

الأسرة الحادية عشرة :

نشأت الأسرة الحادية عشرة فى طيبة وفى البلدة المجاورة لها المعروفة باسم ارمنت الواقعة على الجانب الغربى من النيل ولقد تبادل الحكم أفراد عائلة انتف ومنتوحتب

وعلى ذلك كانت مصر فى هذا العصر منقسمة الى ثلاثة أقسام . الدلتا وكان يحكمها أجانب حضروا الى مصر من أسيا وذكرهم Tpu-wer فى حديثه ووصفه لحالة مصر ثم مصر الوسطى حتى أسيوط وكان يحكمها أفراد أسرة خيتى وهم ملوك الأسرة العاشرة المعروفون بحكام اهناسيا ثم الجنوب حتى اسوان ويحكمه أفراد أسرة انتف .

ولقد اشتد النزاع بين حكام طيبه الذين منهم يتكون ملوك الاسرة الحادية عشرة وبين حكام اهناسيا الذين منهم يتكون ملوك الاسرة العاشرة .

وهناك صعوبة فى ترتيب ملوك الاسرة الحادية عشرة فمانيتون ذكر ١٦ ملكا حكموا ٤٣ سنة بينما بردية تورين ذكرت ٦ ملوك فقط حكموا ١٦٠ سنة ولكن الغريب أن ماوصل الينا من آثار هذه الاسرة دلتنا على أن ملوكها كانوا أكثر من ستة . ونحن نعرف من ملوك هذه الاسرة أربعة سموا بأسم انتف وستة آخرين سموا بأسم منتوحتب وكما قلت يظهر أن عائلة منتوحتب هذه كانت فرعا آخر لعائلة انتف.

ولقد خلدت لنا بعض الآثار الكفاح الذى قام بين حكام طيبه وحكام اهناسيا ونذكر مثلا ما كتبه وزير انتف الرابع واسمه زينى الذى قاد الجيوش ضد حكام أسيوط وعلى الأخص الحاكم تف إيب الذى كان يحارب فى صف

ملوك اهناسيا . ولقد بقيت هـذه الحرب سجالا بين الطرفين طوال حكم أربعة من حكام طيبه اسمهم انتف وبين اثنين آخرين اسمهما منتوحتب حتى تمكن منتوحتب الثانى من أن يسجل لنفسه النصر وتمكن من إخضاع الشمال . وأن ينتصر انتصاراً كاملا على ملوك اهناسيا وأمكن ملوك طيبه أن يرجعوا التوحيد الكامل الى مصر وأن يجعلوا منها أمة واحدة

وخلف منتوحوتب الثانى ابنه منتوحوتب الثالث ويظهر انه شعر بقوته الداخلية ولذلك اتجه بأطماعه نحو الجنوب وغزا بلاد النوبة ونجح فى غزوته هذه والدليل الساطع على استتباب الامن فى مصر ان هذا الملك تمكن من بناء مقبرة ضخمة فى المكان الذى نطلق عليه الدير البحرى هـذه المقبرة بنيت بشكل آخر يختلف كل الاختلاف عما بنى فى عصور مصر السابقة

ثم تبعه منتوحوتب الرابع الذى حرص على الاحتفاظ بعلاقات مصر التجارية بالمناطق التى فتحها أبوه فى الجنوب . وهناك نص يحدثنا بأنه جلب ثلاثة آلاف مصرى جمعهم من بلاد الدلتا وأرسلهم فى بعثة كبيرة الى وادى الحمامات لقطع الحجر . ولقد نجحت هذه البعثة الهائلة كل النجاح وخصوصاً النظام الدقيق الذى اتبع إذ أن كل رجل كان يأخذ يومياً إبريقين من الماء وعشرين قطعة من الخبز ولكى يتغلبوا على وعورة الطريق اضطروا أن يحفروا ١٥ مترا على طول الطريق . ولما وصل هنسو الى شواطىء البحر الاحمر بنى هناك مركبا كبيرا سافر بها ومعه بعض رجال البعثة الى بونت

وكذلك منتوحوتب الخامس وكذلك منتوحوتب السادس أرسلا البعثات الكبيره الى وادى الحمامات لقطع الاحجار

الدولة الوسطى

سنة ٢٠٠٠ إلى ١٧٨٨

لقد قدر لمصر مرة ثانية ان تستعيد مجدها وأن ترى عصرا ذهبيا فى عصر الأسرة الثانية عشرة . ولكن يجب ألا ننسى عند المقارنة بين العصر الذهبي الأول (فى الدولة القديمة) وعصر الدولة الوسطى الذهبي ذكر الاختلاف الكبير بين ملوك تلك الدولة وهذه الدولة . لقد تمكن ملوك الدولة الوسطى أن يستعيدوا مركزهم وأن يحكموا مصر متحدة وان يسيطروا على كل كبيرة وصغيرة فيها ولكن مع هذا لم يكن لهم ما كان لملوك الدولة القديمة لقد عرفنا ملوك الدولة القديمة آلهة لهم سلطانهم فى دنيا الآلهة كما كان لهم سلطانهم على الارض ولكن عصر الاضمحلال الأول سلب الملوك كل ما كان لهم وأصبحوا أشباحا يتلاعب بهم حكام الاقاليم فان أرادوا ناصروهم وان أرادوا ثاروا عليهم و بقى الحال هكذا حتى عصر الأسرة الحادية عشرة وتمكن حكام مقاطعة طيبة أن يهزموا حكام اهناسيا وكتب النصر لهم واستطاعوا أن يرجعوا إلى مصر اتحادها وبطشوا بحكام الأقاليم الذين ناوؤوهم ولكن هذا كله لم يحدث إلا بعد أن استعانوا بمساعدة بعض الحكام الذين أملوا فى توسيع نفوذهم وسلطتهم اذا ما تم النصر ثم إن ملوك الأسرة الثانية عشرة ساروا على منوال ملوك الأسرة الحادية عشرة بأن وطدوا سلطة الملك بالايقاع بين الحكام والاستعانة ببعضهم ضد البعض الآخر وهكذا كان او أصبح لملوك هذه الأسرة أن يتغنوا بنصرهم واعادة الاتحاد بين أقاليم مصر ولكن فى نفس الوقت تركوا بعض السلطة للحكام الذين ساعدوهم على نيل هذا النصر . وعلى

ذلك فالسلطة المطلقة التى تمتع بها ملوك الدولة القديمة لم تكن لملوك الدولة الوسطى .

ولكن هذا لا يمنع البتة أن يكون العصر الذهبي المتوسط قد بلغ فى أهميته وتقدمه ما بلغه عصر الدولة القديمة الذهبي . فالحرب الطويلة التى قاستها مصر والاضطراب الذى شملها طوال هذا العصر والمحنة التى شعر بها كل مصرى ساعدت فى نضوج العقل المصرى على وجه الاطلاق .

ثم بينما كانت العاصمة والملك هما موضع السلطة ومنهما فقط تستمد مصر بأجمعها قوتها ونشاطها ويقدمها فى سبيل المدنية أصبح الآن بجانب العاصمة مراكز أخرى تهتم بمظاهر الحضارة وتعمل على ترقيتها وتنميتها تلك المراكز ليست هى إلا قصور حكام الاقاليم .

ملوك الدولة الوسطى

١) أمنمحعت الأول (حوالى ٢٠٠٠ الى ١٩٧١)
٢) سنوسرت الأول (حوالى ١٩٧١ الى ١٩٣٦)
٣) أمنمحعت الثانى (« ١٩٣٦ الى ١٩٠٣)
٤) سنوسرت الثانى (« ١٩٠٣ الى ١٨٨٨)
٥) سنوسرت الثالث (« ١٨٨٨ الى ١٨٥٠)
٦) أمنمحعت الثالث (« ١٨٥٠ الى ١٨٠١)
٧) أمنمحعت الرابع (« ١٨٠١ الى ١٧٩٢)
٨) الملكة سبكنفرو رع (« ١٧٩٢ الى ١٧٨٨)

أمنمحعت الأول: ملوك هذه الأسرة لا ينتمون إلى ملوك الأسرة الحادية عشرة ولم يمتوا اليهم بصلة القرابة ويظهر ذلك جليا من الاختلاف فى

الأسماء . ولكننا نعرف أن أمنمحعت كان يتقلد أكبر المناصب فى أيام منتوحوتب الثالث وبقى متقلدا هـذه المناصب حتى آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة (منتوحتب السادس) وتحدثنا بعض النصوص أنه نشأ فى مدينـة الكاب وان أمه كانت زنجية ولعل ذلك السبب فى اختلاف تماثيله إذ أن ملامحه تدل على ذلك الأصـل إذن فامنمحعت الاول اغتصب الملك ولعـله استعان على ذلك ببعض الحكام وخصوصا لان حاكم مقاطعة بنى حسن واسمه خنوم حوتب ذكر لنـا أنه حارب فى صف هـذا الملك وكانت هـذه الحرب بحرية واشترك فيها ٢٠ سفينة كبيرة ولكنه لم يذكر العدو ولأنها وقعت فى مصر وعلى النيل نظن أن العـدو لم يكن إلا بعض الحكام المنـاوئين لامنمحعت . ويساعدنا على هـذا الظن ما كتبه حفيـد خنوم حوتب فى مقـبرته وقد حدثنا قائلا : —

« لقد استعان أمنمحعت الأول بمساعدة جدية. وتمكن الملك من هزيمة الاعداء وأعاد بناء ما هدم وأرجع حدود كل مقاطعة إلى ما كانت عليه حتى يعرف كل حاكم حدوده واقد صنع ذلك لأنه كان يعرف هذه الحدود واستعان على ذلك بالمخطوطات والكتب القديمة . ولقد صنع هذا لانه (الملك) يحب العدل كل الحب » .

إذن صادف أمنمحت الاول عقبات كثيرة فى أول حكمه ومن البديهى أن أول هـذه المشـاكل كانت رغبـة أمراء الاقاليم الاستمرار فى استقلالهم والانفراد بالحكم فى إقطاعاتهم وكما قلت لم يكن من الميسور أخذ هؤلاء الامراء بالشدة لانهم ما زالوا أقوياء تدلك على ذلك المقابر الهائلة المنحوتة فى الصخور كل بالقرب من عاصمته ولدينا مقابر بنى حسن (مركز أبو قرقاص)

لامراء المنيا ثم مقابر البرشة « مركز ملوى » لامراء الاشمونيين ثم مقابر مير « مركز منفلوط » لامراء أسيوط

عمل أمنمحعت الاول على التفرقة بين هؤلاء الامراء ومن والاه واعترف بحكمه سمح له بقسط كبير من الاستقلال الداخلى وأبقى عليه ما كان لاسلافه من التزامات وواجبات كرفع الضرائب وإمداد الملك بالجيوش عند الحاجة .

ثم عرف أمنمحعت الاول بعد بلدة طيبة من منتصف القطر وبالتالى بعدها عن الشمال فتركها وبنى عاصمة جديدة فى نقطة تتوسط مصر على بعد ٣٠ ك.م إلى جنوب منف وسماها Azwi ـ iat (أى القابضة على الوجهين) ومكانها الحالى بالقرب من اللشت الحالية بمركز العياط وأصبح الآن يستطيع من هذه العاصمة أن يشرف على الدلتا وعلى مصر العليا

وبعد أن استتبت الأمور فى مصر اتجه بفتوحاته الى بلاد النوبة واخضعها وتوغل فيها حتى كورسكو واستغل مناجم سينا ووادى الحمامات

ولكن يضمن العرش لابنه من بعده وقد رأى المصاعب الجمة التى لاقاها فى حكم البلاد سن سنة جديدة الا وهى إشراك الابن الأكبر فى الحكم مدة حياته وتدريبه عليه وبذلك أشركه فى السنة العشرين من حكمه وهذه السنة الجديدة سار عليها كل ملوك الأسرة ١٢ تقريبا

ومن الغريب أن هذا الملك الفذ القدير قوبل فى أواخر حياته بنكران الجميل من حاشيته فدبر بعضهم مؤامرة لاغتياله ولكنه نجا منها وأثرت فى نفسه هذه الحادثة وأوصى ابنه أن يقسو فى معاملة مرؤسيه لأن الناس « يحترمون كل من يخيفهم ويفزعهم » ثم قال له أيضا

لا تثق بأخ ولا تعط قلبك لصديق

أعطيت المحتاج وحميت اليتيم ولم أفرق بين الفقر وصاحب الجاه ولكن من أحسنت اليهم ثاروا فى وجهى وقلما يجد الانسان حليفاً له عند ما تشتد المصائب .

لم يعش أمنمحعت الأول طويلا بعد نجاته هذه وعند ما مات كان ولى عهده سنوسرت الأول وأمير من أقاربه (اسمه سنوحى) يحاربان الليبيين فلما بلغهما نعى الملك عاد أولهما الى العاصمة ولكن سنوحى فر لسبب غامض الى فلسطين . وعاش هناك مدة طويلة عاد بعدها الى مصر باذن من سنوسرت وروى ما حدث له منذ وفاة أمنمحعت وتعتبر قصته من القصص المصرية الشهيرة

سنوسرت الأول : لقد تقلد أمور الحكم بعد موت أبيه وكان قد تدرب عليها سنين عدة فى حياة والده

وذهب فى أول حكمه بجيوش إلى حدود الشلال الثانى وتغلب على بلاد الكوش ولأول مرة يقوم ملك بحملة حربية يرافقها وتكون تحت امرته بينما ملوك مصر من قبله كانوا يعهدون بمثل هذه الحملات لامراء الجنود والقواد

وبعد أن تغلب على البلاد الواقعة بين الشلال الأول والثالث عين حاكما هناك وكان مقره قلعة قة وهذا الحاكم كان من أمراء أسيوط واسمه حاب جاف الذى ترك لنا نصوصا تاريخية هامة فى مقبرته بأسيوط (المعروفة الآن باسطبل عنتر) فى هذه النصوص وضع نظاما ثابتاً لكهنته هذا النظام يؤكد فيه قيام هؤلاء الكهنة بالطقوس الدينية فى أعياد ذكرها لهم وحددها على أن يهب للآلهة ومعابدها أرضا يؤخذ ريعها ويصرف على خدمه الدين ولقد بينت لنا هذه النصوص الطبقات الموجودة فى الأقاليم وكانت أربعة طبقات الامراء وكبار القوم وصغار القوم والعامة

ولسنوسرت الأول معبد كبير بناه في بلدة هيليوبوليس في غرب المطرية وهو مثل للمعابد المصرية كان له مسلتان تتقدمان البوابة الكبرى التي يرفرف عليها العلم الملكي الأبيض وهو العلم المصري وهذا المعبد اختفى تحت أطلال مدينة هيليوبوليس القديمة ولم يبق منه إلا المسلتان (وقد شيد الملك هذا المعبد للاله رع اله الشمس في هيليوبوليس) إحداهما لا تزال موجودة إلى الآن في عين شمس أما الأخرى فقد سقطت بعد زلزال أرضي حدث سنة ١٢٥٠ ق م

ولسنوسرت الأول عشرة تماثيل جميلة من الحجر الجيرى وجدت حول مقبرته في اللشت وهي تمثل الملك جالساً واتجهت أنظار المصريين في عصر هذا الملك إلى الواحات فاستغلوها وعينوا حاكما عليها لكي يدافع عن حدود مصر الغربية .

ولقد شملت هذه العناية بالواحات أيضا مدينة الفيوم التي تعد جزءا من الواحات الغربية وقد أصبحت منذ مبدأ هذه الأسرة عاصمة لهم .

وذكر هيرودوت وتيودور الصقلي المباني الهائلة التي رآها هنا وعلى الأخص قصر اللابرنت وما فيه من تماثيل هائلة الحجم للملوك وقالوا إن ملوك الأسرة ١٢ حولوا جزءا كبير من أرض الفيوم إلى بحيرة يصرفون اليها المياه الزائدة من الفيضان ويأخذون طبعا منها عند الحاجة في أيام التحاريق والواقع أن بحيرة قارون أو (موريس) هي نتيجة انخفاض طبعي في الأرض أما بحر يوسف فانه ينتهي إلى الفيوم ويدفع الماء الزائد منه إلى هذا المستوى المنخفض وعلى ذلك أراد المصريون أن ينتفعوا من مياه الفيضان الزائدة بأن عمقوا هذا المنخفض الطبعي وجعلوا منه بحيرة هائلة يصرفون اليها المياه ويخزنونها فيها من ناحية أخرى .

أمنمحعت الثانى وسنسرت الثانى :

لكل منهما هرم الاول بدهشور والثانى باللاهون . ولقـد تمتعت مصر طول حكم هذين الملكين الذى دام خمسين عاما بالرخاء والرفاهية فاستغلت مناجم سينا واستؤنفت العلائق التجارية مع بلاد بونت حتى ألف أهلها رؤية المصريين وأخذ هؤلاء يذكرون تلك البلاد فى قصصهم ومن أظرفها قصة الملاح الغريق وهى تصف ما لاقاه ملاح مصرى من مشاق وصعاب فى سبيل وصوله إلى بلاد بونت

على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبة أرضها كل ذلك جلب اليها المهاجرين الآسيويين فتجددت هجرتهم إلى مصر فى عهد سنوسرت الثـانى كما يتضح ذلك من نص ورد على جدران بنى حسن يعثـل وفدا جاء فى السنة السادسة من حـكم الملك سنوسرت الثـانى وتألف من ٣٧ شخصا من البـدو الساميين بين رجال ونساء وأطفال ارتدوا ملابس صوفية مزركشة وترك الرجال لحاهم وأسدل النساء شعورهن ومعهم حميرهم التى حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بنى حسن يتقدمهم رئيسهم يطلب من الحاكم الاذن لهم بالاقامة فى مصر على أن يتخذوا التجارة مهنة لهم .

سنوسرت الثالث

وضم السودان الى مصر

يظهر أن سنوسرت الثالث هو الملك الوحيد من سلوك الاسرة ١٢ الذى لم تسنح له الفرصة أن يتدرب على شئون الحـكم فى عصر أبيه ومع هذا تمـكن هذا الملك أن يحكم مصر حكما عادلا وأظهر من الحنـكة والقدرة على الحكم

ما لم يقهره أي ملك من ملوك هذه الأسرة . وعند تولية الحكم بدأ يعد العدة لضم بلاد السودان نهائياً الى مصر فيقضي على الثورات المناوئة للحكم المصري ويعمل على أن يخضعها تماما. وكان أول ما وجه اليه اهتمامه هو حفر ترعة توصل الى ما بعد الشلال الاول حتى يتحاشا بذلك هذا الشلال الذي كان باستمرار عائقا لنقل الجيوش اللازمة لفتح هذه المنطقة وأول من تغلب على هذا العائق كان القائد أونى « عصر الاسرة السادسة » الذي حفر ترعة تخترق صخور النيل عند الشلال الأول ولكن مع مرور الزمن تهدمت هذه الترعة وبقيت هكذا حتى أتى سنوسرت الثالث فقام بالمشروع مرة ثانية وحفر الترعة وكان طولها ٨٠ مترا وعرضها ١٠ أمتار وعمقها ٨ أمتار .

حملاته — غزو النوبة : ونعرف أن سنوسرت الثالث قام بعدة هجمات على بلاد النوبة فى السنة الثامنة والسنة السادسة عشرة والسنة التاسعة عشرة من حكمه وجعل من مدينة سمنة وقمة مراكز حربية ووضع لوحات حجرية كبيرة عند أقصى الحدود الجنوبية . ولكي يمنع تسرب الزنوج إلى مصر وضع عند الحد الفاصل بين مصر وبين النوبة لوحة حجرية كتب عليها :

الحدود الجنوبية . أقامها الملك سنوسرت الثالث فى السنة الثامنة من حكمه حتى لا يستطيع أى زنجى أن يتعداها سواء كان مسافرا على الأرض أو على النهر سواء بمفرده أو مع قطعانه . ولكن إذا أراد زنجى أن يتعداها فذلك فقط إذا كان ينوى التجارة فى أرض مصر أو كان يحمل رسالة إلى مصر وعندئذ يجب أن يعامل بالحسنى . وعلى كل حال لا يسمح مطلقاً لأي سفينة أن تتعدى حدود سمنة فى طريقها الى الشمال .

ومن الطبيعى أن مثل هذه التعليمات لا يمكن حفظها إلا إذا كانت هنـاك حامية قوية تعمل على تنفيـذها وقد سبق أن قلت أن سنوسرت الثالث بنى قلعة قوية فى كل من سمنة وقمة ووضع فى كل منهمـا حاميـة قوية . ولا تزال أطلال هاتين القلعتين باقية حتى الآن وهى تظهر لنا حكمة سنوسرت فى اختيار الموقع وأهميته فى الدفاع عن الحدود المصرية .

إغارة كوش والبدو على حدود مصر الشرقية : وقبل السنة السادسة عشرة من حكم الملك سنوسرت الثالث يظهر أن أهالى كوش قاموا بحركة واسعة أغاروا فيها على حدود مصر الشرقيـة مشتركين مع البـدو فى هذه الاغارة فهزمهم الملك وخرب منازلهم وأهلك الحرث والنسل وأقام لوحـة ثانية كتب عليها تعليماته عند الحـدود عنـد قلعة سمنه وحـذر كل الملوك الذين يخلفونه من التهاون مع هذه الشعوب وكتب قائلا وليلحق العار كل ملك لا يستطيع أن يدافع عن هذه الحدود التى أقمتها . وبجانب هـذه اللوحة أقام تمثالا هائلا لنفسه حتى يبعث الذعر والاحترام فى قلوب هذه الشعوب الثائرة .

ويظهر أن سنوسرت الثالث كان يقود كل حملاته التى قام بها فى بلاد السودان ويعد هذا الملك فى نظر ملوك الاسرة ١٨ الفاتح الحقيقى والمستعمر الوحيد لبلاد النوبة حتى انهم جعلوا منه إلاهاً محلياً لبلاد النـوبة وعبدوه هناك (ص ١٨٢ من بترى)

وبذلك أصبحت مصر تعتبر حـدودها الجنوبية بعد الشلال الثانى أى أنها امتدت ٣٠٠ كيلو متر نحو الجنوب

غزو سوريا : ولم تعق هذه الحروب فى بلاد النوبة سنوسرت عن الاهتمام بسوريا . فقد حدثنا قائد عاش فى عصر هذا الملك واسمه Ehu Sobek على

لوحة حجرية وجدناها فى أبيدوس أنه تبع الملك فى حملته ضد بلاد Sekmen فى سوريا وهزمهم الملك وأسر منهم العدو الكثير بل يحدثنا Ehu Sobek أنه رجم وقد أسر أحد هؤلاء القوم ولقد كافأه الملك على شجاعته وهمته قائلا : — لقد أعطانى عصا من الذهب فى يدى وقوسا وخنجرا محلاة بالذهب وغير هذا أعطانى جلالته كل ما كان يملكه هذا الاسير الذى أسرته .

ظهور روح الشعب الحربية : ومما يؤسفنا أننا لا نستطيع البتة أن نعين تماما موقع Sekmen ولكن عصر سنوسرت الثالث هو أول العصور التى تظهر لنا الشعب المصرى وقد أعجبته الحروب ودبت فى جسمه الشجاعة والحنكة وأصبح يفاخر بما يقوم به فى المعارك كما ستكون الحال فى عصر الاسرة ١٨

وكما انتصر سنوسرت الثالث فى حروبه وفق أيضا فى نضاله مع أمراء الاقاليم الذين قويت شوكتهم مرة أخرى فاستطاع أن يتغلب عليهم ويقضى على ما كان لهم من نفوذ ويتضح ذلك من توقفهم فجأة فى عهده عن نحت مقابرهم الصخرية الهائلة فى اقطاعاتهم كما كان يفعل أسلافهم من قبل

أمنمحعت الثالث . لقد حكم سنوسرت الثالث ٣٨ سنة قضاها جميعاً محاربا أو مصلحاً وعند ما شعر بضعفه أشرك ابنه أمنمحعت فى الحكم الذى أصبح بعده اسمه أبيه أمنمحعت الثالث . فورث مملكة واسعة الارجاء موطدة الدعائم وكان بذلك عصره عصر سلام ورخاء وقد ساعده طول حكمه واستتباب السلم فيه وخصوصا بعد عهد أبيه المليء بالحروب على التوسع فى المشروعات النافعة للبلاد .

وإذا كان سنوسرت الاول بدأ باستغلال مناجم شبه جزيرة سيناء فانه فى عهد أمنمحعت الثالث استغلت هذه المنطقة استغلالا كاملا وفى عهده

تحوات هذه المنطقة الى منجم يجد الرجال فيه منازل تؤويهم وآبار يشربون منها وحاميات تصد عنهم هجمات البدو المشاغبين . وحدثنا أمنمحمت الثالث عن بئر حفرها في صخور الجبل في سرابوت الخادم في السنة الرابعة والاربعين من حكمه وعن معبد للالهة حاتحور بناه هناك .

ولقد كانت كل البعثات ترحل إلى مناجم سينا عن طريق النهر وهنا يظهر أن النيل كان مرتبطا بالبحر الاحمر عند السويس بقناة هى بلا نزاع أقدم قناة كانت تصل أيضا البحر الابيض بالبحر الاحمر وهذه القناة حفرت فى عصر الملك سنوسرت الثالث

اهتمامه بالرى : وعصر هذا الملك (أمنمحمت الثالث) كما قلت هو عصر سلام ورخاء اهتم الملك بموارد مصر الطبيعية وحاول جهده أن ينميها ويوسعها وكان من الطبيعى أن يوجه كل عنايته الى شؤن الرى . ولأول مرة نرى فى قلعة سمنة عند الشلال الثانى موظفاً خاصا لا هم له إلا تسجيل ارتفاعات النيل فى فيضانه وانخفاضاته فى أيام التحاريق يسجلها هـذا الموظف على أحجار الجبل المـكونة للشاطىء هناك وهذا المقياس لا يزال باقياً حتى الآن ومنه نعرف أن النيل فى عصر الدولة الوسطى كان يعلو فى أيام فيضانه بما يتراوح بين سبعة وتسعة أمتار عن مستوى ارتفاعه الآن وقد كانت نتيجة هذه المقاييس لارتفاع النيل وانخفاضه تبلغ الى الموظفين المختصين فى مكتب الوزير وعلى أساس هذه المقاييس كانت تقدر وتجبى الضرائب

ولقد اشتهر اسم امنمحمت الثالث بعمله العظيم الذى قام به فى الفيوم ، هذه المنطقة الواسعة التى تبعد عن النقطة التى يتفرع منها النيل بحوالى ١٠٠

كيلو مترا الى الجنوب والتى تعتبر واحة كبيرة بالقرب من مجرى النيل عرضها ٦٠ كيلو متر وكذلك طولها . وهذه الواحة الكبيرة منخفضة عن سطح البحر ويدل على ذلك الجزء الباقى من بحيرة موريس القديمة وهى مانسميها الآن بركة قارون فأن مستواها منخفض عن مستوى البحر بحوالى ٤٠ مترا . هذه المنطقة المنخفضة كانت تتحول الى بركة هائلة فى أيام الفيضان. وبقى الحال هكذا حتى عصر الدولة الوسطى وإذ بدأ ملوك هذه الأسرة (الأسرة ١٢) يفكرون فى التحكم فى كميات المياه الداخلة وحجزها فى هذا المنخفض لاستغلالها فى وقت انخفاض النيل . فبنوا عند المنطقة التى تتدفق منها المياه الى هذا المنخفض سدا ضخما عاليا وبذلك منعوا المياه عن جزء كبير من هذا المنخفض استغلوه للزراعة

وقد زاد امنحمحت الثالث فى بناء السور الضخم وأصبح فى عصره طوله ٤٠ كم وحجز بذلك المياه عن منطقة تبلغ فى اتساعها (١١ ألف مترمربع) أو مايقرب من ٢٠ ألف فدان تعد من أصلح أراضى القطر المصرى للزراعة

أما المياه التى حجزت فى بحيرة موريس فى أيام الفيضان فقد دلت الابحاث الحديثة على أنها كانت كافية لتغذية النيل فى اكثر أيام انخفاضه أى فى مدة المائة يوم (من أول ابريل) وجعل مياهه عادية

وكان من الطبيعى أن المنطقة التى حسر عنهـا الماء تصبح من ممتلـكات التاج وكيف لا تصبح من ممتلـكاته وهى من أخصب بقاع مصر وليس هـذا فقط بل يظهر أن هذه المنطقة أصبحت أحب بقعة الى ملوك النصف الثانى من الأسرة الثانية عشرة وبسرعة البرق ظهرت مدينة كبيرة عرفت فى العصر اليونانى بمدينة كروكوديلوبوليس أو ارسينوى حيث كان الآله سوبك (التمساح) يعبد وله معبد كبير فيها . ولقد عثر على مسلتين فى ابجيج على حافة المنطقة التى انحسرت عنها المياه للملك سنوسرت الأول

وفى الجهة الشمالية من هـذا السد بنى امنحمت الثالث قصرا عظيما تبلغ مساحته ٢٥٠ فى ٣٠٠ متر جعله مسكنا ومعبدا ومقرا لحكومته . وكان بهذ القصر اثنتا عشرة ردهـة وثلاثة آلاف حجرة وفى هـذا القصر الهائل كانت حجرات مخصصة لـكل آلهة مصر المحلية وحجرات لاجتماع حكام الأقاليم الذين كانوا يأتون كل سنة الى هذا القصر ومعهم الموظفون التابعون لهم ولـكل منهم حجرته المخصصة له حيث يقوم كل منهم بعمل الحساب للأموال المطلوبة منه لخزانة الملك . ولقد رآه « سترابو » الذى حضر الى مصر عام ٢٤ قبل الميلاد ورأى فيه أعجوبة من أعاجيب مصر ولقد استحق اسمه الذى شاع عنه ألا وهو « اللابيرينت » أى « قصر التيه » وذلك لأن الزائرين كانوا إذا ما دخلوه صعب عليهم الخروج منه وتاهو فى ردهاته وحجراته المتعددة . ولقد شبه هذا القصر بقصر اللابرنت الـكريتى الشهير فى الروايات اليونانية الخرافية ولقد زال هذا القصر الفخم الذى وصفه سترابو بقوله : « من العجيب أن لكل حجرة سقف مكون من قطعة حجرية واحدة وكذلك الممرات سقفت بقطع حجرية هائلة الحجم وحيث لم يستعمل أى شىء آخر للبناء مثل الخشب أو أى معدن آخر »

ولقد تمتعت مصر بعصر هذا الملك بما يقرب من نصف قرن وكان عصره ذهبيا عرف الناس أن يقدروه وأن يعتزوا به وقد قالوا فى هذا الملك :

لقد سبب فى خصوبة مصر أكثر من النيل

وملأ الوجهين القبلى والبحرى بالقوة

وهو الحياة التى يستنشقها كل أنف

وكنوزه الهائلة يطعم بها كل من تبعه

وهو يعطى الحياة لكل من نحا نحوه

خلف امنمحعت ابنه امنمحعت الرابع ولقد ورث أمة غنية وكنوزا لا آخر لها وشعبا يحب السلام وعاش فى رخاء نصف قرن فلم يقابل الملك من الصعوبات مايشحذ من عزيمته فتهاون وترك الأمور تجرى كما يسمح لها القدر أن تجرى فانتهز أمراء الأقاليم الفرصة وبدؤا يعيدون الى أنفسهم ماسلب من السلطة . ولما مات هذا الملك دون أن يترك ولى عهد ورثته ابنته سبك نفرو رع فضعفت الملكية ضعفا أدى الى انتهاء الأسرة ١٢ وعصرها الذهبي الزاهر الذى دام مايقرب من قرنين.

علاقة مصر بالامم المجاورة
فى عصر الدولة الوسطى

لقد تحدثنا عن عصر الدولة المتوسطة بأنه كان عصراً ذهبيا ولقد تحدثنا أيضاً عن أوجه الشبه بين هذا العصر وعصر الدولة القديمة وكما كان الحال فى الدولة القديمة لم تكن علاقة مصر بما جاورها فى عصر الدولة الوسطى علاقة غزو وفتح بل كانت علاقة أمة تود السلام وفى نفس الوقت مستعدة للدفاع عن حدودها ولم تتعد تلك الحدود إلا لمطاردة العدو والانتقام منه ولكن نستثنى

من ذلك تلك العلاقة نحو الجارة فى الجنوب فقد رأينا حرص ملوك الاسرة الثانية عشرة على أن يمدوا سلطتهم على كل البلاد الواقعة شمالى الشلال الثانى ولكن العوامل التى دفعت المصرى الى مد سلطته على كل المناطق التى تقع بين وادى حلفا والشلال الثانى كانت تنحصر فى المحافظة على حدوده لاحب الاستعمار والتوسع .

ولقد دلت الأبحاث الكثيرة التى قام بها علماء الآثار عن تاريخ الشعوب التى سكنت تلك المناطق التى استولى عليها المصريون فى عصر الأسرة الثانية عشرة على أمور شتى يحسن بنا أن نجملها لكم فيما يأتى :

فى العصر الذى اصطلحنا على تسميته عصر الاضمحلال الاول وهو الذى أتى بين عصر الدولة القديمة والوسطى حدثت انقلابات عدة سببت مهاجرة القبائل التى سكنت بلاد النوبة الجنوبية هذه الانقلابات والاضطرابات سببها بعض القبائل القوية الفتية التى تحركت من مواطنها طلبا للمقامرة والغزو . هذه القبائل فى غاراتها وغزواتها دفعت أمامها قبائل أخرى واضطرتها إلى التوغل شمالا فى مناطق عدة ووصلت حتى الشلال الاول ودخلت أرض مصر ونستدل على ذلك مما تركوه من آثار نتتبعها حتى مدينة الكاب . وهذه الابحاث الاثرية والانتروبولوجية دلتنا على أن المنطقة من الكاب حتى الشلال الثانى سكنتها قبائل عدة كلها تمت الى جنسيه واحدة وهذه الجنسية لم تكن من النجروتيين ، بل كانت حامية . سكنوا أكواخا مستديرة مقامة سقوفها على جذوع من الاشجار ثم كانوا يدفنون موتاهم فى قبور مستديرة يحيط بكل مقبرة سور قصير أما حضارتهم فكانت تشبه حضارة مصر فى فجر التاريخ وخصوصا فى نوع الاوانى الفخارية التى استعملوها وهنا (كما ذكرت فى

محاضراتى عن عصر فجر التاريخ) يظهر أن قبيلة من قبائل ذلك العصر هاجرت من أوطانها وتوغلت نحو الجنوب وأسست هناك حضارة مصرية انتشرت فى تجاه الجنوب ولم تتقدم بينما فى مصر كان التقدم المستمر من نصيبها على نحو ما درسنا . ولكن هل كانت هذه القبائل (التى انتشرت فى نوبيا الشمالية وهى تلك المنطقة الجافة التى لا تسمح لكثير من الناس أن يسكنوها) تكون من نفسها خطرا يهدد سلامة مصر ؟ لم يكن الخطر على حدود مصر آتيا من تلك المنطقة بل من منطقة « الدنجلة » حيث ظهرت فى أوائل عصر الدولة المتوسطة أمة قوية عاصمتها كانت تقع جنوبى الشلال الثالث عند الكرمة وهى الامة التى نعرفها باسم الكوشيين ولقد ظهرت لأول مرة فى التاريخ فى هذا العصر.

ونحن لاندرى شيئا عن منازل هؤلاء القوم وكيف كانت ولكن الحفائر التى قام بها بعض العلماء فى عام ١٩١٣ الى عام ١٩١٥ فى مدينة الكرمة أظهرت لنا جبانة الملوك وعرفنا منها أن الملوك كانوا يدفنون أنفسهم فى مقابر ضخمة مستديرة محور كل منها يبلغ ٩٠ مترا . وعرفنا أيضا أنهم كانوا يضحون بكثير من الخدم والخادمات فى يوم الدفن ويدفنونهم مع سيدهم .

وعلى ذلك وجد ملوك مصر الخطر كله فى هذه المنطقة الجنوبية (الدنجلة) وليس فى المناطق الاخرى الشمالية فى بلاد النوبة . وهذا هو السبب الذى دفع ملوك الأسرة الثانية عشرة الى بناء القلاع والحصون فى سمنه وقمة لمنع توغل هؤلاء القوم وهذا هو السبب أيضا الذى حدا سنوسرت الثالث إلى أن يقيم تمثالا ضخما عند الحدود الجنوبية الجديدة لمصر عند سمنه وحرم على أهل هذه المنطقة أن يمروا نحو الشمال بقلاع سمنه اللهم إلا إذا كان ذلك للتجارة أو كان الشخص مبعوثا فى مهمة رسمية الى أرض مصر .

لقد استنفدت الحروب التى قام بها ملوك الاسرة الثانية عشرة فى السودان كل وقتهم وشغلتهم كثيرا عن الامم الاخرى المجاورة لمصر . ومما لاشك فيه أن الاصطرابات التى حدثت فى مصر فى عصر الاضمحلال وضعف حكامها جعل الأمم الشمالية المجاورة لمصر تحاول شن الغارة عليها ولكن عند ما ظهر ملوك الاسرة الحادية عشرة والثانية عشرة وتمكنوا من استرجاع نفوذهم وقبضوا بيد من حديد على السلطة فى مصر أثر ذلك فى تلك الشعوب وأوقفهم عند حدهم .

ونحن نعرف أن أمنمحمت الاول اشترك مع القبائل التى سكنت ليبيا فى حرب وان ابنه سنوسرت الاول حاربهم أيضا مرة واحدة ويظهر أن هذه القبائل خضعت بعد ذلك ولم تحاول أن تعيد الكرة لغزو مصر واستتب الحال على حدود مصر الغربية طوال عصر الأسرة الثانية عشرة

ومثل هذا كان أيضا على حدودها الشرقية التى يسكنها البدو ، هؤلاء الذين جربوا حظهم مرة مع ملوك الدولة الوسطى وعرفوا قوتهم وأحسن ما قيل فيهم هو الوصف الآتى :

شعب العامو الخسيس الذى يسكن أرضا لا يمكن زراعتها تملؤها الاشجار وطرقها وعرة تخترق الجبال . وهذا الشعب لا يسكن موطناً واحدا بل يرحل من مكان الى آخر وهو دائما ينفذ حكم الملك حورث لا يعرف إلا الحرب وهو لا يقتصر فى حروبه وفى نفس الوقت لا يمكن الانتصار عليه وهو اذا حارب لا يعلن يوم حربه »

ومثل هذا الشعب الذى لا يمل الحرب ولكنه لا ينتصر فيها كان من

الصعب التغلب عليه وهزيمته بل كان من الواجب مطاردته كلما قرب من أرض مصر ولذلك سمعنا فى قصة ستوحى عن حرس الحدود وعن القلاع التى بنيت على هذه الحدود ولكن فى نفس الوقت تحدثنا بعض النصوص من عصر الدولة المتوسطة عن علاقات تجارية بين مصر وفلسطين وعن حضور بعثات تجارية الى مصر كما ذكرت لكم فى عصر الملك سنوسرت الثانى ولم تلتحم مع قبائل البدو إلا فى عصر الملك سنوسرت الثالث إذ طاردهم فى بلادهم وهزمهم ورجع منتصرا

ثم أن علاقة مصر مع سكان جزر البحر الابيض المتوسط كانت حسنة والتجارة كانت قائمة نستدل على ذلك من الاوانى الاجنبية التى عثرنا عليها فى الكاهون وفى أبيدوس من صناعة كريتة وغيرها من الجزر

إذن فعلاقة مصر مع الأمم المجاورة كانت علاقة قائمة على الود لمن أراد السلام وعلى الحرب لمن أراد الحرب ولم تفكر مصر فى مد سلطتها لغرض الاستعمار إلا فى الجنوب وكما ذكرت لم يكن ذلك الاستعمار استعمارا بمعنى الكلمة بل سببه أن ملوك مصر أرادوا إيجاد ارض غير مصرية تقوم عليها المعارك (كما حدث فى الحرب العظمى فى بلجيكا)

كلمة عامة عن تاريخ
عصر الاضمحلال الثانى

لقد كان الملك أمنمحعت الثالث آخر ملك من ملوك الاسرة الثانية عشرة الذى ساهم فى رفعة مصر وترك فى التاريخ المصرى آثارا خالدة . ثم خلفه

على عرش مصر ابنه أمنمحمت الرابع ثم من بعده أخته سبكنفرو رع وهنا انتهت الأسرة الثانية عشرة وبانتهائها انتهى عصر الدولة الوسطى الذهبي .

ويدخل التاريخ المصرى بعد هذا فى عصر مظلم كله اضطرابات وانحلال يشبه من نواح عدة عصر الاضمحلال الأول الذى حل بمصر بعد انتهاء الدولة القديمة .

والآثار التى وصلت إلينا من هذا العصر قليلة لاتعاوننا البته على فهم ذلك العصر أو تتبع عصوره وأكثر من هذا تتضارب أحاديث المؤرخين القدماء ونخص بالذكر منهم مانيتون وقبل أن نبدأ بدراسة أسر هذا العصر (وأقصد بذلك الأسرة الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة ثم السابعة عشرة) أود أن ألقى معكم نظرة سريعة على ماخلفته لنا مصادر التاريخ من أحاديث عن هذا العصر .

ولنبدأ بمانيتون : يقول مانيتون أن الأسرة الثالثة عشرة كانت من طيبة وعد من ملوكها ٦٠ ملكا حكموا مصر ٤٥٣ سنة . ثم أتت الأسرة الرابعة عشرة وكانت هذه الأسرة من الدلتا وعد من ملوكها ٧٦ ملكا حكموا مصر ١٨٤ عاما ثم غزا مصر شعب الهكسوس أو كما يسميهم ملوك الرعاة الذين أسسوا فى مصر أسرتين . الخامسه عشرة عد من ملوكهم ٦ ملوك ثم السادسة عشرة وذكر لهم ٣٢ ملكا ثم قال أنه بعد هذه الاسرة أتت الأسرة السابعة عشرة وهى فى الحقيقة أسرتان إذ أن مصر فى ذلك الوقت كانت منقسمة الى قسمين الدلتا حيث الهكسوس وذكر لهم ٤٣ ملكا ثم الوجه القبلى حيث أقيمت أسرة مصرية بجته ناوأت الهكسوس وذكر لهم ٤٣ ملكا . وعلى ذلك تكون الفترة فى التاريخ المصرى (حسب مانيتون) التى كانت بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنه عشرة هى حوالى ١٥٧٠ سنة . وهنا يجب علينا أن

نقف أمام هذه المبالغة الشنيعة فى التاريخ . لأننا نعرف أن هذه الفترة لاتتعدى البته ٢١٠ سنة أى أنها تأتى بين ١٧٨٥ و١٥٧٥ وهى الفترة بين نهاية حكم الأسرة الثانية عشرة وابتداء حكم الاسرة الثامنة عشرة وقد استطعنا تحديد هذه الفترة بما ثبت من أن نجم الشعرى اليمانية (وهو نجم عرفه المصريون كان يظهر سنويا وبه استطاعوا معرفة أن السنة ٣٦٥ يوما وإن لم يستطيعوا معرفة ربع اليوم الزائد وعلى هذا كان يلزم لهذا النجم ٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠ عاما ليظهر مرة ثانية فى نفس الوقت ونفس المكان)

ظهر فى ١٦ برمهات من السنة السابعة من حكم الملك سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة وقد استطاع الفلكيون بحسابهم الخاص أن يؤرخوا هذا الحادث بحوالى عام ١٨٨١ — ١٨٨٢ أو حوالى ١٨٧٨ — ١٨٧٩ ق م ، كما ثبت أيضاً أن هذا النجم ظهر فى ٩ أبيب من السنة التاسعة من حكم الملك أمنوفيس الأول وقد أرخ الفلكيون أيضا هذا الحادث بحوالى عام ١٥٥٠ ق م

ولما كنا نعرف تماما أسماء ملوك كل من الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة ومدة حكم كل منهم فقد استطعنا بفضل تحديد الفلكيين لكل من هذين الحادثين أن نعرف نهاية حكم الأسرة الثانية عشرة ، وابتدأ حكم الاسره الثامنة عشره وبالتالى الى معرفة هذه الفترة بينهما وبذلك اتضح لنا مقدار المبالغة عند مانيتون فى تقدير هذه الفترة

وأ كثر من هذا أن الآثار التى عثرنا عليها من هذا العصر تدلنا على أن المدة لايمكن أن تزيد عن قرنين ، ثم ان الاختلاف بين حضارة الدولة الوسطى والدولة الحديثة اختلاف قرنين من الزمن وليس أكثر

فلنترك الآن مانيتون ونبحث فيما ذكرته ورقة تورين البردية : لقد اتفقت هذه الورقة مع ماذكره مانيتون فى تقسيم الأسرات وفى عدد ملوك كل أسرة

ففى الجزء الذى يتلو الجزء المخصص لملوك الأسرة الثانية عشرة نجد فى ورقة تورين البردية خمسة صفوف نعتقد أن كل صف منها خصص لملوك إحدى الأسرات الخمسة التى يتكون منها عصر الاضمحلال الثانى

ففى الصف الأول نقرأ ٦٠ إسما وفى هذه الحالة يتفق مانيتون مع ورقة تورين وتكون الأسرة الثالثة عشرة تحوى ٦٠ ملكا ومما يؤسف له حقا أن الورقة فى هذا الجزء ممزقة كل التمزيق ولا يمكننا البتة تتبع أسماء ملوك الأسرة الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة ولكننا نلاحظ أن ماتبقى من الأسماء وما ظهر فى أسفل كل اسم من مدة الحكم — ولقد حفظت الورقة لنا مدة حكم ٣٢ من ملوك هذا العصر — لايتعدى سنوات قليلة

أما قائمة الملوك التى عثرنا عليها فى سقارة وفى ابيدوس فلم تذكر لنا أى اسم من أسماء ملوك هذا العصر

أما قائمة الكرنك فقد ذكرت لنا ٣٥ اسما من أسماء ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة بينما ملوك الأسر الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة لم يذكروا على هذه القائمة

هذا هو ماذكرته لنا مصادر التاريخ عن عصر الاضمحلال الثانى والآن فلنتابع دراسة كل أسرة معتمدين فى ذلك على الآثار التى خلفتها لنا كل من هذه الأسرات الخمسة .

الأسرة الثالثة عشرة :ـ

ان الأسباب التى دعت الى اضمحلال الدولة الوسطى تختلف عن تلك الأسباب التى أدت الى سقوط الدولة القديمة .

لقد عرفنا أن حكام الأقاليم فى عصر الأسرة السادسة انتزعوا السلطة انتزاعا من ملوك مصر واستقلوا تدريجيا بالسلطة المحلية وأصبحوا يتصلون

بالملك فى عاصمته بخيوط وهمية لا تتعدى العلاقات الرسمية بين مليك البـلاد وملوك آخرين كل منهم استقل بمقاطعة . هذا الخطر لم يظهر فى الدولة الوسطى وخصوصا بعد أن تمكن الملك سنوسرت الثالث من القضاء على هذه الفئة قضاءا تاماً .

ولـكن الخطر أتى من ناحية أخرى وهو أن ملوك النصف الثانى من الأسرة الثانية عشرة اعتمدوا فى حكمهم على الموظفين الذين أرادوا أن يجعلوا منهم منافسين لحكام المقاطعات فأعطوهم كل ما يمكن اعطاؤه الموظف من سلطة ، وفعلا نجحت هـذه السياسة وقضى هؤلاء الموظفون على ما كان من السلطة لحكام الاقاليم . ثم اعتمـد الملوك فى حكمهم على الجيوش القائمة وكان الملوك المصريون قبل هـذا العهد لا يعرفون الجيش القائم بل كانوا كلما دعا الحال (كحدوث غارة على مصر أو ارسـال بعثة الى الخارج) جمعـوا الناس ودربوهم بسرعة على الحرب وكونوا منهم فرقا لا تلبث أن تسرح إذا ما انتهوا من المهمـة التى من أجلهـا جمعوا . ولأول مرة فى تاريخ مصر بقيت فرق الجيش المصرى فى أيام السلم دون أن تسرح ولعل السبب الذى حدا بالملوك إلى اتخاذ هذه الطريقة هذا النزاع الدائم الذى وقع بين الملوك وحكام الأقاليم ثم اعتماد هؤلاء الحـكام على فرقهم الخاصـة وتفننهم فى تدريبهم والعناية بهم فاضطر الملك أن يحارب هؤلاء الحكام بنفس سلاحهم .

فتـكون فى مصر فى أواخر عصر الأسرة الثانية عشرة حزبان كبيران لهما خطرهما حزب الموظفين وحزب الجيش ، وعندما أنجب أمنمحت الثالث ابنـه أمنمحت الرابع وبعده أخته سبك نفرورع وكان كلاهمـا ضعيفا لم يعرف كيف يسيطر على كل من الحزبين ولم يعرف كيف يمنع تصادم هاتين القوتين سقطت الدولة الوسطى .

ويظهر أن ملوك الأسرة الثالثة عشرة كانوا من هاتين الفئتين كل فئة تناضل بقدر استطاعتها أن يكون ملك مصر منها حتى إذا نجحت تصدت لها الفئة الاخرى وناوأت الملك حتى تسقطه وتعين ملكا آخر من بينها وهذا هو السبب فى تعدد ملوك الأسرة الثالثة عشرة وفى اختلاف أسمائهم وفى عدم ظهور أى نسبة بينهم وبين أى بيت من البيوت الملكية ومن الظريف حقاً أن بعض هؤلاء الملوك زاد على ألقابه الملكية المعروفة لقب رئيس الحبيش .

وإنى أرى أنه من العبث حقاً أن أسرد عليكم كل أسماء ملوك هذه الأسرة فهم كثيرون لم يخلدوا فى تاريخ مصر أى أثر ولم يساهموا فى رقى مصر بل بالعكس أسدلوا على هذا العصر ستارا كثيفا من الظلام وسهلوا للاعداء أن يجدوا فى مصر لقمة سائغة ، فدخل مصر الهكسوس وأقاموا دولة عاشت فى مصر أكثر من قرن .

دولة الهكسوس فى مصر

بعد أن انحلت الاسرة الثالثة عشرة واختفت أحزابها المتنازعة انقسمت مصر الى ثلاثة أقسام . قسم حكمه ملوك اصطلحنا على تسميتهم ملوك الاسرة الرابعة عشرة وهذا القسم واقع غربى الدلتا مع جزء من وسطها وذكرت لهم ورقة تورين ما يقرب من ٢١ أسما (لا يمكننا قراءة هذه الأسماء بشكل واضح لأنه كما قلت تهشمت الورقة فى هذا الجزء) وذكر لهم مانيتون ٧٦ اسما . ولكن الغريب أننا لم نعثر على أثر لملك من هؤلاء الملوك قطعيا . وهذا يدلنا على انهم لم يتعدوا حدودهم فى الدلتا الغربية ولم يصلوا بأى شكل كان إلى مصر العليا

وبينما كانت هذه الاسرة تحكم فى الغرب كان الهكسوس قد دخلوا مصر من

الشرق وأقاموا دولتهم التى امتـدت على كل الدلتـا إلا جزءها الغربى ثم مصر الوسطى حتى أسـيوط . أما مصر العليـا فـكانت تحت إمرة حـ مدينة طيبة

أما دولة الهـكسوس فهى التى تقع فى الفترة التى اصطلحنا على تسمـ الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة ثم السابعة عشرة فى الشمال فقط

والآن فلنستعرض ماتحدثت به المراجع التاريخية عن شعب الهـكسوس أما مانيتون فقد تحدث عن غزوة الهـكسوس لمصر كما يأتى :

« تحت حكم الملك « توتيمايوس » غضبت الآلهة على مصر . وكان من جـ ذلك أن هاجم مصر شعب لاندرى موطنه أتى اليها من الشرق . ودخلوا مصـ دون حروب واستوطنوها دون سفك دماء . وقد أسروا زعماءها وأوقدوا النار فى مدنها وهدموا معابد آلهتها وتعسفوا مع أهلها فكانوا يضربون البعض بدون مبرر أو يسبون نساء وأطفال البعض الآخر ثم أقاموا أحـد واسمه سلاتيس ملكاعلى مصر وكان هذا الملك يأتى من حين لآخر الى منفيس حيث يقرر الضرائب الجديدة ويجمع الجزية من الأرضـين ويقيم الجند فى المناطق المحصنة . وكانت جل عنايته متجهة صوب المناطق الشرقية التى حصنها وقوى حاميتها ثم بنى عاصمته « أواريس » وحصنها تحصيناً جيداً وبلغت حامية ٢٤٠٠٠٠ جنديا كان يتفقدهم ويغمرهم من عطاياه اليهم ويستعرضهم إذ أنهم كانوا عدته التى يعتمد عليها لسحق العدو . ومات هذا الملك بعد أن حكم ١٩ سنة . أما الشعب بأجمعه فكان يسمى بالهـكسوس أى ملوك الرعاة »

والمدقق يرى أن ما كتبه مانيتون كان مصدره ماتبقى عن الشعب المصرى من ذكريات متداولة عن الهـكسوس . هذه الذكريات نشأت فى العصر الذى أتى بعد الأسرة الثامنة عشرة التى يعد من بين أعمالها الحسنة طرد الهـكسوس

من مصر . وفى بردية من عصر الأسرة التاسعة عشرة نقرأ عن هـذا الشعب ما يأتى :

لقد حدث أن وقعت مصر فريسة لعدو خسيس ولم يكن فيها ملك يحكمها وفى ذلك الوقت كان الامير سكنن رع يحكم مقاطعات الجنوب بينما احتمى العدو فى عاصمته فى الشمال ومكث ملكهم فى مدينة أواريس حيث تجبي له الضرائب وتأتى اليه من كل مناطق الشمال والجنوب »

وهناك نص نعده النص الوحيد الذى يحدثنا عن الهكسوس دون أن يعتمد على الذكريات المتداولة بين الشعب . هذا النص هو ما كتبته الملكة حاتشبسوت فى معبدها المسمى « اسطبل عنتر » الواقع بالقرب من بنى حسن « دخل شعب العامو من الشرق ومكثوا فى أرض الشمال وجعل ملكهم من أواريس عاصمة له وقد هدموا كل ما كان قد شيدته يد المصريين حكموا مصر دون أن يعرفوا الاله رع ولم يحكم مصر أحد باذن من الآلهة حتى عصرى هذا . »

من هذا النص يمكننا أن نحكم على الحالة فى مصر : فما لا نزاع فيه أن الهكسوس مكثوا فى الشمال فقط وأن الجنوب كان يحكمه بعض الأمراء المصريين الذين لم يكن لهم سلطة واسعة ولكنهم كانوا على كل حال متمتعين بسلطتهم الضئيلة فى حكم مقاطعاتهم الصغيرة

موطن الهكسوس :

لقد لقب الهكسوس بألقاب عدة فى النصوص المصرية :

١) حكام البلاد الاجنبية (حكا خازوت) (٢) الأسيويون . الساميون (عامو) (٣) (منتيو سانت) وهم القبائل البدو التى كانت

تجوب الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سينا وهم ساميون أيضا (٤) اشاسو) وهم القبائل التى كانت تسكن الصحراء فى جنوب فلسطين .

كل هذه الأسماء تدل دلالة واضحة على أن الهكسوس من أصل سامى أو قل إنهم كانوا البدو الذين سكنوا فلسطين بل أكثر من هذا كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى قوم العبرانيين .

ومن الأشياء التى تساعدنا على هذا التعليل ما يأتى :

أولا : إن أغلب الأسماء التى خلفها لنا عصر هذا الحكم كانت سامية : مثل يعقوب ، عبد ، نحمن.

ثانياً : لقد جاب الهكسوس معهم إلى مصر العربة والحصان وأسماء الحصان هى بالمصرية «سسمت» مشتقة من الكلمة العبرية أو الكنعانية «سوس» : سيسى ثم اسم العربة : مركبة : مركبوت (كنعانية) ثم اسم العربة : عجلت : عجلة

ثالثا : منذ دخول الهكسوس إلى مصر ظهرت فيها بعض الآلهة التى كانت فى الاصل فى سوريا وفلسطين مثل الالهة « عنات » والاله « بعل » ، والالهة « اشطارته »

رابعا : إن علاقة ملوك الهكسوس بفلسطين كانت وثيقة : يدلنا على ذلك الحفريات التى عملت حديثاً فى « جارا » فقد وجدت بعض الجعارين والآثار لملوك الهكسوس الذين حكموا مصر.

خامساً : فى هذه الجبانة التى حفرت فى فلسطين وجدنا ظاهرة غريبة : وهى أن فى بعض المناطق وجدت جثث الحمير فى مستوى أعلى من جثث الانسان وكذلك أعلى من جثث الحصان ، وهذا يدلنا على أن الحمار لم يقدم كقربان بل دفن فى هذه المنطقة لأنه عبد . ونحن نعرف أن الحمار كان من الحيوانات المقدسة عند الهكسوس يدلنا على هذا :

١) اسم أحد الملوك : (عاقن) أى الحمار القوى .

٢) اسم الاله زيت مع اسم الحمار (عا)

أين كانت مدينة أواريس :

لقد اختلف علماء الآثار فى موقع عاصمة الهكسوس المسماة أواريس ولكن الأبحاث الحديثة دلت على أن الرعامسة بنوا عاصمة ملكهم التى سموها بر رامسيس على أنقاض مدينة أواريس والسبب فى ذلك أن الآلهة التى عبدت فى أواريس فى عصر الهكسوس هى بعينها الآلهة التى عبدت فى بر رامسيس فى عصر الرعامسة وعلى رأس هذه الالهة الاله (سوتخ) الذى جلبه معهم الهكسوس وأدمجوه فى الاله المصرى زيت

ثم حفائر الأستاذ مونتيه الحديثة فى صان الحجر أثبتت هذه النظرية وقررت أن أواريس هى بر رامسيس وهى صان الحجر وهى تانيس اليونانية .

كم من السنين مكثت دولة الهكسوس فى مصر :

لقد اختلفت الآراء القديمة والحديثة فى تحديد عصر حكم الهكسوس فى مصر . ولقد حدثتكم عن نظرية مانيتون :هذه النظرية التى تنتج أن الهكسوس فى الأسرة الخامسة عشرة حكموا حوالى ٢٥٩ عاما (وعدد ملوكها ستة) ، وفى الأسرة السادسة عشرة حكموا ٥١٨ سنة (وكانوا ٣٢ ملكا) ، وفى الاسرة السابعة عشرة حكموا ١٥١ سنة (وكانوا ٤٣ ملكا) ومعنى هذا أن حكم الهكسوس ظل فى مصر ٩٢٩ سنة وكما حدثتكم من قبل عند ما بحثنا عصر الاضمحلال الثانى أن تأريخ مانيتون مبالغ فيه مبالغة كبيرة وان عصر الاضمحلال من أول الأسرة الثالثة عشرة حتى أول الاسرة الثامنة عشرة

لا يتعـدى البتـة ٢١٠ سنـة

متى دخل الهكسوس مصر :

لقد اتفقنا فى محضراتنـا السابقة على أن الأسرة الثامنة عشرة ابتـدأت حوالى عام ١٥٨٠ ق . م والآن فلنحاول أن نصل الى العصر الذى دخل فيه الهكسوس أرض مصر :

لقد عرفنا أن ملوك الهكسوس لم يتعبدوا إلى إله مصرى سوى الاله زيت وعرفنا أيضا أن الاله زيت الذى عبد فى أواريس هو بعينه الاله زيت الذى عبد فى عصر الرعامسة فى عاصمتهم برمسيس . وإن برمسيس هى تانيس -

والآن ننتقل الى نقطة مهمة جدا .

فى تانيس عثرنا على لوحة حجرية كبيرة من عصر رمسيس الثانى أى كتبت تحت حكم هذا الملك . هذه اللوحة التاريخية تتحدث عن ملك اسمه « نوبتى » وأرخت اليوم الذى كتبت فيه : ٤ مسرى من السنة الاربعمائة من حكم نوبتى . ثم ذكرت الاسم الثانى لهذا الملك « زت القوى » ونحن نعرف أن نوبتى هـذا هو اسم الاله زيت الذى يشتق من مدينـة العبادة الاولى حيث أقيمت له الطقوس . إذن هذه اللوحة تتحـدث عن عصر مقـداره ٤٠٠ سنة من تاريخ اله هو زيت . أى أن هذه اللوحة كتبت لذكرى مرور ٤٠٠ سنة على تأسيس عبادة الاله زيت فى الدلتـا فى مدينة برميس . وبما أن هـذه اللوحة كتبت فى عصر رمسيس الثانى الذى حكم حوالى سنة ١٢٨٠ إذن عبادة زيت إدخلت فى الدلتا حوالى ١٦٨٠ ق . م

ولأن هذه العبادة أدخلت فى أول عصر الهكسوس إذن يكون الهكسوس قد استتبوا فى أرض الدلتا حوالى عام ١٦٨٠ ق . م

ويؤيد هذه النظرية أن الملك « نحزى » (وهو الملك الثالث قبل اخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة) كان من عصر الهكسوس ، ونحن نعرف أنه حكم مصر حوالى ١٦٦٠ق.م إذن الهكسوس دخلوا مصر فى عصر يسبق هذا العصر أى أنهم دخلوها فى عصر الملك آى حوالى عام ١٧١٠ ق.م

وصفوة القول أن الهكسوس دخلو مصر حوالى عام ١٧١٠ق.م وأسسوا عاصمتهم أواريس حيث أقاموا معبداً للاله زيت ١٦٨٠ق.م ثم طردوا نهائياً من مصر عام ١٥٨٠ق.م فمكثوا فى مصر مايقرب من قرن ونصف

ملوك الهكسوس وما خلفوه لنا من آثار

ان الأسماء التى وردت على آثار خلفها ملوك الهكسوس فى مصر كثيرة يبلغ عددها (عدد الأسماء) ٣٣ اسما : نقسمها الى خمسة مجموعات :

المجموعة الأولى تحوى أسماء ثلاثة ملوك

١) ملك الشمال والجنوب . عا اوسر رع ايبي (ابو فيس)

٢) الاله الطيب سيد الأرضين نبخو بشر رع « «

٣) « « « عاقنن رع « «

والمجموعة الثانية تحوى أسماء ثلاثة ملوك يلقبون أنفسهم بلقب حكا خاسوت (أى هكسوس) أى حاكم البلاد الأجنبية

(١) سمكن (٢) عانت هر (٣) خيان

المجموعة الثالثة تحوى أسماء ثمانية ملوك استعملوا لقب « الاله الطيب»

« الرابعة « « ستة « « « ابن الاله رع »

أما المجموعة الخامسة فتحوى ثلاثة أسماء وردت على حجر تذكارى أقامه كبير كهنة منف عام ٧٠٠ ق.م لكى يعد عليه أجداده من كبار الكهنة ومن

كانوا تحت حكمهم من الملوك وهنا ذكر هذه الأسماء الثلاثة

(١) عاكن (الحمار القوى)

(٢) شارك (٣) ابي (ابو فيس)

والأسماء التي ذكرها لنا مانيتون يتعسر علينا أن نقارن بينها وبين ماورد على الآثار المصرية للأختلاف الكبير بينها اللهم إلا فى حالتين:

١) ابو فيس هو ابي ٢) هو خيان

ومما يؤسف له أن الأسماء التى وردت على الآثار المصرية وردت متفرقة بحيث يصعب علينا ترتيبها ترتيبا تاريخيا ، وكيف يمكننا ذلك وأهم هذه الآثار ليست إلا جعارين .

ولقد حاول أحد الأساتذة المشهورين (بترى) أن يرتب هذه الجعارين بحسب مظهرها ترتيبا تاريخيا ولكنه فشل فى ذلك كل الفشل

وأهم الملوك الذين تركوا آثارا من عصر حكم الهكسوس هو الملك خيان الذى لم يخلف لنا آثارا عثرنا عليها فى مصر فحسب بل فى كل البلاد المجاورة مثل فلسطين وسوريا والعراق وجزيرة كريتا

ولقد أراد البعض أن يتخذ من هذا الانتشار دليلا على دولة أسسها الهكسوس تمتد بين بلاد ما بين النهرين فى الشمال الشرقى الى جزيرة كريتا فى الغرب وتضم سوريا وفلسطين ومصر . ولكن ظهور هذه الآثار فى سوريا وفلسطين لا يدل إلا على العلاقة الجنسية بين الهكسوس وموطنهم الأول . أما ظهورها فيما بين النهرين فانما يدل على أنها وصلت إلى هناك عن طريق التجارة القديمة . وخصوصا اذا علمنا أن اسم هذا الملك حفر على تمثال لأسد رابض يغلب على الظن أنه وصل إلى ما بين النهرين عن طريق أحد تجار العاديات فى العصور الحديثة واشتراه من هناك المتحف البريطانى

ولقد عثر العالم Weans تحت أنقاض قصر كنوسوس (فى جزيرة كريتا)

الذى تهدم بفعل الزلازل على غطاء اناء مرمرى منقوش عليه اسم الملك خيان وهذا لا يدل على وجود نفوذ لملك الهكسوس خيان فى جزيرة كريتا بل يدل فقط على أن العلاقات التجارية القديمة كانت موجودة وان هـذا الاثر وصل الى كريتا عن هذا الطريق . وأظن أنه ليس هناك من يشك فى وجود العلاقات التجارية بين البلدين منذ اقدم العصور.

وإذا دققنا النظر قليلا وجدنا أن كل الآثار التى خلفها لنا الهكسوس فى مصر وغير مصر هى مصرية الصنع . مصرية الطابع مع أنه لو صحت النظرية القائلة بوجود دولة مترامية الاطراف للهكسوس لتوقعنا أن نرى فى مصر فناً آخر تأثر بالفن الاشورى مثلا أو البابلونى . أو قل لرأينا الفن المصرى قد أثر فى أحد هذين الفنين . ومن ناحية أخرى لتوقعنا أن نعثر على آثار أعظم قيمة وأكبر حجما لملوك الهكسوس مما وجدناه . ولكن كيف يحق لنا أن نؤمن بنظرية الدولة الكبيرة اذا عرفنا أن أكثر ما خلفه الهكسوس لنا لا يتعدى جعارين وقطع صغيرة من أوانى وما شابه ذلك.

بل إن هذه الآثار بالذات تدلنا دلالة واضحة على ضعف ملوك الهكسوس ضعفا أنساهم موطنهم الاول وعاداتهم الاولى فاندمجوا فى الحضارة المصرية . واتخذوا كل ما كان فى مصر مثالا حذو حذوه : فلقبوا أنفسهم بألقاب مصرية ، وعبدوا الها مصرياً وأقاموا له معبدا على الطريقة المصرية . ثم إذا كان هذا الظن على شىء من الحق فلماذا سارع ملوك الهكسوس بل أولهم الى الحدود الشرقية وأقام فيها قلاعا ضخمة وحصنها تحصينا كاملا كما يحدثنا مانيتون ؟ أكان يحصنها ضد نفسه وضد دولته المترامية الاطراف ، أم كان يحصنها ضد غارات يشنها على مصر شعوب أخرى غير شعب الهكسوس الذى استمرأ البقاء فى مصر وأعجبه الحال فيها .

ماذا استفادته مصر من حكم الهكسوس ؟

(١) دخل شعب الهكسوس أرض مصر عنوة وبقي فيها عنوة هدم المعابد وأهان المصري واستعبده . لقد أتاحت الظروف لهذا الشعب أن يدخل مصر تلك الظروف القاسية التي تحل بمصر دائما عندما يكتمل لها عصر ذهبي فما تكاد تهنأ بهذا العصر وتسعى نحو التقدم والحضارة بخطى واسعة حتى يداهمها الانشقاق والاضطرابات فتهوى فى الهاوية . وفى هذه المرة كان التعسف شديداً وذاق المصرى الأمرين من الغزاة ، فما لبث أن حطم قيود التعسف وثار فى وجوه الطغاة ثورة مباركة أوقدت الحمية فى صدور المصريين وجعلتهم يستبقون الموت ويطلبونه بحرارة فى سبيل حريتهم .

فقاموا قومة واحدة وطردوا الهكسوس من مصر .

ولم يتصف الشعب المصرى بالبسالة والشجاعة يوما اتصافه بهما فى ذلك العصر . ولم يتعلق الشعب المصرى بالجندية ويفاخر بانضمامه تحت لوائها بمثل ما فاخر مصرى ذلك العصر .

إن حكم الهكسوس فى مصر هو العامل القوى الذى جعل من الشعب المصرى لأول مرة فى تاريخه شعباً محاربا مستبسلا طلب الحرية فنالها ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الحرب والغزو فما لبثت كل البلاد المجاورة أن خضعت له وعنت لسلطانه فنشأت الأمبراطورية المصرية الأولى ، كونها بطل مصر الفذ تحتمس الثالث ولولا تعسف الهكسوس ونشرهم لواء الظلم فى مصر ، لما تمكن تحتمس أن يجد فى الشعب المصرى فرقة واحدة تساعده على تحقيق مطامعه .

(٢) أما الشيء الثانى الذى استفادته مصر من حكم الهكسوس فهو تعرفهم

على العربة والحصان . فالمصرى لم ير الحصان أو العربة قبل ذلك :

دخل الهكسوس أرض مصر وجلبوا معهم هذا الحيوان الغريب وهذه المركبة العجيبة واستعانوا بهما على حكم المصريين وعلى تثبيت ملكهم فيها فما لبث المصرى أن تعلم هذه الحرفة الجديدة وأجادها واستغلها فنجح فى ذلك كل النجاح

ثورة المصريين ضد الهكسوس التى انتهت بالقضاء عليهم وطردهم من مصر

لقد تحدثنا فيما سبق عن وجود أمارة مصرية فى الجنوب حكمت هناك تارة مستقلة وتارة تحت نفوذ ملوك الهكسوس .

ولقد عثرنا على لوحتين أثريتين تحملان أسماء شخصين كلاهما مسمى : تاعا وكلاهما يحمل اسم العرش « سكننرع » . وبما أنه يستحيل أن نجد ملكين باسم واحد للعرش اعتقدنا أن الثانى وهو أخو الأول كتب باسم العرش سكننرع خطأ بدلا من «سانخت إن رع » . وهذا الأخير عثرنا على جثته المحنطة ولا زالت أثار جرح عميق فى الرأس ظاهرة ونستدل بذلك على أنه قتل بسبب هذا الجرح وأن هذا الملك لقى حتفه فى كفاحه ضد الهكسوس .

ويحملنا على اعتقادنا هذا أننا عثرنا على جزء من بردية كتبت فى عصر الأسرة التاسعة عشرة وهذه البردية تحدثنا عن ابتداء الحرب بين أمراء طيبة وملوك الهكسوس . أو قل عن استفزاز الهكسوس لأمراء طيبة . وحدث هذا فى عصر الملك سننرع أى أخو المقتول لذى عثرنا على جثته ذات الجرح العميق فى الرأس . والنص الذى كتب على هذه البردية يحدثنا عن ملوك عيد من أعياد المصريين المقدسة لجمع الملك أبو فيس (أحد ملوك الهكسوس)

رجال دولته وتداول معهم فى أشياء نجهلها لأن النص هنا مهشم . ثم يستمر النص مرة ثانية وهاك ترجمة ماجاء به :

ومضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك أبو فيس إلى الأمير سكنن رع بالمدينة الجنوبيه طيبه رسالة . فلما وصل رسل الملك أبو فيس بهذه الرسالة إلى المدينة الجنوبيه (طيبه) أحضروا إلى أمير تلك المدينة فقال لأحدهم : لماذا حضرت إلى المدينة الجنوبية ولأى سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ فأجاب الرسول : إن الملك أبو فيس أرسلنا إليكم لنخبركم أن فرس البحر القاطن فى مياه مدينة طيبه يمنع جلالته من النوم ليلا ونهاراً . فصياحه يرن فى أذن جلالته باستمرار . فتكدر أمير المدينة الجنوبية وكظم غيظه ولم يجب على ذلك .

ثم تهشم النص بعد ذلك ولكن يستدل من سياق الحديث أن سكنن رع هذا أرسل هدايا جزيلة إلى أبو فيس ووعده بعمل مايرضيه نحو تلك الحيوانات ثم عاد الرسول إلى سيده وعلى أثر ذلك استدعى سكنن رع قواده ورؤساء مملكته وأخبرهم برسالة الملك أبو فيس . فخيم السكون عليهم جميعا ولم يلفظوا بكلمة . (ثم انقطع النص وانتهى ذلك)

هكذا بدأ النزاع بين ملوك الهكوس وأمراء طيبه . لقد أراد أمراء طيبه أن يبدؤا بمناوأة الهكوس وطردهم من مصر فسمع بذلك ملك الهكوس فاراد أن يستفزهم ويستدرجهم إلى الحرب . فاتهمهم بهذه التهمة الغريبة التى تشبه تهمة الذئب للحمل .

ويمكننا أن نعتقد بأن الحرب بدأت فى عصر سكنن رع ثم استمرت فى عصر أخيه سانخت إن رع الذى عثرنا على جثته . ثم أيضا فى عصر ابن الأخير المسمى كاموزة

ونعرف أن الأخير كان قد أثار الحرب بعد هدنة وانه حاول جهده اضرام

نار الثورة بين مواطنيه ورجال بلاطه الذين رغبوا عن الحرب قانعين بما هم فيه ووصلتنا لوحة خشبيه إسمها « لوحة كارنارفون » مؤرخه فى السنة الثالثه من حكم الملك كاموزة .

وفيها يجرى الحديث بن الملك كاموزه ورجال حاشيته المجتمعين عنده للتداول فى آمر الثورة ضد الهكوس :

قال الملك : أريد أن أعرف لماذا اشتهرت بالقوه . هذه القوة يجب أن تستغل،هناك فى أواريس يجلس ملك ، وهناك في كرش يحكم ملك آخر بينما أنا اجلس هنا فى طيبه بين رجل اسيوى وآخر زنجى . وكل منهما يقتسم مصر معى . انظروا تجدوا الأسيويين قد حكموا مصر حتى الأشمونين ،وقد هدموا كل الأبنية وخربوها ، ولكنى سأهاجم ملكهم وسوف أبقر بطنه بيدى . كل أملى أن أخلص مصر من تعسف الأسيوى وأن أطرده شر طرده .

فرد رجال البلاط على الملك قائلين : إذا كان الأسيويون قد توغلوا فى مصر حتى الأشمونين وأسيوط وإذا كانوا يلفقون التهم ضدنا بيسحبوا لسانهم علينا إلا أننا نعيش بسلام في منطقتنا . والفنتين محصنة تحصينا قويا ونحكم مصر حتى أسيوط . ونحن نملك أحسن مناطق مصر . ثم قطعاننا ترعى عشبها بأمان وما زلنا نستورد الحبوب لماشيتنا من الدلتا . دعهم يحكمون الشمال بينما نحن نحكم مصر الحقيقية .

وهنا غضب الملك عليهم وقال :

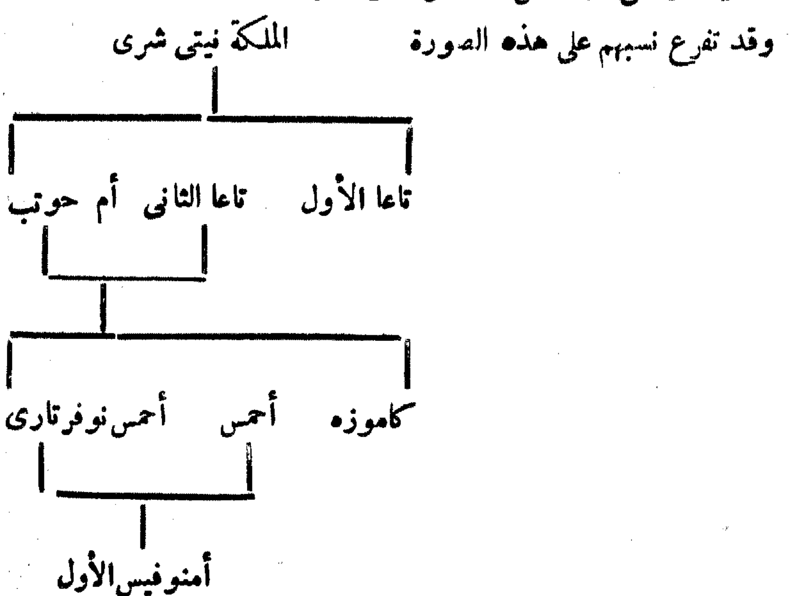
يجب أن يلهج المصريون باسمى ويجب أن يتحدث كل منهم عنى: «هاهو ذا مخلص مصر » ثم جمع الملك جيشا مكونا من رجاله البواسل وفرقته النوبيه وسار بهذا الجيش مطيعا بذلك أمر إلهه آمون الذى يطلب العدل . وتقدم نحو الشمال وهاجم حاكم وحاصر مدينته حتى سقطت ودخلها وهزمه»

وهنا تنتهى بكل أسف النصوص:

نحن لا ندرى إلى أى حد وصل الملك كاموزه في معاركه ضد الهكوس ولكن نعرف فقط أنه كان ملكا لم يستسلم لخنوع قواده ورجاله بل واصل الجهاد وأتم رسالة أبيه من قبله ولقد كان هذا الرجل آخر ملوك الاسرة السابعة عشرة

وخلفه من بعده أحمس الذى نجح تماما فى طرد الهكوس من مصر وطاردهم إلى فلسطين . ونظن أن أحمس هذا هو أخو كاموزه .

وقد تفرع نسبهم على هذه الصورة



« الملك احمس »

لقد عاش كاموزه مدة قصيرة وتبعه كما قلت احمس (الذى يرجح انه أخوه) (وكان ذلك حوالى عام ١٥٨٠ ق . م) . ولقد تابع احمس الحرب ضد الهكوس حتى الجلاء وخلص مصر من تعسفهم . ولكن لم يصلنا نصوص عن ابتداء حكم الملك احمس . وكل مانعرفه هو انتهاء هذه الحرب ونعرف ذلك من تاريخ حياة رجل شارك احمس فى كل معاركه ضد الهكوس وخلد لنا هذا التاريخ

على جدران مقبرته . وكان اسم هذا الضابط . احمس ابن أبانا .

«أمضيت أيام شبابي فى مدينة الكاب وكان أبى ضابطا فى جيش الملك سكننرع ولما توفى والدى دخلت الجندية وأصبحت ضابطا على سفينة من سفن جلالة الملك وكان ذلك أيام الملك احمس . وكنت إذ ذاك شابا لم اتزوج بعد . فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت الى الأسطول الشمالى وذلك لشجاعتى وأقدامى»

من هذا يتضح لنا انه نقل من أسطول الكاب فى الجنوب إلى الأسطول الذى استعمله الملك فى محاربة الهكسوس في الشمال . وبعد ذلك نقل احمس ابن أبانا من البحرية الى الجيس البرى حيث تولى قيادة فرقة الحرس الملكى إذ قال « وكنت اتبع الملك فى سيره حينما اقلته عجلته (وهذه هى أول مرة ظهرت الكلمة التى استعملها المصريون للعربة) ثم انتقل بعد ذلك احمس الضابط إلى الحديث عن حصار اواريس عاصمة الهكسوس

قائلا : — وعندما حاصر الملك اواريس اظهرت فى العراك بسالة عظيمة .

ويظهر بعد ذلك ان هذه المدينة هو جمت من الشاطىء الواقع على النيل بواسطة أسطول إذ ان احمس الضابط عين مرة ثانية ضابطا لسفينة اسمها « ضوء منف ».

وبعد الهجوم الرابع حدثنا احمس ان المدينة سقطت . ويظهر أن حصار اواريس دام عدة سنوات وان مدته طالت بسبب ثورة قام بها بعض الحكام المصريين تحت امرة امير من الكاب . هذه الثورة تحدث عنها احمس هذا أيضا قائلا : —

أسرع الملك إلى الجنوب وحارب الثوار جنوب مدينة الكاب « ولكنه لم يذكر تماما من هم هؤلاء الثوار » وأسرت بيدى رجلا حيا أراد أن يقفز إلى البحر فتبعته فى الماء وقبضت عليه وعبرت به النيل فعلم بذلك الملك فانعم على جلالته بمكافأة ذهبية مضاعفة .

وعندما سقطت اواريس طارد احمس الهكسوس حتى أخرجهم من الحدود المصرية ثم تبعهم إلى فسلطين فتحصنوا فى مدينة شاروهين « شرحان وموقعها جنوبى يهوذا فى جنوب فسلطين » وقال فى ذلك احمس الضابط :

ثم حاصر جلالة الملك شاروهين ثلاث سنوات واستولى عليها وقد أسرت وقتئذ امرأتين وأسيرا فكافأني جلالته بالذهب عن شجاعتي وملكني رقاب الأسيرتين .

ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه فى التاريخ وبرهانا قويا على شدة مقاومة الهكسوس وفى نفس الوقت طول صبر احمس وقوة ارادته وشدة بأسه حتى أنه واصل الحصار طول هذه المدة .

وهناك نص آخر كتبه ضابط آخر خدم الملك احمس واسمه ايضا احمس ابن نخت . ذكر على جدران مقبرته انه تبع الملك فى حربه ضد الهكوس فى زاهي أى فى سوريا «وزاهي هو الاسم المصرى للمنطقة التي يسكنها الفينيقيون» ومعنى هذا ان أحمس الأول طارد الهكسوس حتى طردهم من كل المناطق التى سكنوها ومن المناطق التى يسكنها أقوام من جنسهم . وبذلك طهر مصر وفلسطين وسوريا منهم تماما وأصبح فى مأمن من جانبهم

وبعد ان انتهى الملك من حروبه فى أسيا وجه همه إلى بلاد النوبة : فتمكن فى مدة قصيرة ان يرجع كل المناطق التى حكمتها مصر فى عصر الدولة الوسطى ، وبذلك خضعت بلاد النوبة للمرة الثانية للحكم المصرى وامتدت الحدود الجنوبية المصرية حتى الشلال الثانى وهناك كتب الملك على لوحة تاريخية :

« ورجع الملك احمس من غزوته فى الجنوب يفيض قلبه بقوة النصر العظيم إذ أنه سحق الأعداء فى الشمال والجنوب . »

والآن اصبحت مصر أمة متحدة يمتد سلطانها على بلاد النوبة حتى الشلال الثانى ودانت فلسطين للحكم المصرى . وأصبح ملك مصر مهيب الجانب واسع السلطات .

الحالة الداخلية بعد طرد الهكسوس

كانت مهمة أحمس الأول فى تنظيم الحكومة المصرية وإرادة البلاد الداخلية مختلفة تماما عن مهمة امنمحعت الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة . فامنمحعت تولى عرش مصر بينما كان حكام الأقاليم يتنازعون السلطة كل منهم يتربص بالآخر الدوائر . وكل منهم قوى يشيد بقوته ويسعى لتعزيزها . أما أحمس الأول فقد تبوأ عرش مصر ورأى أن حكام الأقاليم ضعاف والسبب فى ذلك أنهم عاشوا قرنا ونصف تحت النير الأجنبى . ففقدوا أثناء ذلك ما كانوا يتمتعون به من منزلة سامية بين أهالى القطر .

والخبرة الحربية والسياسية التى اتصف بها أحمس الأول ـ وكان اتصافه بها نتيجة مباشرة لنضاله الطويل مع الهكسوس ـ حتمت عليه أن يؤلف حكومة عسكرية محضة . واضطر أن يصبغ حكمه بالصبغة العسكرية دون أن يهتم بميول المصرى نحو السلام والسكينة ، ولقد استفاد كثيرا من سياسته العسكرية هذه إذ أن الشعب المصرى تعلم طرق الكفاح المختلفة . كما أن الغزوات التى قام بها أحمس عدة سنوات بأسيا اطلعت المصريين على ثروة الأقطار السورية وهكذا صار المصرى مجربا لفنون الحرب وعرف أن الحروب تعود على المنتصر بالغنائم الكثيرة فهبت على أثر ذلك فى القطر المصرى عاصفة فكرية دفعته إلى الاستعمار والفتوحات عدة قرون . وصار المصرى يتلهف على الالتحاق بالخدمة العسكرية وأصبحت هذه الخدمة تدر على أفراد الطبقة الوسطى الذين تعودوا حياة الكسل والفقر فيما سبق ثروة كبيرة هذا فضلا عن مركزهم الأدبى الذى يزداد بترقياتهم فى الجندية .

وهكذا اندفع الشعب المصرى فى التيار العسكرى وتسلطت على لبه عوامل الحرب وأصبح من الصعب وقفه عند حده . حتى أن سراة القوم الذين عاشوا

بعد طرد الهكسوس بل أمراء الدولة أنفسهم كانوا يتسابقون إلى الانخراط في الخدمة العسكرية بغية الحصول على النياشين والألقاب التي تشرفهم وتعلي مراكزهم بين قومهم . ولقد رأينا نموذجا لذلك فيما تحدث به أحمس بن أبانا في تاريخ حياته وكيف كان يفخر ببسالته ويعتز بمكافآته

خيمت هذه الروح على القطر المصري مدة قرن ونصف بعد طرد الهكسوس وصار أبناء الفراعنة يعينون قوداً للجيش . ثم زيد عدد الجيش كثيراً وأمد بالعدد وقسم إلى قسمين : قسم يرابط في الجنوب والآخر يرابط في الدلتا .

ومما لا نزاع فيه أن الحروب السورية دربت المصريين على الخدع العسكرية والأساليب الحربية الراقية كما نرى ذلك عند التحدث عن حروبهم في اسيا . ونحن نفاخر كل الأمم بأن مصر هي الدولة الأولى في التاريخ القديم التي أقامت أساليب الحرب التي يتبعها القواد الحديثين . هذه الأساليب التي أهم ما فيها تقسيم الجيش إلى فرق . وإلى قلب وجناحين . ولقد اتقنوا هذا فسهل عليهم مفاجأة العدو والقيام بحركات الالتفاف حوله . هذه النظم الحربية الدقيقة عرفها مصري الدولة الحديثة بينما كانت الحروب فيما قبل ذلك أشبه بالنهب والسلب والقتل والتحطيم .

ولقد استعمل الجندي المصري كمعدات للحرب القوس والنشاب والبلطة ومرن أفراده على إطلاق النبال وتسديدها دفعة واحدة فعظمت منزلة فرقة النبال المصرية وامتازت بشهرتها في ذلك النوع من الحرب حتى العهدين اليوناني والروماني . وأهم ما استعمله المصري كوسيلة للحرب هو الحصان والعربة كما ذكرت لكم فيما قبل . ولقد كان هذا التجدد في سبل الحرب أشبه شيء باختراع الطياره أو الدبابه . إذ أن فرق العربات في الجيش المصري كانت تحوي آلاف العربات والخيول وعندما يطلب لها الأمر بالهجوم كانت تهجم كلها دفعة واحدة فتسحق العدو وتشتته وتدخل في نفوس الجند الذعر والخوف وتتلف حالته

المعنوية إلى درجة يتعذر معها التفكير فى غير الفرار

ومن الغريب أن المصرى لم يكون فرقة خاصة بالفرسان . بل لم يفكروا قط فى ركوب الحصان . ولقد عثرنا بين حين وآخر على صورة تمثل مصريا راكبا حصانا ولكن كان هذا محدودا باستمرار كحالة استثنائية . ونحن لانعرف السبب الذى حدا بالمصرى إلى عدم تفكيره فى ركوب الحصان بل من الغريب أيضا أن المصرى لم يركب الحمار وكاد يغلب على الظن أن الامتناع عن ركوبهما كان نتيجة لفكرة دينية أو فكرة أخرى جعلتهم يتشاءمون من الركوب وهناك من يعتقد أن الحصان الذى عرفه المصريون وقتئذ كان من فصيلة قصيرة قصرا يجعله غير لائق بالركوب. ولكن لا أود أن أصدق هذا الزعم إذ أن الحمار المصرى الذى نستعمله للركوب بل أحيانا نخصصه لذلك لايختلف عن الحمار في مصر القديمة ارتفاعا أوحجما

وصار لفرعون مصر اصطبلات تحوى الآلاف من أجود الخيول الأسيوية واقتضت الروح العسكرية وقتئذ أن يكون للملك حرس كامل العدد له شعار خاص ويتبع جلالته فى غدواته وروحاته . كما أصبح له أيضا ضباط حربيون خاصون يرافقونه فى حله وترحاله .

على هذا النحو ساس الفراعنة القطر المصرى بلامعارضة وصارت لهم فيه الكلمة العليا فلم يبق للروح الديموقراطية بين ملوك هذا العصر أى أثر ولم يعد يتجاسر أحد من المصريين أن يحاسبهم على أعمالهم . ومثل هذه الروح لم توجد فى الشرق إلا نادرا ونحن نعرف أن الممالك الشرقية كانت تقوى وتتقدم إذا هيمن على شئون الدولة ملك قوى جبار . فاذا ظهرت عليه بوادر الضعف أصبح الدولة فى أيدى حاشيته وفريسة لدسائس حريمه .

وأحمس الأول الذى طرد الهكسوس كان ملكا تتمثل فيه الشجاعة والشهامة ذا عقل كبير ولم يكن لين العريكة أوضعيف الارادة

وإلى هذا الملك يرجع الفضل في إنقاذ مصر من ظلم الهكسوس وما تقلبت فيه البلاد من الاضطراب والفتن فى غضون مائتى سنة

سطوع شمس الامبراطورية الاسرة الثامنة عشرة

أمنحتب الأول : ذكرنا فى محاضراتنا السابقة كيف أن أحمس الأول قد تمكن من توطيد أركان المملكة المصرية وجعلها تمتد شمالا إلى آسيا وجنوبا إلى الشلال الثالث، وقد خلف أحمس الأول ابنه امنحتب الأول الذى بدأ حياته بأن أسرع إلى بلاد النوبة لكى يخمد ثورة قام بها شعب « الكوش » ولما بلغ امنحتب الأول أقليم الشلال الثانى اضطر إلى الرجوع مسرعا إلى غرب الدلتا إذ أن الليبيين قاموا بغزوة كبيرة . ولما تقابل معهم امنحتب الأول سحقهم وتغلب عليهم وحدثنا بهذه الغزوة أحد قواد الجيش المعروفين فى هذا الزمن « أحمس بن نخبت » وبعد ضربه على أيدى هؤلاء الأعداء وجه همه إلى بلاد النوبة وأتم غزواته هناك .

ولما زال الخطر عن حدود مصر الجنوبية والشمالية الغربية ، وجه امنحتب الأول همه نحو غزو الشام ومن دواعى الأسف أنه لم تصلنا أخبار عن تلك الغزوات الأسيوية ، ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ إلى نهر الفرات، ونستدل على ذلك بما قاله الملك تحتمس الأول وهو الذى أعقب امنحتب الأول على عرش مصر منتخرا فى أوائل حكمه بأن مملكته قد امتدت إلى الفرات مع أنه لم يكن قد قام فيها بحركة حربية وقتئذ . ولقد مات امنحتب الأول بطيبة بعد أن حكم عشر سنوات .

تحتمس الأول :

لقد ذكرت لكم عند حديثى عن الاسرة السابعة عشرة أن أصل هذه الأسرة كانت السيدة التى تسمى « نيتى شيرى » وتتبعنا أحفادها حتى وصلنا إلى امنحتب

الأول . ونحن لا ندرى أن كان امنحتب الأول ترك ولدا وارثا له على عرش مصر ، ولكن الذى ندريه أن الذى خلفه هو تحتمس الأول الذى توصل إلى الملك بأن أقترن بأميرة مصرية تدعى « أحمس » بينما لم يصلنا اسم أبيه ولكن اسم أمه « سنى سنب » وكان لاعلان توليته الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفوا الحكومة هذا الخبر على الأحجار فى وادى حلفا وكوبان وغيرهما ويظهر أن الموظف الذى قام بهذا العمل كان من أصحاب تحتمس المذكور لأن الملك رقاه إلى وظيفة كبيرة مهمة بعد اعتلائه العرش ـ هى وظيفة الحاكم العام لبلاد النوبة .

ونحن نعرف أن بلاد النوبة قد تبعت مصر كجزء منها منذ عصر الأسرة الثانية عشرة وأصبح منذ ذلك العصر حاكم مدينة الكاب المصرية هو المشرف على شئون بلاد النوبة بل الحاكم العام لها ، والسبب فى اختيار حاكم مدينة الكاب هو تقسيم مصر فى ذلك الحين إلى ثلاثة أقسام : —

١» مصر الشمالية ويراد بذلك الدلتا

٢» مصر الجنوبية ويراد بذلك مصر العليا حتى مدينة الكاب

٣» منطقة النوبة وكانت تمد شمالا بمدينة الكاب وجنوبا بالشلال الثانى فى عصر الأسرة الثانية عشرة ، ولكن فى عصر الأسرة الثامنة عشرة عندما توغل المصريون نحو الجنوب ووصلوا فى توغلهم إلى الشلال الرابع تعذر على حاكم الكاب حكم بلاد النوبة الشاسعة ، وتعذر عليه أيضا جمع جزيتها الكثيرة ما يتطلبه هذا العمل من الانتقالات بين مناطق النوبة المترامية الاطراف ، ولذلك نحا ملوك الأسرة الثامنة عشرة نحوا آخر فعينوا حاكما عاما على هذه المنطقة أشبه بمندوب سام يلقب بالمصرية القديمة لقبا معناه « حاكم البلاد الجنوبية ابن الملك المعين على كوش » وجرت العادة أن يقام احتفال بهذا التعيين بحضرة الملك يتقدم فيه أحد موظفى المالية ختم الحكومة إلى هذا المندوب السامى قائلا

(هذا ختم فرعون الذى ولاك حاكماً على القطر بين مدينة الكاب ومدينة قباتا) ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع، ومعروف أن ما بين الشلالين الثانى والرابع يسمى عند المصريين القدماء بلاد الكوش. وهذه البلاد لم تكن محكومة وقتئذ بحكومة أهلية أو إدارة ملكية منظمة ولكنها كانت تحت سلطة رؤساء القبائل كل رئيس يسيطر على قبيلته ولقد سمح المصريون لرؤساء تلك القبائل بالاحتفاظ الاسمى بمركزهم الادارى، ولكن هذا النظام لم يعمل به مدة طويلة إذ أن المصريين عينوا بدلا من هؤلاء الرؤساء ضباطا مصريين.

ولم يكن النصف الجنوبي لأقليم السودان المصرى- أقصد بذلك بلاد الكوش- أيام تحتمس الأول ساكناً هادئا بل كان مضطرب الأمن والسلام، ونعرف أن المندوب السامى الأول المسمى (نخورع) لم يتمكن من القبض بيد من حديد على الحالة هناك، بل كانت أيام حكمه كلها اضطرابات وثورات، ولما رأى تحتمس الأول عجز مندوبه عن معالجة تلك الحالة المستعصية هناك ذهب بنفسه فى أوائل السنة الثانية من حكمه ليضع حداً لتلك الاضطرابات ووصل إلى الشلال الأول وهناك وجد الطريق المائى مسدوداً بالصخور فلم يصرف وقتاً طويلا فى فتحه فصمم على الوصول إلى ماوراء هذا الشلال عن طريق البر. وتابع الملك زحفه حتى وصل إلى الشلال الثالث وكان بذلك أول الفراعنة الذين دخلوا ذلك المكان الملقب بجنة أعالى النيل ونقصد بذلك أقليم دنقلة الحالى وكلنا يعرف أن هذا الأقليم خصب للغاية وأن النيل يجرى إلى مسافة مائتى ميل حتى الشلال الرابع دون عائق فى طريقه. ونصب الملك فى تلك الجهات خمس لوحات حجرية وصف عليها غزواته وانتصاراته ثم قفل راجعاً بعد ذلك إلى الشلال الأول بعد مضى سبعة أشهر قضاها كلها فى الضرب على أيدى الثوار فى بلاد النوبة، ويرجح أن بطء الملك فى رجوعه إلى مصر كان بمناسبة قيامه

بمشروعات نافعة منظمه فى كل المناطق التى زارها فى بلاد النوبة وبعد أن أتم تحتمس الأول إخضاعه لبلاد النوبه وجه همه نحو آسيا. ولكن يجب علينا أن نتذكر أن تحتمس الأول قد ورث عن أمينحتب الأول بلاد آسيا المستتب فيها الأمن والتى كانت قد أخضعت تماماً في عصر الملك السالف، إذن لم يقم تحتمس الأول بأعمال باهرة فى تلك الجهات كالتى قام بها أمينحتب الأول

وما دمنا نتكلم عن آسيا فأود أن أذكر لكم الشعوب المختلفة التى كانت تقطن آسيا الغربية في عصر الأسرة الثامنة عشره:

سكان هذه البلاد الأسيوية ساميون لايبعد أن يكونوا قد هاجروا إليها من صحراء العرب، واسم الشعوب التى تسكن المناطق الشمالية (العراميون) وشعوب المناطق الجنوبية الكنعانيون)، ولقد حتمت عليهم طبيعة الأرض التى سكنوها أن يعيشوا قبائل منفصلة لااتحاد بينهم ولا تضامن. فهذه البلاد تتخللها الجبال والتلال، وتقسمها بذلك إلى إمارات صغيرة مستقله يحكم كلا منها (أمير) والغريب أنه هذه الأمارات لم يستقل بعضها عن البعض الآخر سياسياً فقط بل أيضا دينياً فكان لكل منها معبود خاص وقام الشقاق والنزاع بين هذه الأمارات طمعاً فى النهب والغزو، وأهم هذه الأمارات كانت إمارة قادش على نهر الايرنت وهذه الأهمية ترجع إلى موقعها الجغرافى الذى ميزها: إذ أنها تشرف على الطريق الشمالى الموصل إلى مناطق سوريا الداخليه، ومن ناحية أخرى على الطريق التجارى الذى يتفرع نحو الشرق فيصل إلى نهر الفرات ثم إلى بابل وإلى الجنوب فيصل إلى مصر وبلاد العرب، ثم إلى الغرب فيصل إلى البحر الأبيض المتوسط. كل هذه المميزات سهلت لقادش أن تتمتع بالمكانة الأولى بين هذه الامارات المختلفة، ومكنتها لذلك من إخضاع بعض الأمارات الأسيوية وضمها تحت لوائها. ونحن نعتقد أن مدينة قادش كانت المقر الذى خرج منه الهكسوس) وغزوا مصر. ولعل هذا هو السبب الذى حتم على تحتمس الثالث

ألا يهدأ قبل أن يسحق (قادش) ويدمرها .

ولو أن هذه الأمارات المختلفة لم تتمتع بنظم إدارية ولكنها كانت على جانب عظيم من الحضارة والمدنيه . فقد عرفنا كيف أن الهكسوس علموا المصريين الفن الحربية وصناعة المعادن والعجلات وفوق هذا اشتهر هؤلاء الساميون بكثرة تجارتهم مع البلاد الأجنبية بل نعتقد أن مملكة فينيقيا أسسها بعض المهاجرين الساميين. ونعلم عن الفينيقيين أنهم كانوا تجاراً بحريين ماهرين أخذت سفنهم تنقل مصنوعاتهم إلى أقصى البلاد فى البحر الأبيض المتوسط وربما وصلوا بسفنهم إلى ممالك اوربا الشمالية ، ثم زحف الفينيقيون على شاطىء آسيا الصغرى فاستولوا على رودس وجزر الأرخبيل اليوناني وفي كل مكان حلوا به أسسوا محطات تجارية ، وبذلك كثرت تجارتهم ، وازدادت ثروتهم ، ونشأت بهذه البلاد مدن غنية عظيمة مثل صور ، صيدا ، جبيل ، أرواد ، بطرون أما مركز فينيقيا التجارى فقد استمر من منذ ظهور الأمبراطوريه المصرية حتى عصر (هومير) الذى ذكرهم في آشعاره الشيقه وقال أن هؤلاء القوم يصح أن نجعلهم مثلا لكل الأمم المتحضره .

وحوالى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ظهرت قبائل إيرانيه هاجرت من بلادها في شمال إيران واستوطنت منحنى نهر الفرات القريب من البحر الأبيض المتوسط وهناك أسست دولة عرفت في التاريخ القديم بدولة الميتانى وصلت بنفوذها جنوبا حتى مدينة تونب وشرقا حتى مدينة نينوى . وهذه الدولة لم تلبث أن عظم شأنها واشتد بأسها حتى أصبحت تناوىء بابل في آسيا الصغرى

هذه هى الحالة السياسية التى كانت عليها بلاد آسيا القريبه فى أوائل عصر الاسره الثامنه عشره وتنازع السلطة بين أمم فنية حربية جعل مصر كلما انغمست فى شئونها الداخلية دون أن تفكر فى شئونها الخارجية فقدت مركزها الحربي هناك ويضطر الملك ان يخرج بحملة إلى هذه البلاد . وهذا ماحدث فى عصر تحتمس الأول . فما كاد ينتهى من غزوته فى بلاد النوبة حتى أسرع إلى الشمال لكى يخمد نيران ثورة قامت هناك ضد الحكم المصرى . ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على البلاغات الرسمية للحركات العسكرية التى قام بها تحتمس الأول فى أسيا . ولكن الضابط أحمس بن نخمت حدثنا فى تاريخ حياته عن هذه المعارك وقال أنه اشترك فيها وأحضر لفرعون مصر إحدى وعشرين يداً مبتورة من قتلى الاسيويين وعجلة حربية وفرسا .

وشيد تحوتمس الاول لوحة حجرية عند منحنى الفرات بالقرب من البحر الأبيض ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الاقصى لممتلكات مصر الاسيوية

وبهذا حقق الملك ماافتخر به منذ سنة واحدة وعلى ذلك الاثر الذى نصبه عند الشلال الثالث على حدود مملكته الجنوبية كما سبق .

« شقاق التحوتمسيين وحكم الملكة حتشبسوت »

وعندما قاربت المنية تحتمس الأول حدث شقاق كبير بين نسله . هذا الشقاق ظهرت نتائجه على الآثار التى وصلت إلينا من هذا العصر ولكن كيف كان هذا الشقاق ؟ وكيف صار معضلة تعب فى تفسيرها كل المشتغلين بالآثار ، فهناك نظريات كثيرة كلها متضاربة أهمها تلك التى قام بها العلامة بريستد ثم زيته ثم وينلوك وانا لاأريد أن أثقل عليكم فى تفسير هذه النظريات والبراهين التى استند عليها كل منهم ويكفى أن أخبركم بنظرية شيخ الأثريين العلامة زيته .

والبراهين التى تدلنا على هذا الشقاق المستحكم كثيرة أهمها اسم الملكة حاتشبسوت المنقوش على معبدها فى الدير البحرى .

إذا أن هذا الاسم عومل باحدى الطرق الستة الآتية :

١» أما شطب

٢» أو شطب واستبدل باسم تحتمس الأول

٣» » » » » » الثانى

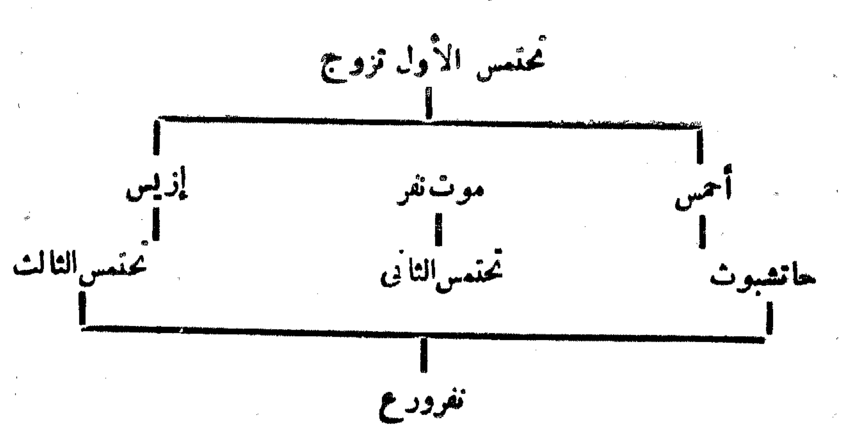
٤» » » » » » الثالث

٥» » » » » الملك أوملك الأرضين

٦» » » » » » سيتى الأول وهذا لايعنيناهنا

وكل هذا يدلنا على أن حاتشبسوت كانت سيدة اغتصبت الملك اغتصابا وحكت مصر رغم أنف كل من رأى أنه أحق بهذا العرش .

والآن فلننظر ماذا أنتجت أبحاث زيته :



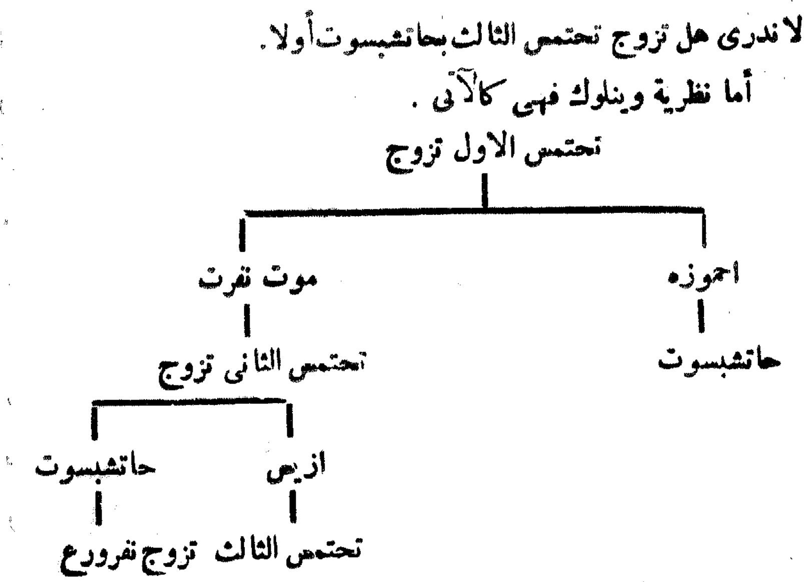
وبعد ذلك حكم هؤلاء الملوك كالآتى :ـ

(١) تحتمس الأول (٢) ثم تحتمس الثالث أولا بمفرده ثم مع حاتشبوت (٣) تحتمس الثانى عزلهما من العرش وحكم بمفرده وكان لايزال تحتمس الأول على قيد الحياة (٤ ثم تحتمس الثالث استرجع الملك لنفسه وحكم أولا مع حاتشبوت ثم بمفرده ٥ ثم امنحوتب الثانى

هذه هى النظرية الوحيدة التى تسهل علينا فهم ماحدث من شطب لاسم الملكة حاتشبوت على آثارها . ولكنها إلى حد مامعقده وخصوصا لأننا

لا ندرى هل تزوج تحتمس الثالث بحاتشبسوت أولا.

أما نظرية وينلوك فهى كالآتى .



وعلى ذلك يكون «١» تحتمس الاول ثم «٢» تحتمس الثانى ثم «٣» تحتمس الثالث مع حاتشبسوت امرأة أبيه أولا ثم بمفرده

ولكن مما يؤسف له انه ليس لدينا ما يثبت ان تحتمس الثانى تزوج حاتشبسوت سوى انها نقلت جثته إلى مقبرة أبيها تحتمس الأول

ماتحدثنا به الآثار :—

اولا : نستدل على أن تحتمس الثالث تمكن بصعوبة من الجلوس على عرش مصر من ناحية وعلى أن هذا حدث فى عصر تحتمس الاول من النقش الآتى :—
في معبد الكرنك مناظر تدلنا على أن تحتمس الأول قام باحتفال كبير للاله أمون وبعد أن قاد الاحتفال وقدم البخور لتمثال الاله أمون حمل الكهنة هذا التمثال كالعادة من قدس الأقداس إلى ساحة المعبد الكبرى ، وكان تحتمس وقتئذ شابا صغيرا فى السن وكان يتقلد منصب كاهن من كهنة أمون ، وقد جلس بين الكهنة فى قاعة الأعمدة الشمالية من المعبد ، فطاف الكهنة بتمثال

المعبود حول المعبد بطريقة يفهم منها أن المعبود يبحث عن شخص بعينه ثم
وقف التمثال فجأة أمام الأمير الشاب تحتمس الثالث فخر هذا ساجدا على
الأرض . وبعد ذلك تعطف الاله وأظهر رغبته أن يجلس هذا الأمير على عرش
مصر فنفذت إرادة الاله فى الحال ثم سرد تحتمس الثالث هذه الحادثة مرة
أخرى أمام رجال بلاطه وأمر أن تكتب على جدران المعبود كالآتى :

« كنت أود أن أزور الاله المعظم فى معبده بمدينة أمون (عين شمس)
لكى اطلب منه أن يجلسنى على عرش مصر ولكى صعدت بنظرى إلى السماء
فشاهدت فيها الاله بعظمته البهية . وحيانى الاله وأنعم على بعرش مصر
وبالألقاب الملكية ؟

أليس هذا كله معناه أن تحتمس الثالث تحايل لكى يجلس على عرش مصر
وان كهنة أمون هم الذين ساعدوه فى ذلك ؟

ثانياً : كتب المهندس أنيني في مقبرته ما يأتي : —

« كان تحتمس الثالث حاكما جالسا على عرش أبيه الذى أعطاه الحياة أما أخته
الزوجة المقدسة حاتشبسوت فكانت تحكم البلاد بارادتها فطأطأت لها مصر رأسها
مطيعة لأوامرها . ولا غرابة فى ذلك فجلالتها من النسل المقدس العظيم الخارج
من صلب الآلهة فكانت بمثابة حبل مقدم السفينة فى البلاد الجنوبية ووتد مرسى
السفينة عند أهالى مصر الجنوبية وحبل مؤخر السفينة فى البلاد الشمالية . لقد
كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهى والمشروعات السديدة والقول المليح الذى
ملأ أهالى القطر فرحا وسرورا »

وإن هذا ليدلنا على أن حاتشبسوت كان لها حزب كبير مكون من رجالات
الدولة : فانينى كان أكبر مهندسى العصر وكان فوق ذاك رئيس خزانة الذهب
والفضة ، وكان سنموت أيضا أشد الناس تقربا اليها وأكثرهم نفوذا فى عصرها

المدعو حابو سنب كان وزيرا ورئيس كهنة أمون وعميد طائفة الكهنة
طر المصرى . وتحوتى الأمير الذى كان مشرفا على شئون
ظفين . هـذا الحزب الذى كان بين يجمع أعضائه أكبر رؤوس الدولة
كن من اختلاق قصة عجيبة سردها بمهارة للشعب . هذه القصة هى كيف أن
تشبسوت هى ابنة الاله وليست ابنة الملك أحمس . نقشوا ذلك على جدار معبدها
الدير البحرى حيث نشاهد الآن طريقة ولادتها فترى كيف أن الاله
رن يخاطب أم الملكة حاتشبسوت قائلا : ستحملين منى بابنة تدعى حاتشبسوت
لى عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة فجاء هذا بمثابة اعلان مقدس للاهالى
يين حاتشبسوت ملكة على مصر . ثم صورت حاتشبسوت كطفلة . ثم كشابة
لحقوا هذه الصور بأخرى أظهروا فيها كيف يقوم آلهة مصر المختلفين بتتويج
تشبسوت ملكة على مصر . ثم رسموا تحتمس الأول مجتمعا بابنته حاتشبسوت
احتفال كبير بالقصر الملكى فى عيد رأس السنة مخاطبا إياها بانه يعرف
ا وارثته على عرش مصر وفوق ذلك أنهم رسموا تحتمس الأول مخاطبا البلاط
سرى قائلا : عليكم أن تطيعوا جلالتها «أى حاتشبست» وأن تكونوا جميعا
طا لارادتها . فالذى يخضع لها منكم يعيش أما الذى يغتاب جلالتها فانه
يترك حيا . ثم هناك صورة للملك تحتمس الأول على جدران معبد الكرنك
ه وهو يطلب إلى الالهة أن يمنحوا ابنته عهدا زاهرا وحكما عادلا .

من هذا كله تبين لنا ما يأتى :

أن تحتمس الأول عندما شعر بضعفه وعدم قدرته على تحمل أعباء الحكم
زل لأبنه تحتمس الثانى عن الحكم وزوجه من ابنته الشرعية حاتشبسوت .
كن تحتمس الثانى كان شابا مريضا ضعيفا مات بعد مدة وجيزة وكان ذلك فى
اة أبيه تحتمس ودفن فى المقبرة التى أعدها والده لنفسه . على أن يدفن بعد
، تحتمس الأول الأول فى مقبرة ابنته فى منطقة جبانة طيبة . هنا انقسم
صريون إلى حزبين كبيرين : حزب يطلب اجلاس حاتشبسوت الابنة الشرعية

كلكة على مصر وذلك لأن أمها أحموزة تنسب إلى البيت الملكي العتيق الذي كان له الفضل في طرد الهكسوس والآخر يطلب اجلاس تحتمس الثالث ابن المحظية . ولكن الملك كان يميل في أول الأمر إلى أن يخلفه رجل على العرش فدبر تلك الحيلة مع كهنة أمون واختار الأله تحتمس الثالث الشاب ملكا على مصر على أن يتزوج من حاتشبسوت ، ولكن الحزب الآخرحزب حاتشبسوت وكما رأيتم كان يحوى أن الرءوس المفكرة في مصر أجبر الملك على الاعتراف بابنته ملكة على مصر ولكنه لم يرض بذلك حتى إذا توفي تحتمس الأول انتهز حزب حاتشبوث الفرصة وأدخلوا في عقول الشعب رضى تحتمس الأول عن تولية ابنته ملكة شرعية على مصر وصوروا القصص والاحاديث التي تبين أحقيتها كما تبين رضى أبيها عن ذلك ، ولقد سردت لكم ما عثرنا عليه من النصوص الناطقة بذلك ولقد كان حزب حاتشبسوت من القوة بمكان حتى انه استطاع شل يديد تحتمس الثالث — إما باقناعه أواضطراره — فظل منزويا مهملا يقوم بوظيفة الأمير الزوج حتى وفاة حاتشبسوت وعندئذ انفرد بالحكم فكان أقدر من تولى حكم مصر في عصر الدولة الحديثة .

حتشبسوت

أرادت حتشبسوت أن تمثل دور الفرعون الحقيقي فتخلت عن لقب «ملكة» وسمت نفسها ملك مصر وتزيت بزى الرجال ووضعت لنفسها لحية مستعارة ، وكان ذلك من خواص الملوك فحسب ، وأضافت إلى اسمها الأصلي اسم التتويج « معات كارع » ولعلها اتخذت هذه الاحتياطات خشية أن يغتصب منها الملك أمير آخر من الأسرة .

وقد كرست حتشبسوت كل جهدها العظيم مدة حكمها في إقامة معبدها

المدرج الذى لا يزال قائما إلى الآن فى الجهة الغربية من النيل عند الاقصر ويطلق عليه اسم الدير البحرى، وهندسة هذا البناء فريدة في بابها فى فن المعمار المصرى، وعلى جدران هذا المعبد المتناسق البناء رسم فنانو الملكة المناظر الهامة للحملة البحرية المكونة من خمس سفن أرسلتها إلى بلاد بنت « الصومال » لاحضار أشجار الروائح العطرية من تلك البلاد لزرعها في مصر : وقد سارت الحملة في النيل ثم فى قناة الدولة الوسطى التى تمتد على طول وادى الطميلات « بين الاسماعيلية والزقازيق » وهى القناة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر . وبعد أن عبرت البحر الأحمر فى سلام وصلت إلى بلاد بنت تحمل هدايا لأمير هذه البلاد منها مجموعة تماثيل للملكة والمعبود آمون واقف بجانبها ، ثم عادت إلى مصر بعد أن امتلأت هذه السفن بطرائف تلك البلاد من أشجار عطرية وعاج وأبنوس وذهب وحيوان نادر وجلود فهود وعدد من أهالى هذه البلاد رجالا واطفالا وقد أهدت الملكة معظم هذه الطرائف إلى الاله آمون شكرا له على نجاح هذه البعثة وعودتها سالمة . وقد قامت كذلك حتشبسوت باصلاح معابد الآلهة المحترمه وبخاصة معبد الاله « سخمت » في بنى حسن ومعبد آمون بالكرنك ، وفي هذا المعبد الأخير أقامت عدة مسلات لم يبق منها إلا واحدة قائمة في مكانها الأصلى وصنعت الجزء الهرمى فى قمة كل منها من خالص الذهب وذكرت ذلك على النقوش التى تزين أوجه هذه المسلات، وأخيرا أعادت استغلال مناجم استخراج النحاس ومحاجر الفيروز فى شبه جزيرة سينا وكانت قد بقيت مهجورة منذ غارة الهكسوس .

وماتت حتشبسوت بعد أن حكمت نحو ٢١ سنة في الستين من عمرها « ١٤٩٥ ــ ١٤٧٥ ق . م » وتعد من أعظم الملكات اللواتى عرفهن التاريخ وقد قام تحتمس الثالث بتخريب كل ما أقامت من الآثار ، ومحو اسمها وإبداله باسمه هو ، ولم يقتصر الأمر على الملكة نفسها ، بل تعداها إلى موظفيها الذين

كانوا من حزبها ومحبيها كالمهندس سنموت فان قبره قد خرب وشوه .
وقد كان هذا المهندس من أقرب المقربين لدى حتشبسوت بل كانت بمنزلة
الخليل لها .

تحتمس الثالث

لقد تركت حتشبسوت لشريكها في الملك عرشا محفوفا بالمصاعب إذ كانت
الدولة المصرية لم تزل فى مهدها ، وقد كان كل جهد حتشبسوت مقصورا على
الاصلاحات الداخلية فنية وهندسية وزراعية ، ولم تمن قط بالأمور الحربية
وتوسيع ملكها خارج الحدود المصرية . ولما كانت الجيوش المصرية لم تظهر فى
سوريا منذ عهد تحتمس الأول فان صغار الأمراء فى هذه الأصقاع قد مالوا إلى
العصيان والتخلص من الاتاوات التي كانوا يدفعونها لمصر سنويا . وقد تجمعوا
كلهم تحت لواء أمير مدينة قادش الواقعة على نهر الأورنت « نهرالعاصي »لمقاومة
فرعون مصر .

ولم يكد تحتمس الثالث يتخلص من حتشبسوت بموتها حتى زحف بجيش
إلى الشمال ليشتت شمل هذا الحلف ، وقدتجمعت القوات السوريه عند بلده «مجدو»
فقابلهم هناك وهزمهم ولكن أمير قادس تمكن من الفرار واكتفى تحتمس بأسر
بعض أفراد أسرته . وقدحفظ لنا التاريخ هذه الغزوةوكذلك قائمة بكل الغنائم
التى استولى عليها الفرعون على جدران معبد « آمون » بالكرنك

وقد سار « تحتمس » فى الجهات الجنوبية من لبنان ، إلى أن وصل إلى
« دمشق » وترك فى هذه البلاد حاميات مصرية حتى يكون فى مأمن من قيام
أمراء هذه الجهات مرة أخرى . ثم رجع إلى عاصمة ملكه مظفرا إلا أنه لم
يتمكن من المكث فيها زمنا طويلا لقيام الثورات في « سوريا » ثانية . وقد

توالت غزوات « تحتمس » فى هذه البلاد فى كل سنة تقريبا من سنى حكمه.

وقد كان استيلاؤه على « حلب » فى بلاد النهرين فى حملته الثامنة فى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه « أى بعد وفاة حتشبسوت باثنتى عشرة سنة « لأنه كان يحتسب فى سنى حكمه المدة التى حكمت فيها حتشبسوت وأهملته » ، وذلك بعد أن هزم الأعداء فى « قرقميش » الواقعة على نهر الفرات ، ومن ثم عبر هذا النهر وأقام لوحة تذكارية على الشاطىء الشرقي منه على مقربة من اللوحة التى نصبها سلفة « تحتمس الأول »

ومنذ ذلك العهد كانت كل آسيا الشرقية ترتعد أمام القوة المصرية حتى أن « بابل » نفسها ، وملك الحيثيين كانا يتسابقان فى إرسال الهدايا إلى فرعون مصر استجلابا لرضاه وزلفى إليه

وكانت القوات البحرية مثل «قبرص» « واقريطش » « وجزر بحر ايجه » تخاف أيضا أن تتم تحت سلطان أسطول « تحتمس » ولذلك لم يكن سلطان مصر ثابت الأركان على البر فحسب بل أصبحت مصر كذلك صاحبة السلطان البحرى ، وقد استمر عاهلة بحرية ، لها قصب السبق على عهد البطالسة حينما كان الأسطول المصرى صاحب السيادة فى البحر الأبيض المتوسط .

هذا إلى أن « تحتمس الثالث » قد نظم الفتوح النوبية إلى الشلال الثالث، وكذلك احتل ثانية واحات صحراء لوبيا ، مما زاد فى قوة مصر ، ورفعها إلى الذروة فى العالم أجمع .

ولقد كان من جراء اضطرار « تحتمس » إلى العودة إلى مقر حكمه كل سنة ليقضى فى مصر فصل الشتاء ، بعد انتهاء كل حملة من حملاته على البلاد الأسيوية — أن الأمراء المتذمرين كانوا يقومون بمؤامرت ثورية ضد عدوهم وسيدهم المشترك ليتخلصوا من نير حكم مصر . وكان « تحتمس » مضطرا إلى أن يريهم قوة بأسه فى بلاد « الأرنت » والفرات بعد انقضاء الشتاء من كل عام

بين سنتي ٣٤ — ٤٢ من سني حكمه . وعلى الرغم من تقدمه في السن ، فانه أرسل أسطولا إلى الشواطىء السورية عام ٤٢ من حكمه ، وتمكن به من اخضاع الأمراء الثائرين الذين أتوا اليه مقدمين له فروض الطاعة لآخر مرة قبل أن يعود إلى طيبة حيث توفى بعد وصوله عام ١٤٤٧ ق . م

ويلقب « تحتمس الثالث » كبار المؤرخين بأنه نابليون مصر ، وأنه أعظم الفراعنة مجدا وسلطانا . والواقع أنه لم يكن بطلا حربيا بكل معاني الكلمة فحسب بل كان فوق ذلك إداريا حازما نافذ البصيرة في تسيير الأمور في بلاده ، هذا إلى أنه كان منظما عظيما ومشيدا كبيرا للمباني الضخمة ، فقد ملأ البلاد بالمعابد الفخمة والقصور والمسلات ، ولا شك أنه يعد أول عبقرية عالمية ظهرت في التاريخ ، إذ أن حكمه الطويل لم يكن عهدا ممتازا في تاريخ مصر فحسب بل في كل حياة الشرق الأدنى . فهو أول فرعون تطاحنت معه الممالك العظيمة المختلفة التي كان يتألف منها العالم المتمدين إذ ذاك ، وبعد أن ذاقت شدة بطشه أصبحت العلاقات بينها وبينه على أحسن ما تكون . وكذلك في عهده بدأت الممالك المتمدينة المختلفة تخرج عن دائرة بلادها ويختلط بعضها بالبعض الآخر ، وتتبادل المنافع فيما بينها في كل مرافق الحياة

يضاف إلى كل هذا أن « تحتمس الثالث » كان أول من وضع نظاما حاذقا في استمالة أهالي البلاد المستعمرة وذلك أنه كان يأخذ أولاد الأمراء وحكام المستعمرات المصرية في « سوريا » وغيرها ويربيهم في مدارس مصر ثم يجعلهم يتولون حكم بلادهم بعد وفاة آبائهم ، وبذلك كان يضمن حبهم لمصر وتعلقهم بها

امنحتب الثاني

يمكننا أن نفهم — مما سبق — مقدار سلطان « تحتمس الثالث » وبطشه في البلاد التي كان يسيطر عليها خارج مصر ، ولذلك لما توفى انبعث في قلوب

الأمراء الأجانب شيء من الراحة والأمل فى التخلص يوما ما من النير المصرى ولم يمض زمن طويل حتى أخذ كل منهم يمتنع عن دفع الجزية التى كانت لزاما عليه كل عام ، ولكن (أمينحتب الثاني برهن أمام هؤلاء على أنه ابن (تحتمس الثالث) ، فلم تمض بضعة أشهر على توليته عرش الملك (١٤٤٧ ق.م) حتى ظهر بجيشه منتصرا فى « آسيا » ، والظاهر أنه قاد جنوده ووصل بهم إلى قلب بلاد « متانى » ولم يكن والده قد وصل إليها فى فتوحاته من قبل ، ولما عاد إلى (طيبة قدم القرابين البشرية من الملوك المتهورين إلى إلهه أمون ، ثم صلب جثثهم على جدران عاصمته لتكون عبرة ودرسا لغيرهم من الأمراء ، وقد كان نصره حاسما ويظهر أنه لم يعد بجيوشه كرة أخرى إلى ممتلكاته الشمالية إذ كان الدرس الذى أعطاه نافعا ، ولذلك كان فى مقدوره أن يخصص ما بقى من مدة حكمه فى تنظيم حدود بلاده الجنوبية ، ويقوى سلطانه فى بلاد النوبة وعلى أثر عودته الى طيبة جهز حملة إلى حدوده الجنوبية أفلحت فى مد سلطانه الى الشلال الرابع ، وهناك بنى قلعة (نباطة وعليها علق جثة أحد الأمراء السبعة الذين أحضرهم معه من غزواته فى بلاد آسيا . وفى إقليم « كروه » حيث بلدة نباطه وهى التى أصبحت منذ ذلك العهد الحد الفاصل للممتلكات المصرية أقام أمينحتب لوحات تذكارية لتكون علامة لنهاية ممتلكاته ، وقد نصب لوحات أخرى فى أمادة بين الشلال الثانى والثالث ، وفى الفنتين أمام بلدة أسوان لتكون ذكرى لمن بعده بأنه أتم بناء معابد والده أمون وجلها فى هاتين الجهتين

تحتمس الرابع

مات امينحتب الثانى بعد أن حكم نحو ٢٧ عاما « ١٤٢٠ ق م » ودفن مثل والده فى وادى الملوك . وتولى بعده ابنه « تحتمس الرابع » ومن المحتمل أنه لم

يكن الوارث الحقيقي للعرش ، والظاهر انه تولاه عن طريق وحي إلهي وهذا الملك معروف لدينا قبل توليته الملك . وذلك أنه بعد انتهائه من الصيد في يوم ما . وهو لايزال أميرا - أخذته غفوة فى فيء تمثال أبى الهول العظيم بالجيزة وبعد أن أفاق من غفوته أمر بازالة الرمال عن هذا التمثال وأقام سورا من اللبن حوله وقواه بآخر على بعد عدة أمتار لمنع الرمال عنه ، ولا يزال السور محفوظا بعضه الى الآن ، وكذلك أقام لوحة بين يديه ، ومكافأة لهذه الخدمات الجليلة وعده هذا الاله بأن يوليه الملك

وإلى « تحتمس الرابع » يرجع الفضل فى أنه أول فرعون أقام سياسة المعاهدات فى آسيا ، فقد عقد معاهدة بينه وبين مملكة « متاني » ضد قوة الحيثيين التى كانت ترداد وتهدد التخوم المصرية . وقد قام « تحتمس الرابع » بحمله حربية فى آسيا غير أنا لانعرف عن تفاصيلها شيئا اللهم إلا أنه وصل إلى بلاد النهرين وأجبر رؤساء - لبنان - على أن يرسلوا اليه الأخشاب اللازمة لصنع سفينة « آمون » فى طيبة ، ولما أحس بأنه فى حاجة إلى صداقة هذه البلاد الأسيوية أرسل سفيرا الى « ارتاتاما » ملك - متانى - وطلب من هذا الأمير العظيم أن يزوجه من ابنته ، وبعد أن أظهر فى بادىء الأمر عدم الرضى عن ذلك عاد ثانيه وقبل أن يزوج ابنته من ملك مصر وأرسلها اليه وكان اسمها المصرى - موتموى - وهى التى أصبحت فيما بعد أم وارث العرش امينحتب الثالث وبذلك دخل الدم الأجنبى فى عروق الأسرة الفرعونية وبعد أن وطد علاقه ببلاد - متاني شرع فى الاتفاق مع ملك بابل وأفلح فى ذلك أيضا .

وبعد أن انتصر فى بلاد النوبة على بعض العصاة فى السنة الثامنة من حكمه عاجلته المنية « ١٠١٠ ق م » وتولى بعده الملك ابنه « امينحتب الثالث » الذى أنجبته له أميرة « متانى »

امنحتب الثالث

يعد هـذا الفرعون من أفخم ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وخاتمة عظماء فراعنة مصر . وقد كانت آخر غزوة فى بلاد النوبة على يديه والظاهر أنه لم يتمد في هذه الغزوة الحدود التى وصل إليها من سبقه من فراعنة مصر . وقد كان تمصير البلاد النوبية الذى شاهدناه قد وصل إلى الشلال الثانى في عهد الأسرة الثانية عشرة ، ثم وقف في عهد الهكسوس ، ثم أخذ ثانية يتقدم شيئا فشيئا في عهد الأسرة الثامنة عشرة فوصل إلى الشلال الثالث ثم إلى الشلال الرابع ، على أن هذا التمصير لم يصل الزنوج ، وإذا قلنا إن بعض الزنوج دخلوا مصر من جهة الجنوب وتمصروا فانه من المحقق أن مصر فى كل عهودها لم تمصر إقليما من الأقاليم السودانية .

أما في آسيا فان السيادة المصرية كانت معترفا بها تماما من ملوك « بابل » « وآشور » « ومتاني » « وعلاقى » (فى الشمال الأقصى من سوريا) . وقد كشفت منذ أربعين عاما عدة ألواح مكتوبة بالخط المسمارى فى محفوظات « تل العمارنة » « اخيتاتون » وهذه الألواح هي التى تعرف فى التاريخ : (خطابات تل العمارنة) وهى مورد فياض منقطع النظير يعطينا المعلومات الخاصة بالعلاقات بين مصر والممالك الأسيوية الصغيرة فى ذلك العهد ، ومن بين المعلومات الهامة التي فيها نجد أن ملك مصر قد أرسل عشرين وزنا من الذهب إلى ملك أشور وقد فعل ذلك ليخطب وده وصداقته ، وقد أرسل ملك ـ علاقى ـ كمية من النحاس إلى مصر . وكذلك كشفت لنا عن بداية سياسة التزاوج بين ملوك مصر وملوك آسيا ، فمن ذلك أن ملك بابل «قادا شمان ـ انليـل » الذى كان دائما في حاجة إلى الذهب تفاوض مع ملك مصر في أن يزوج ابنـه من أميرة مصرية ، وقد حدث كذلك تزاوج ببنات ملوك ـ متاني ـ

وقد كانت سياسة ـ امينحتب الثالث ـ أساسها السلم والتجارة والأمور الاقتصادية ، وكانت البلاد المختلفة تقوم بحركة تجارة جدية فما بينها بتبادل المحاصيل ، وذلك إما بطريق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، أو بالنيل وفروعه ،أو بالقوافل عن طريق خليج السويس وبخاصة ـ فلسطين ـ و ـ سوريا ـ وقد بدأ التأثير الأجنبي ولا سيما الأسيوى و ـ الايجى ـ يظهر فى معظم الصناعات المصرية ، ولذلك أخذ النفوذ المصرى يتسرب إلى البلاد الشرقية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط . ولأجل أن ينظم هذا التبادل التجارى ويقوم على أساس متين ، أخذت مصر تحافظ على الطرق التجارية وتحرسها ووضعت عليها ضرائب غاية فى الحكمة وذلك عن البضائع التى لم تكن مرسلة للملك مباشرة ، وبذلك حفظت ، الصناعات الوطنية المصرية ، من جهة وزيد فى دخل إيرادات الحكومة من جهة أخرى .

امينحتب الرابع - اخناتون -

إن المتتبع لسير الحوادث التى سردناها يمكنه أن يلحظ تلبدا فى سماء السياسة المصرية . إذ الواقع أن الحيثيين فى آسيا الصغرى لم يذعنوا لسيطرة السياسة المصرية ، وهذا هو السبب الحقيقى الذى حدا بالفراعنة إلى وضع السياسة التجارية والعلاقات الزوجية السالفة الذكر لخضد شوكتهم ، ولذلك كان جل هم الحيثيين موجها إلى القضاء على هذه العلاقات إما بالقوة أو بالحيلة. ويظهر ذلك حينما جلس « امينحتب الرابع » على عرش الملك وقد كان لايزال فى حداثة سنه بعيدا عن تجارب الملك مما جعل أيام مجد الدولة المصرية معدودة .

والواقع أن «طيبة» فى هذه الفترة كانت فى حاجة إلى ملك نشيط قوى العزيمة وسياسى ماهر وجندى نافذ الارادة ولم تكن فى امينحتب هذا أية

صفة من هـذه الصفات ، فقد كان جميل الوجـه يحب مجالسة النساء والتحبب إليهن وخاصة أمه ـ تي ـ وزوجته الشابة ـ نفرتيتي ـ . هذا إلى أنه كان يمضي معظم وقته في المناقشات الفلسفية والأحلام اللاهوتية.

ولم تـكن أمه « تي » من أصل أجنبي كما كان يظن بعض المؤرخين ولكن من المحقق أنه لم يكن يجرى في عروقها دم ملـكي ، لأن أثاث والديها « اويا » « وتويا » الذى وجد معهما في مقبرتهما يدلنا على أنهما كانا من عامة الشعب .

وقد تزوج بها أبوه « أمينحتب » في السنتين الأوليين من توليته العرش ويحتمل أن يكون الزواج قبل ذلك . وقد أمر أمينحتب بصنع عدة جعارين تذكارا لهذا الزواج ، وليس لدينا إلا بعضها . والظاهر أن هذه الملكة كان لها تأثير عظيم جدا على زوجها مما أعطى للملـكية صبغة مخنثة بقيت مستمرة في باقي ملوك الأسرة الثامنة عشرة

والملكة « تي » هي أول زوجة اخذت تشارك الفرعون في إدارة حكم البلاد ولعبت فيها دورا هاما

ولما توفى «امينحتب الثالث» بعد ان حكم نحو ٣٦ سنة «١٤١١ ـ ١٣٧٥ ق م» اظهر خليفته على العرش اهتمامه بفضائل قرص الشمس « آتون » اكثر من مستعمراته في آسيا وكان لقرص الشمس معبد في عين شمس وآخر في الكرنك وقد بدأ القوم اقتداء به يدعونه الاله الأحد والاله الفرد منبع كل النور وكل الحرارة ثم منبع كل الحياة على الأرض

وقد فكر الملك امينحتب الرابع أنه بتمثيله إله الشمس بشكل مادى محسوس في صورة قرص شمس تتشعب منه أشعته وينتهى كل شعاع بيد آدمية توزع الحرارة والنور على البشر يمكنه أن يخاطب كل الشعوب مهما اختلفت أجناسها بطريقة مفهومة أكثر من أسلافه عن الاله الذى يعبده وهو ذلك الاله الظاهر الملموس بدلا من الرموز والاشارات التى كان يتخذها اجداده كآلهة لهم ، وبخاصة الاله آمون رع في طيبة . وقد كانت الظاهرة الخاصة في هذا

الانقلاب الديني الذي قام به هذا الملك الفتى هو ان يخضد من شوكة الاله آمون رع في طيبة وكهنته حتى يتمكن من وضع ديانة للدولة تجمع تحت لوائها المصريين جميعا وكل الأجانب الذين يسكنون الأقاليم التي فتحها حديثا تحتمس الثالث وخلفاؤه ، وقد كان من علامات سيطرة هذا الاله العالمية الدائمة ان وضع اسمه في خرطوشين مماثلين للخرطوشين اللذين كانا للملك

ولا شك ان رئيس كهنة طيبة اى الكاهن الأكبر للمعبود آمون قد اخذ ينظر الى التحسينات والاصلاحات التى اخذ الملك يدخلها على مبانى الاله الجديد كبدعة دخيلة على الدين الأصلى للبلاد . ولا يبعد أنه اتخذ كل الطرق لابعاد هذا الملك عن كرسي الملك واجلاس ملك غيره يكون من المخلصين لاله الدولة آمون ، ولكنه لم يفلح

ولا شك أن أمينحتب الرابع كان يخفى تحت ظاهره الضعيف استعدادا وقوة بأس . وقد حسم النزاع بينه وبين كهنة آمون بطريقة قاطعة معجلة : فمنذ السنة السادسة من سنى حكمه جرد كل كهنة آمون والآلهة الأخرى من كل ألقابهم الدينية وألغى عبادة هذه الآلهة فى معابدها ، هذا الى أنه محا أسماءها من جدران المعابد والآثار وبخاصة اسم الاله آمون فانه اضطهد حتى فى المقابر الخاصة . ولما كان هذا الاسم داخلا فى تركيب اسم الملك نفسه أمين — حتب «راحة آمون» فانه نفى عن نفسه هذا الاسم وأبدله باسم أخون — آمون (بهاء قرص الشمس آتون) . ثم عزم على هجر مدينة الاله آمون أى طيبة وأسس حاضرة ثانية لملكه سماها « آخت — آتون » أفق آتون ، ولا تزال بقايا هذه المدينة موجودة الى الآن باسم تل العمارنة الواقعة على الشاطىء الأيمن للنيل بين ملوى وديروط

وقد أقام مدينتين أخريين لهذا المعبود الجديد آتون إحداهما في نوبيا على

الشاطىء الأيمن للنيل بعد الشلال الثالث واسمها «جم آتون» («قوا» تواجه دنقله) والثانية فى سوريا ولم يعرف مكانها بالضبط إلى الآن

وقد بنى معبد الاله الجديد فى اختاتون من جرانيت أسوان، وكذلك شيدت مبانى أخرى لأم اختاتون وللأميرة بكيت«آتون خادمة آتون». ثم انه بنى قصرا لنفسه ومساكن للامراء الذين ذهبوا معه إلى عاصمته الجديدة أما مقابر الملك وأفراد أسرته وأصدقائه فقد نحتت فى الصخر فى سلسلة جبال العرب القريبة من عاصمة الملك. وهذه المعابد والقصور هى فى الواقع عبارة عن قصائد شعر من الحجارة أقيمت لتخليد ذكرى الاله الجديد وعلاقاته المتينة بالملك وأسرته، وهى دليل على المجهود العظيم الذى بذله هذا الملك لتعميم عبادة «آتون» ومد سلطانه فى البلاد النائية من الشلال الثالث إلى أقاصى جهات سوريا وذلك بدون مراعاة لجنسية أى شعب إدعاء منه بأن الاله آتون لم يكن والد المصريين فحسب كما كان الاله آمون، بل كان أبا وأما لكل من خلق، أى الانسانية بأجمعها. وكان سلطانه عالميا وأبديا لا يشاركه فيه أحد.

والواقع أن هذه الديانة التى أجبر (اخناتون) البلاد على اعتناقها لم تكن ديانة الشعب ولذلك لم تمكث طويلا بعد اختفاء مؤسسها. ومن المحتمل أن اخناتون مات فى السنة السابعة عشرة من حكمه ولم يبلغ الثلاثين من عمره بعد وقد دفن فى القبر الذى نحته لنفسه فى صخور تل بنى عمران ولكن أصدقاءه نقلوا تابوته إلى طيبة فيما بعد وقد عثر الباحثون عليه حديثا فى قبر والدته (تى)

وليس لدينا من الحوادث الهامة التى تستحق الذكر فى أيامه غير الثورة الدينية التى قام بها. والواقع أن الحملات المظفرة التى كانت ترسل الى آسيا من قبل الفرعون قد انقضى عهدها ولم يهتم الفرعون بتقدم قوة الحيثيين والخطر الذى يهدد ملكه من جهة هذه الأمة الفتية. ولم يكن له شاغل إلا عبادة

قرص الشمس والتقرب اليه بكل الوسائل على أن الوقت الذى يقتصده من عبادة قرص الشمس كان يصرفه بين أفراد أسرته وبخاصة أمه وزوجته وبناته ، وقد خرج عن كل التقاليد الدينية فى عبادة آلهة . فانه كان يخرج إلى المعبد ومعه سيدات أسرته حيث كن يشتركن معه في إقامة الصلوات ولم يكن ذلك معروفا من قبل .

ويمكننا أن نفهم من غير عناء أن ثورة دينية حاسمة مثل ، التى قام بها (اخناتون) والتى لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة المصرية ، وهذه الروح الجديدة التى كانت تشاهد فى حياة الملك اليومية لابد أن يكون من نتائجها انقلاب محسوس فى المظاهر الأخرى وبخاصة الناحية الفنية وهى التى كان يخصها الملك الشاب بعناية كبيرة .وقد شاهدنا أن الفنانين الذين كانوا يحيطون بالملك الفتى فى عاصمته الجديدة ، قد تخلوا عن تمثيل الملك وأسرته بالطرق المعهودة التى كانت متوارثة منذ بداية الفن المصرى ، إذ كان الملك لابد أن يمثل على جدران المعابد أو فى الأحجار الصلبة بأشكال محفوظة لا يمكن أن يحيد عنها الفنان قيد شعرة . ولكن فى عصر اخناتون بدأ المثال أو المصور يمثل الملك فى حالته الطبيعية وفى الموقف الطبعى الذى كان يجده فيه سواء أكان وحده أم مع أسرته أى أن المثال أخذ فى هذا الوقت يحاكى الطبيعة غير مقيد بقيود رسمية . وقد ظهرت كذلك حرية الفنان فى رسم الأشياء الطبيعية من حيوان ونبات

غير أن هذا الفن الجديد الذى يحاكى الحقيقة ، كانت تنفر منه النفس أحيانا وبخاصة لأنه يميل بعض الشيء إلى الانوثة ، ولأنه كان يضاد كل المضادة الفن القديم الذى كان متبعا فى العصور السالفة

الباب الأول

مصر القديمة

منذ أقدم العصور حتى الفتح العربى

١ — علاقة الجغرافيا بتاريخ مصر العام

سليمان أحمد حزين

الوطن المصرى كوحدة جغرافية(١)

البيئة والإنسان فى عصر ما قبل التاريخ :

امتازت الحضارة المصرية خلال تاريخها الطويل بظاهرتين أساسيتين ، هما القدم والاستمرار . فأما عن القدم فإن مصر فى إجماع الباحثين ، من أقدم مواطن حضارة البشر التاريخية ، إن لم تكن أقدمها فى كثير من ضروب المدنية ؛ بل إن بعض عناصرها الأولى ترجع إلى عهود طويلة قبل فجر التاريخ ، فهى تمتد إلى العصر المعروف بالحجرى القديم ، عند ما كان الإنسان يعيش على التقاط الثمرات ، وجمع الحبوب والنباتات ، وصيد البر والبحر ، ينتقل من مكان إلى

---

(١) هذه مقدمة عامة قصد بها عرض بعض الحقائق الجغرافية الأساسية المتعلقة بمصر وموقعها الجغرافى ، استيضاحاً لما كان للعامل الجغرافى من أثر فى تاريخ مصر العام ؛ فلم يقصد الكاتب إلى سرد التفاصيل الجغرافية ، ولا إلى توضيح البحث بالرسوم والخرائط التفصيلية ، والتعقيب بالأسانيد والمراجع التى تتصل بجغرافية مصر وحوض النيل الأدنى ، أو بعهود ما قبل التاريخ ، عند ما كان أثر البيئة فى الإنسان أظهر منه الآن . ويستطيع القارئ أن يجد غير قليل من هذه الأسانيد إذا رجع إلى قائمة المراجع الملحقة بكل من البحثين الآتيين لكاتب هذه المقدمة :

(1) S. A. Huzayyin, "Some new Light on theBeginnings of Egyptian Civilization" Bull. de la Soc. Roy. de géographie d'Egypte, t. xx, 1939.

(2) S. A. Huzayyin, "The Old World and Egypt in Prehistory," Mém de l' Institut d'Egypte, t. XLIII, le Caire. 1940.

مكان، لا يعرف وطناً ولا مستقراً. وأما عن الظاهرة الثانية وهى الاستمرار، فإن التاريخ المصرى أطول التواريخ؛ ومع أنه قد حدثت فيه فترات انقطاع، كعهد الأقطاع الأول، الذى حدث بين الدولة الفرعونية القديمة والدولة الوسطى، وكعهد الأقطاع الثانى بين الدولتين الوسطى والحديثة، وعهد الاضمحلال الأخير بعد عصر الفراعنة، وعهد غزوة الأتراك. فإن تلك العهود جميعاً إذا ما أضيف بعضها إلى بعض، لا تزيد على جزء محدود من تاريخ الحضارة والمدنية فى مصر. وقد استطاعت هذه البلاد أكثر من مرة أن تنهض بعد اضمحلالها، وأن تجدد التاريخ بعد عفائه؛ كما استطاعت رغم أدوار الصعود والهبوط أن تحتفظ على مر الأيام بطابع حضارتها العام. وإن اختلف مظهر ثقافتها من عصر إلى عصر.

فما السر فى هذا؟ أهى البيئة المصرية التى كانت مسرحاً صالحاً نمت فيه جهود الإنسان. فأنتجت هذه الحضارة العريقة المتصلة؟ أم هو الشعب الذى عاش على ضفاف النيل، واستطاع أن يستغل ظروف البيئة على نحو لم يوفق لمثله غيره من الشعوب، التى عاشت فى بيئات قد تبدو مماثلة للبيئة المصرية، أو أكثر منها صلاحية وأدر خيراً فى بعض نواحى الإنتاج؟ الحق أن مثل هذا السؤال لايمكن أن نجيب عنه إجابة صحيحة كاملة إلا إذا اعتبرنا البيئة والإنسان فى وادى النيل الأدنى متممين كل منهما للآخر، يؤثر فيه ويتأثر به.

وإذا نحن أردنا أن نتتبع أثر البيئة فى سكان هذه البلاد، فقد يكون من المفيد أن نستعرض الحالة فى عصر ماقبل التاريخ، عند ما كانت المدنية فى دور تكوينها الأول، وكان الإنسان أكثر خضوعا للظروف المحيطة به منه الآن.

امتاز العصر الذى يعرف بالبليستوسين، أو الزمن الجيولوجى الرابع، بوجود أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم الآن؛ فكان معظم أوربا يكسوه الجليد، على حين كانت الأقاليم الصحراوية الواقعة جنوبى البحر الأبيض المتوسط ذات مناخ يشبه من وجوه كثيرة مناخ جنوب أوربا فى الوقت الحاضر، ويعرف ذلك العصر فى أوربا بالعصر الجليدى، وفى أقاليم الصحراء بالعصر الماطر أو المطير.

وكانت لإقليم الصحراء إذ ذاك ثروة نباتية متوسطة، من الحشائش والأعشاب والأشجار المتفرقة، التي قد تتركز في بعض الوديان إلى درجة تقربها من الغابات الخفيفة غير المتكاثفة. وكانت تعيش بين تلك النباتات قطعان من الحيوان المناسب للبيئة، كالوعول والغزلان والضباع والأغنام الوحشية والبقر الوحشى والنعام وما إلى ذلك. أما الإنسان فكان لايزال فى العصر الحجرى القديم، يعيش على الجمع والالتقاط واقتناص الحيوان، ويصنع آلاته الخشنة من الصوان وما يشاكله من الحجر. وقد وجدت مقادير كبيرة من تلك الآلات متناثرة على سطح الصحراوين الشرقية والغربية فى مصر، كما وجد كثير منها مطموراً بين الطبقات فى المدرجات النهرية على جانبى النهر، وكذلك على جوانب بعض الوديان فى الصحراء الشرقية، وحول ينابيع الماء القديمة فى منخفض الواحة الخارجة بالصحراء الغربية.

ولم تكن حضارة مصر فى ذلك العهد السحيق الذى امتد عشرات الآلاف من السنين تختلف عما عرف من حضارات العصر الحجرى القديم خارج مصر، وإن كانت تلك الحضارة قد بدأت تنحصر فى وادى النيل الأدنى، وتتخذ طابعاً يميزها عن الحضارات المجاورة والبعيدة فى أواخر العصر الحجرى القديم؛ وربما ساعد على ذلك قرب انتهاء العصر الماطر الذى أشرنا إليه، واضطرار الحيوان والإنسان إلى أن يهجرا الصحارى التى أخذت تجف تدريجياً فى الدور المعروف بالحجرى القديم الأعلى، فنزل الإنسان إلى قاع الوادى، حيث يجرى الماء ولو قليلا. وتتيسر أسباب الحياة، لتوافر النبات وصيد البر والنهر.

وبانقضاء العصر الماطر انتهى الدور الأول من تطور الحضارة فى مصر، وهو الدور الذى كانت الصحارى وحافاتها فيه أهم من قاع الوادى فى حياة الإنسان. أما بعد حلول الجفاف، وانعدام الأمطار أو قلتها الشديدة فى خطوط العرض الصحراوية فقد زاد اعتماد الجماعات البشرية على مياه النهر الجارية، وانتقل مسرح نشاطها من الصحراء إلى الوادى. وأخذ الإنسان يتحول تدريجياً نحو استنبات النبات بدلا من الاعتماد على النباتات البرية، التى تنمو فى الطبيعة،

فاهتدى إلى غرس الحبوب والبذور، وحراسة النبات حتى موسم الحصاد. وهكذا أخذت الحياة مظهراً جديداً، فصارت زراعية إنتاجية، بعد أن كانت تعتمد على مجرد الجمع والالتقاط، واستقر الناس فى «أوطان» صغيرة، فحلت «الوحدة الإقليمية» الثابتة محل «الوحدة القَبَلية» المتنقلة. وأصبح المجتمع فى مصر مؤلفاً من جماعات ترتبط حياتها بقطع متجاورة من الأرض، تتعلق بها وتدافع عنها، كما تحاول توسيعها باغتصاب المناطق المجاورة فى بعض الأحيان.

كذلك امتد أفق السكان وبعد نظرهم منذ أن تحولوا إلى الاعتماد على الزراعة بدلا من الجمع والصيد. فتعلموا ادخار المحصول من فصل الحصاد إلى بقية السنة، وارتبط الحاضر لديهم بالمستقبل، كما تنوعت أسباب الحياة والعمران، فظهرت القرى والمدن الصغيرة، وتنوعت الحرف التى تتصل بالزراعة وفلاحة الأرض، وتنظيم الرى، وحصاد الزرع، وحفظ المحصول وتبادله، وغير ذلك من شئون الحياة الزراعية المستقرة.

وعرف هذا العهد الجديد فى مصر بالعصر الحجرى الحديث (وما بعده): وترجع بدايته على الأرجح إلى نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، أو قبل ذلك بقليل؛ ولعل من أهم عوامل البيئة التى ساعدت على نشأة الزراعة وتطورها القديم فى مصر أن النهر كان يفيض فى أواخر الصيف وأوائل الخريف، فيغذى التربة بالماء والغرين، ثم ينحسر عن جانبيه فى وقت ملائم جداً لزراعة المحاصيل الشتوية ـ وكان أهمها الشعير والقمح ـ حتى إذا ما قامت تلك الزراعات سقط المطر فى أشهر الشتاء، فغذاها حتى نهاية موسم نموها، وحلول فصل الحصاد فى أواخر الربيع .... وفى هذا يتجلى مبلغ تعاون عناصر البيئة، من التربة ونظام جريان المياه والمناخ، مما مكن لمصر أن تظهر بها الزراعة وتتقدم فى وقت لم تكن معروفة فيه فى معظم جهات المعمورة. والواقع أن ظهور المدنية الزراعية فى مصر لم يكن لمجرد المصادفة ولا محض الاتفاق، وإنما جاء نتيجة لتوافر ظروف جغرافية خاصة، هيأت هذه البلاد لأن تكون مسرحا صالحا لحياة الاستقرار والاستيطان، على نحو لم يكن العصر الحجرى الحديث إلا أول أطوار

وكان الوادى ودلتاه فى أول الأمر كثير المستنقعات ، ولذلك اقتصر نشاط الإنسان فى العصر الحجرى الحديث على حافات الوادى الخارجية ، وعلى بعض المناطق الملحقة به كإقليم الفيوم ولكن الطمى الذى يجلبه النهر فى كل سنة بانتظام أخذ يردم تلك المستنقعات والمسطحات المائية ، فاستطاع الإنسان أن ينزل إلى قاع الوادى وقلب الدلتا ، وكان ذلك فى العصر المعروف بعصر بداية المعدن أو عصر ماقبل الأسرات ، عند ما زاد استقرار السكان وارتباطهم بالأرض ، فترك الناس حافة الوادى ، ليقيموا قراهم ومدنهم الصغيرة فى قاعه ، وعلى مقربة من مجرى مياه النهر .

وظهرت مع الحركة الجديدة مشكلتان :

أولاهما : ذلك الخطر المشترك الذى يتهدد الجميع وقت الفيضان ، فالقرية التى يزمع إقامتها بجوار النهر يجب أن ترفع على قاعدة أو كومة صناعية يتضافر الجميع على إقامتها بجلب الأتربة وتكديسها ، حتى تكون الأكواخ فى مأمن من الفيضان ، وكذلك جسور النهر يجب أن تقوى فى كل سنة بانتظام ، وأن تحرس فى أيام الفيضان . ولا سيما فى السنوات التى يكون فيها الفيضان عاليا ، ومثل هذا الخطر «الإجماعى» لا يمكن أنه يدفع بالجهد الفردى ، ولا حتى بالجهود الفردية المتفرقة . وإنما يجب أن يواجه بالجهود الإجماعى المشترك المنظم .

وأما المشكلة الثانية : فتتمثل فى الفائدة المشتركة والنفع العام الذى يمكن أن يصيب الناس إذا ما نظموا الإفادة من مياه النهر ، فالزراعة فى مصر لم تكن من النوع الفطرى ، وإنما كانت تستلزم شق الترع والقنوات ، وتنظيم جريان المياه وتوزيعها ، وإقامة الجسور بين الحياض . وغير ذلك مما يستدعى قيام فنون كثيرة من هندسة الرى وقياس الأرض ، كما يستدعى تنظيم الجهود وتوحيدها فى سبيل تحقيق النفع العام . وكان لظهور هاتين المشكلتين — الخطر المشترك والفائدة المشتركة — أثر كبير فى توحيد جهود المجتمع فى مصر وفرض النظام والطاعة على الجميع . لذلك كانت مصر من أعرق بلاد الأرض نظاماً وحكماً وإدارة ، « فالحكومة » فيها ضرورة من ضرورات الحياة الأولى ، فرضتها

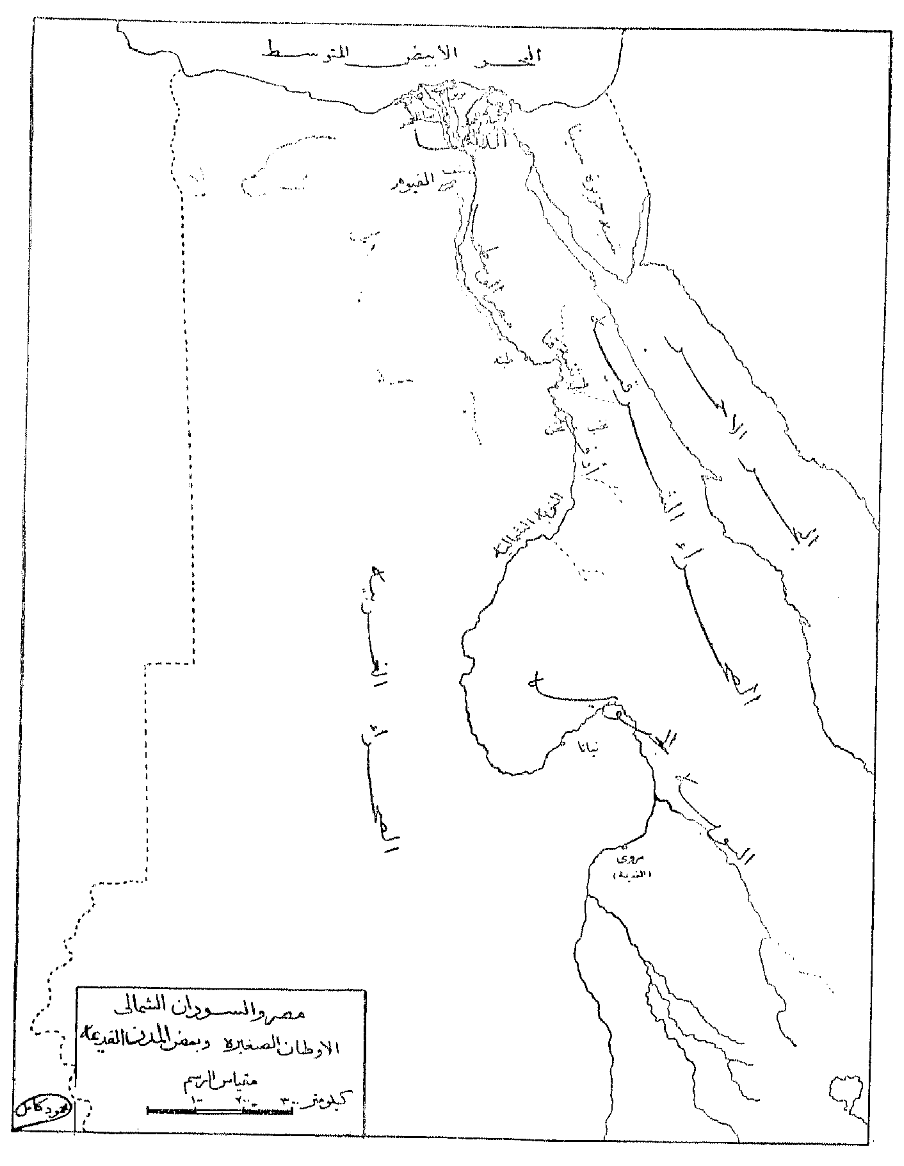
الحاجة على السكان منذ انبثق فجر الحضارة الزراعية المستقرة على ضفاف النهر وفى دلتاه .

والحق أن وجود هذا النهر بنظامه الخاص فى الفيضان قد فرض على المجتمع الزراعى القائم على ضفافه « الوحدة » و « النظام » ، ولم تكن فائدة النهر مقصورة على تغذية الأرض بالماء والغرين الذى يجدد الخصب باستمرار ، وإنما كان مجرى مياهه بمثابة الشريان الأساسى للمواصلات بين مختلف جهات الوادى والدلتا . وهنا نلاحظ أن تيار النهر يدفع السفن فى جريانها من الجنوب إلى الشمال ، على حين أن الرياح الشمالية السائدة تدفعها فى صعودها نحو الجنوب . وفى هذه الظاهرة يتجلى تضافر عناصر البيئة فى مصر مرة أخرى ، تلك العناصر التى تمم بعضها بعضاً منذ البداية ، والتى استفاد الإنسان من أثرها المشترك حتى فى عصور ما قبل التاريخ .

وإلى جانب هذا كله كانت عناصر البيئة فى مصر لا ينقطع أثرها ، حتى فى مواسم هدوء النشاط البشرى . فالشمس والحرارة فى أشهر الصيف ، عند ما يتوقف عمل الإنسان فى الزراعة (فى وقت لم يعرف فيه نظام الرى الدائم) تشقق سطح التربة فى الوادى ، فتسمح بنفوذ الهواء إليها ، وتغذيتها بعناصره المفيدة ، كما تطهر تلك التربة من الآفات الضارة ، وتنقيها من الحشائش والنباتات التى تمتص خيرها ، ولا تفيد شيئاً ، حتى إذا ما ارتفع ماء الفيضان ملأ شقوق الأرض ، وتسرب إلى الأعماق . فغذى التربة وأعدها للعام الزراعى الجديد .

كذلك كانت الطبيعة دائمة العمل فى مصر حتى فى فترات اضمحلال المدنية وانقطاع حبل التاريخ وإهمال المجتمع للأرض والزراعة ، فالشمس مشرقة أبداً . والنيل يأتى بانتظام فى كل سنة ، فيكسب الأرض خصباً جديداً ، سواء فى ذلك ما كان منها منزرعاً وما كان بوراً مهملا ، وكان من أثر ذلك أن استطاعت مصر أن تخرج من كثير من فترات اضمحلالها أصلح مما كانت ، وأقوى على النهوض والتقدم . وهكذا قامت الدولة الفرعونية المتوسطة بنهضتها فى المدنية والثقافة على انقاض عهد الإقطاع الأول ، كما تات الدولة الحديثة برخائها العظيم

أيضاً الحدود الثقافية والبشرية العامة ، التى تشمل تلك الأراضى التى تربطها بمصر التاريخية روابط قوية ، من الثقافة المتبادلة ، ومن مختلف النواحى الاجتماعية والبشرية العامة ؛ وهذه تشمل السودان الشمالى وبقية شمال شرق إفريقية ؛ ثم الحدود العسكرية ، التى ترتبط بشئون الدفاع عن مصر ، فتشمل الصحارى المجاورة . وتمتد إلى ما وراء الحدود السياسية من ناحية الجنوب .



على أننا إذا جمعنا بين الناحيتين الحيوية والبشرية العامة ، فإننا نصل إلى أن حوض النيل الأوسط والأدنى فى شمال السودان (ووسطه) وفى مصر يكون وطناً واحداً متماسك الأجزاء ؛ ويمكن تقسيمه إلى أوطان صغيرة أو أقاليم محلية كما يأتى (راجع الخريطة) :

(١) إقليم النوبة : ويمكن تقسيمه قسمين :

(أ) النوبة الجنوبية ؛ وتتمثل فى السودان الشمالى (جنوب الشلال الثانى) ولاسيما إقليم دنقلا . الذى تسربت إليه معالم الحضارة المصرية القديمة ثم الثقافة العربية عن طريق مصر . وقد دخل هذا الإقليم فى حكم مصر أكثر من خمسة قرون ، كما أنه استطاع فى وقت من الأوقات أن ينتج حضارة شبه مصرية فى طابعها ومظهرها . ومنه خرج الغزاة وأسسوا إحدى الأسرات الفرعونية فى العهد المتأخر . وإقليم النوبة الجنوبية — كما ذكرنا — يصح أن يشمل السودان الشمالى (والأوسط) ، الذى هو أقرب — من حيث ثقافته وحالته البشرية العامة — إلى مصر من إقليم النوبة الشمالية نفسه ؛ حتى إنه يمكن القول إن حدود مصر السياسية الجنوبية لاتقوم على أساس ثقافى ولا بشرى .

(ب) النوبة الشمالية ، بين وادى حلفا وأسوان ، وهنا يضيق النهر . وتقل الأراضى الزراعية على الجانبين وكان هذا الإقليم فى أدوار تاريخه المختلفة يمثل حلقة الاتصال بين مصر والسودان ؛ وعلى الرغم من صعوبة المواصلات فى مناطق الشلالات . ومن أن الثقافة المصرية والعربية لم تستأصلا مظاهر الثقافة المحلية ولا سيما اللغة (حيث اللغة «البربرية» لاتزال قائمة إلى الآن) فإن هاتين الثقافتين (المصرية والعربية) قد تسربتا إلى النوبة الجنوبية كما ذكرنا وعلى ذلك يمكن القول بأن بلاد النوبة الشمالية لم تقطع صلة مصر بالسودان ، وإن كانت قد «نظمت» تلك الصلة . وقد وقى هذا الاقليم — فى الغالب — يظهر — مصر شر بعض الغزوات والهجرات التى كان يصح أن تأتيها من الجنوب ، كما أنه أخذ يلعب فى الوقت الحاضر دوراً خطيراً ، زاد فى ارتباط

وأمبراطوريتها الواسعة عهد الفوضى والهكسوس ؛ بل هكذا أيضاً ظهرت النهضة الحديثة وما صحبها من تقدم فى الإنتاج الزراعى بعد فترة الإهمال والاضمحلال فى العهد التركى .

أثر الموقع الجغرافى :

كل هذا عن عوامل البيئة المحلية فى مصر ، ولكن هناك عاملا جغرافيا آخر له قيمته وله خطره ، ذلك هو الموقع الجغرافى ، وما استتبعه من اتصالات بالخارج تمت فى ظروف جغرافية معينة . فمصر كانت تجمع قارتين (أوراسيا وإفريقية) ، ومفرق بحرين داخليين ، يمتد أحدهما إلى بلاد الشرق والمحيط الهندى ، ويمتد الآخر إلى بلاد الغرب والمحيط الأطلسى . وقد أفادت مصر من موقعها الجغرافى هذا بين الشرق والغرب فى كثير من أدوار تاريخها ، ولو أن هذا الموقع كان وبالا عليها فى بعض العهود ؛ فلقد تحكمت هذه البلاد فى طرق التجارة فى العصور القديمة والوسطى ، ولا تزال لموقعها أهميته الخاصة فى المواصلات العالمية حتى الآن . ولكن مصر كانت تستفيد على الخصوص فى عصور قوتها وتوسعها ، كما كان غيرها من الأمم يطمع فى التسلط عليها ، واستغلال موقعها الجغرافى فى عصور ضعفها وانكماشها . كذلك مكن هذا الموقع الجغرافى المتوسط كثيراً من الغزوات وموجات الهجرة من الوصول إلى أرض مصر ؛ ولقد أتتنا تلك الغزوات من الشرق أحياناً ، ومن الغرب (والشمال) أحياناً أخرى ؛ على أننا نلاحظ أن هذه الغزوات ، وإن كانت قد وقفت مجرى التاريخ أو حولته فى بعض الأحيان ، فإنها قد جددت فى الوقت نفسه دم مصر ، وأضافت إلى ملكات شعبها ومواهبه ، « فالاختلاط » الذى انجلت عنه قد أدى إلى زيادة فى « تنوع » ثروة البلاد الجنسية والثقافية ؛ وليس يعيب مصر فى شىء أن يكون شعبها قد اختلطت فيه دماء الغزاة ، فذلك شأن معظم شعوب العالم التاريخية فى العصور القديمة ، وفى الوقت الحاضر (كإنجلترا واليابان) .

ومع ذلك فإن مصر على الرغم مما أصابها من غزوات قد استطاعت دائماً

أن تدمج الغزاة فيها وأن تسمهم بسماتها ؛ وهى وإن كانت قد غيرت مظهرها الثقافى فى اللغة والدين من عصر إلى عصر، فإنها قد استطاعت أن تحتفظ بطابعها المصرى الخاص فى الحضارة والمدنية . فالزراعة هى هى لم تتغير (إلى عهد قريب جدا) فى أسسها ونظمها الأولى ، والفلاح هو هو فى عمله ومعيشته ، والحقل المصرى والقرية المصرية لايزالان يحتفظان بالكثير من مظاهر المدنية التى بدأت فى العصر الحجرى الحديث ، ثم العادات والتقاليد المصرية (الريفية) لا تزال تجرى ، فى غير قليل من نواحيها ، على نحو ما جرت عليه أيام قدماء المصريين ، ومن سبقهم من الجماعات الزراعية فى وادى النيل .

فما السر فى هذا الاستمرار العجيب وفى هذه المحافظة الشديدة على الماضى ، والتمسك به إلى حد قد لايخلو من الغرابة فى بلد كان على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، أو هو على الأقل لم يكن بمعزل عنه ؟ هناك أسباب عدة قد يكون أظهرها أن الجماعات الزراعية عامة شديدة المحافظة على القديم ، لاترغب فى تغييره أو تبديله . ومثل هذا عرف عن الصينيين وغيرهم من شعوب آسيا الزراعية ، وهو قد تمثل فى مصر بصورة واضحة ، لأن نظام الفيضان قد طبع الزراعة فى الوادى والدلتا بطابع خاص . يجدد نفسه بنفسه فى كل سنة بانتظام ، لا يكاد يختل فى شىء من تفاصيله ؛ ولم يستطع الزارع المصرى أن يغير من طبيعة الأشياء إلى أى حد ملموس حتى العهد الحديث ، الذى ظهر فيه نظام الرى الدائم ، وأدخلت فيه حاصلات جديدة لم يكن رى الحياض ليسمح بمثلها إلا بمقادير ضئيلة ، لا تغير طابع الزراعة العام فى شىء . وما دام أساس الحياة الاقتصادية فى مصر لم يتغير خلال عهود تاريخها الطويل ، فإن حياة الأفراد ونظرتهم إلى الحياة قد تكيفت بالبيئة المحيطة ، وانتظمت فى نظام الطبيعة المتأصل ، فاتخذت وجهة ثابتة لم تتحول عنها على مر الأيام . ومع ذلك فمثل هذه الحال لا يصح أن توصف بالجمود ؛ فإن استمرار نظام صالح ، كما حدث فى مصر ، ليس معناه ركود الحضارة . وإنما هو يرجع إلى أن كثيراً من مظاهر النشاط المصرى



والحضارة المصرية الأولى كانت صالحة للبقاء فبقيت ، كما يرجع إلى أن حياة المصريين ومدنيتهم المادية قد تلاءمت والظروف الطبيعية ، فاستمرت فى بيئتها دون تغيير ، على الرغم من انقلاب الأوضاع السياسية والثقافية فى كثير من فترات التاريخ .

الصحراء والوادى :

وفوق ذلك فإن الصحراء قد ساعدت فى هذا الاتجاه ؛ فبعد أن كانت هى مسرح النشاط فى العصر الحجرى القديم ، جفت أو كادت تجف تماماً فى عصور التاريخ وقل بها السكان ، عدا بعض القبائل المتنقلة فى الصحراء الشرقية ، وفى شمال الصحراء الليبية ، وبعض السكان المستقرين بالواحات الغربية ، وغدت تلك الصحارى فى عصور التاريخ كالدرع يقى مصر شر الغزوات . وهى وإن لم تقطع صلات مصر بالخارج ، فإنها قد « نظمت » تلك العلاقات ، وخففت من أثرها بحيث إنها لم تستطع أن تغير من أسس الحضارة المحلية . ولا أن تطمس معالمها الأصلية ؛ واستطاعت مصر بفضل ذلك أن تحتمل الغزوات . وأن « تهضمها » وتصبغ العناصر الدخيلة بالصبغة المصرية فى النهاية . وذلك على الرغم مما استتبعته تلك الغزوات فى بعض الأحيان من عهود الفوضى والانقطاع . والواقع أن الدور الذى لعبته الصحارى فى مصر كان سلبيا ولكنه كان فى غاية الأهمية ، لأنه ساعد مصر فى عصور التاريخ المتعاقبة على أن تساير حياتها فى أمن واطمئنان ، كما أنه جعل الغزوات من القلة النسبية فى العدد والتأثير بحيث إن مصر استطاعت فى جميع الحالات أن تنهض وتعاود سيرتها الأولى بعد فترة طويلة أو قصيرة من الاضطراب. ومصر من هذه الناحية تختلف اختلافاً عظيما عن بلاد كبلاد العراق ظهرت فيها مدنيات قديمة ؛ ولكن مجاورة البدو والرعاة فى سهوب بادية الشام وأرض الجزيرة الشمالية من ناحية ، وفى أعالى هضبة إيران والأناضول وما وراءهما من ناحية أخرى ، قد جعل تلك البلاد تحت رحمة الغزاة فى معظم أدوار تاريخها . وكان وصول أولئك الغزاة فى أعداد كبيرة وعلى موجات متتالية ، لأن الصحارى والبادية التى تحيط ببلاد العراق ليست فى جفاف صحارى مصر ، فهى لم

«تنظم» سيل الهجرات ، ولم تخفف من حدة الغزوات . فطغت البادية على الحضر هناك بصورة أظهر، وطالت فترات الفوضى ولم تتصل حلقات التاريخ والحضارة المستقرة بالعراق اتصالها بمصر . وليس أدل على صحة هذه الظاهرة من أن غزوات العناصر التركانية والتركية فى القرون الوسطى والحديثة ، كان من أثرها انحلال الحضارة انحلالا يكاد يكون تاما فى أرض العراق ، حيث أهملت الزراعة وعم الخراب والبوار ؛ على حين أن غزو الأتراك مصر قطع طريق الثقافة ، وعطل مجرى الحضارة عامة . ولكنه لم يطمس معالم المدنية ، فلم تلبث البلاد أن جددت نهضتها على أساس تراثها القديم ، وسبقت العراق فى الخروج من عهد الركود والاضمحلال . وهكذا كانت الصحارى والفيافى المجاورة عاملا مساعداً فى البيئة المصرية ، على عكس ما كانت عليه الحال فى بلاد أخرى كالعراق .

الأوطان الصغيرة فى وادى النيل الأدنى :

كل هذا فيما يختص بظروف البيئة الجغرافية ، والموقع الجغرافى العام ، وأثرهما فى النشاط البشرى والحضارة فى مصر . على أن الوطن المصرى يمكن تقسيمه إلى عدة أوطان محلية ، يمثل كل منها إقليما جغرافياً صغيراً ، كان له دوره الخاص فى نشأة المدنية وتطورها . ومن تلك الأقاليم جميعا يتكون هذا الوطن المصرى الذى يربط النهر بين أجزائه بحيث يتمم بعضها بعضاً . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى تلك الأقاليم إشارة تساعدنا على تفهم قيمة العامل الجغرافى فى كل منها .

ولكن يصح قبل ذلك أن نشير إلى حدود هذا الوطن المصرى من الناحية الجغرافية . وهنا نعرض لأنواع كثيرة من الحدود . فهناك الحدود السياسية بصورتها المعروفة ، ثم الحدود الحيوية ، التى تشمل المصالح الضرورية التى ترتبط بها حياة مصر . وهذه تمتد إلى معظم جهات حوض النيل . ولا سيما الحبشة التى يأتى منها ماء الفيضان والغرين الذى يغذى الأرض ويجدد الخصب ؛ وكذلك الهضبة الاستوائية التى تمد مصر بالمياه فى انتظام طوال العام ، فتعوض من ذبذبة الفيضان الحبشى ، الذى يقتصر على جزء محدود من السنة . وهناك

ببقية أرض مصر . فمشروع خزان أسوان قد زاد من حاجتنا إلى هذا الاقليم واعتمادنا عليه ، وقد أغرق ماء الخزان هذه القطعة من الوطن ، ليصير فى الامكان إجراء التوسع الزراعى فى بقية أرض مصر إلى الشمال .

(٢) إقليم أدفو :

وهنا يتسع الوادى بعض الشيء ، وتتكون الصحارى على الجانبين من حجر الرمل (الخراسان النوبى) ، فالتربة فقيرة فى المواد الجيرية ، لأن حجر الجير لا يبدأ ظهوره فى صحارى مصر إلا فى شمال هذا الإقليم . ولكن على الرغم من ذلك فإن منطقة أدفو كانت أول أقاليم مصر العليا اتساعا ، واستقرت فيها جماعات بشرية منذ أقدم العصور . ويظهر أنه كان لها شأن عظيم قبيل فجر التاريخ ، حيث تحكى الأساطير أنها كانت الوطن الأول للأمراء الذين نزحوا إلى إقليم طينة شمالا ، ثم صاروا فيما بعد ملوك مصر الموحدة . وفى إقليم أدفو قامت مدينتا نخب ونخن القديمتان على ضفتى النيل فى الشرق والغرب .

(٣) إقليم ثنية قنا :

وهو يمثل قلب الصعيد ، حيث يزيد اتساع الوادى وينعرج النهر فيكثر الإرساب ، كما تصل بعض الأودية من الصحراء الشرقية ولا سيما وادى حمامات ووادى قنا ، فتجلب من المواد ما تضيفه إلى رواسب النيل ، فتتنوع عناصر التربة ويزيد خصبها ؛ وتوجد بالإقليم تربة صلصالية تصلح بصفة خاصة لصناعة الفخار ، مما أوجد صناعة زادت فى تنوع الحرف بين السكان . كذلك امتازت هذه المنطقة بموقع جغرافى . هو قربها من البحر الأحمر ؛ فالنيل هنا ينعرج نحو الشرق ، ويصبح أقرب ما يكون إلى ذلك البحر . وقد سهلت الوديان هناك سبل المواصلات ، فاستغل الإنسان موارد الصحراء الشرقية المعدنية من جهة . كما وصل إلى البحر الأحمر ومد طريق التجارة البحرى إلى بلاد « بنت » فى جنوب ذلك البحر من جهة أخرى ؛ وكذلك اتصل الإقليم فى الغرب بالواحات الخارجة وما وراءها من دروب الصحراء ، وزاد ذلك فى النشاط

التجارى والثروة التجارية فى هذه المنطقة . من أجل هـذا كله امتازت ثنية قنا بثروتها فى الزراعة والصناعة والتجارة منـذ القدم واستطاعت أن تلعب دوراً خطيراً فى تاريخ مصر العام ؛ فهنا قامت عاصمتان من أهم العواصم القديمة فى طينة ثم طيبة . وفى الأولى نشأ أمراء الأسرتين الأولى والثانية ، ومنها بدأ نارمر (مينا) حملاته نحو الشمال لتوحيد الوجهين ؛ ثم فى طيبة (وما يجاورها) نشأت الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة . كما ظهر أمراء الأسرة الثامنة عشرة ومؤسسو الدولة الحديثة . وقد كان لموقع هذا الاقليم وبعده النسبى عن مصدر الغزوات من الشمال قيمتـه الخاصة ؛ فى عهود الغزوات التى أتت من الشمال الشرقى فى فترتى الإقطاع الأول والثانى أيام الفراعنة . تركز نشاط الأمراء المصريين فى هذا الاقليم البعيد الغنى بموارده ؛ وهنا نضج المجهود وأتى ثمرته فى الدولتين الوسطى والحديثة . وكان الفضل فى تجديد مجد مصر فى كلتا الحالتين لأمراء طيبة . وإن كانت العاصمة قد انتقلت بعد انقضاء الأزمة إلى مواطن أخرى فى شمال مصر .

(٤) إقليم مصر الوسطى (ويشمل جانبا مما نسميه مصر العليا) :

وهنا يتسع الوادى . ولا سيما فى أجزائه الشمالية ، حيث تمتد الأراضى الزراعية على جانبى النهر خصوصاً فى الغرب ؛ فهذا الاقليم غنى بأراضيه الزراعية الواسعة نسبيا . وإن لم يمتز بما يمتاز به إقليم ثنية قنا من حيث تنوع موارد الثروة . وكان يمثل إقليم توسع واستعمار للعناصر الآتية من الجنوب أحياناً (كما حدث فى العصر السابق لظهور الأسرات الفرعونيـة مباشرة) . ومن الشمال أحياناً أخرى (كما حدث فى بعض فترات عهد المماليك والأتراك) . وفضلا عن ذلك فقد كانت لهذا الاقليم . أو لأجزائه الشمالية على الأقل ، وظيفة أخرى فى تاريخنا القومى ؛ إذ كان بمثابة حلقة الاتصال بين الجنوب والشمال ؛ وعند طرفه الشمالى قامت عاصمة البلاد المتحدة فى منف التى أنشأها نارمر (مينا ، موحد الوجهين) حصنا يرتكز إليه فى فتح الدلتا وتوحيدها بالصعيد ؛ وعرف ذلك الحصن « بالحوائط البيضاء » أو « الحصن ذى الحوائط البيضاء » . لأن

هذا اللون كان يمثل شعار الصعيد (كما كان اللون الأحمر يمثل شعار الدلتا) . وكان الصعيد صاحب اليد العليا فى النضال العسكرى الذى أدى إلى إتمام وحدة البلاد . وبعد أن بقيت عاصمة البلاد فى طينة (موطن نارمر) فى قلب الصعيد مدة انتقلت نهائياً إلى منف فى عهد الأسرة الثالثة .

وقد بقى إقليم منف أصلح نقطة للربط بين الوجهين وإدارة البلاد ، وإن كان مركز الحكم ومقر الملك قد تنقل من مكان إلى آخر داخل هذا الاقليم ؛ ولم تنتقل العاصمة إلى قلب الصعيد (ثنية قنا) أو الدلتا إلا فى ظروف خاصة . ولضرورات طارئة ، سببها فى الغالب اتصال مصر واحتكاكها بالخارج ، وما تبع ذلك من غزوات أجنبية كانت تمهد السبيل لارتداد قاعدة الجهاد إلى إقليم طيبة ، أو من توسع من الجانب المصرى نحو بلاد الشرق (تنتقل من أجله قاعدة الإمبراطورية العسكرية إلى شرق الدلتا) . أو من ارتباط بين مصر وبلدان البحر المتوسط كان يحتم نقل العاصمة إلى الاسكندرية .

وتعتبر القاهرة الآن خليفة منف . ولكنها تقوم فى شرق النهر بدلا من غربه (كما كانت الحال فى منف) ، ولعل السر فى ذلك أن الذين أنشئوها كانوا من العرب القادمين من الشرق ، فلم يكن غريباً أن يختاروا الناحية الشرقية من الوادى موقعاً لعاصمتهم .

على أن القاهرة كمنف لم تقم عند تفرع رأس الدلتا تماماً ، وإنما قامت إلى الجنوب من ذلك ؛ ويرجع السبب الجغرافى فى ذلك إلى أن رأس الدلتا ظاهرة متغيرة مع تغير نقطة تفرع أذرع النيل . فكان من الصعب قيام مدينة ثابتة هناك ؛ فضلا عن أن وجود تلال المقطم جعل من الأصلح عسكريا أن تقام العاصمة فى هذه النقطة التى تتحكم فى مدخل الصعيد ، كما تشرف على جنوب الدلتا ، وتتصل فى الوقت نفسه بطرق الصحراء الآتية من الشرق والمؤدية اليه .

(٥) إقليم الفيوم :

وهو حوض يقع فى غرب الوادى ، خارجاً عنه ، وإن كان يرتبط به بفتحه اللاهون أو الهوارة ، حيث يمر بحر يوسف ليغذى الأراضى الزراعيه وبركة

قارون . وكانت لهـذا الإقليم أهمية ظاهرة فى تطور الحضارة المصرية فى العصر الحجرى الحديث ، عندما كانت جماعات الزراع والصيادين والرعاة تعيش على حافة بحيرة كانت أكثر اتساعا وأعلى منسوباً من بركة قارون الحالية . على أن هذا الإقليم قد استطاع خلال أعصر التاريخ أن يحتفظ بطابع خاص فى المدنية والحياة البشرية ، لا يزال يميزه حتى الآن ؛ ففيه يختلط رعاة الصحراء بالزراع ، وفيه يختلف مظهر الريف عن بقية بلاد القطر ، فتتدرج الحقول على هيئة مساطب ومدرجات ، ينحدر الواحد منها تلو الآخر نحو البحيرة التى تنخفض الآن ٤٥ متراً عن مستوى البحر . وقد اختلفت مشكلات الرى والزراعة هنا عنها فى الوادى والدلتا . وإن كان سكان الوادى وبعض العناصر الدخيلة قد اتخذوا من إقليم الفيوم فى بعض فترات التاريخ مجالا « للتوسع والاستعمار » ، كما حدث فى عهد البطالمة .

(٦) الدلتا :

وفيها تتسع الأراضى عن اليمين وعن الشمال ، وتتشعب أفرع النيل ، التى كانت فى الماضى أكثر عدداً منها الآن (راجع الخريطة). إذ بلغ عددها سبعة فى أيام الرومان . ثم إن الدلتا أوفر فى ثروتها وأكثر تنوعاً فى مواردها من الصعيد ؛ ففيها الأراضى الزراعية المتسعة ، والبرارى الصالحة للرعى ، والمستنقعات والمجارى المائية التى تكثر بها الأسماك وتعمر أحراجها الطيور . وكذلك كانت الدلتا سهلة الاتصال بالعالم الخارجي عن طريق البر شرقاً وغرباً . وعن طريق البحر شمالا ؛ فاتصلت حضارتها بالخارج ، وأضاف ذلك إلى تراثها المادى والثقافى . لذلك كله كان هذا الاقليم منذ عصر ما قبل التاريخ أكثر تقدماً من الصعيد ، وأغزر نعمة ، وأوسع أفقاً من ناحية المدنية والثقافة . على أنه كان فى الوقت نفسه أكثر تعرضاً للغزاة الذين طمعوا فيه ، واندفعوا نحوه من جهات كثيرة فيما وراء الصحراء ، وما وراء البحر ، ولا سيما فى فترات الضعف السياسى والاجتماعى فى مصر . ومع ذلك فإننا نلاحظ أنه على الرغم من أن تلك الغزوات أضافت إلى تنوع العناصر الجنسية بين سكان الدلتا ، فإن بيئة الاستقرار وطبيعة الحياة فى هذا

الاقليم المتسع كانتا من القوة والتركز بحيث ساعدتا دائماً على « هضم » الغزاة ومقاومة أثرهم على طريقة الإقليم الخاصة، التي تتمثل فى تقبل العناصر الدخيلة ثم صبغها بالصبغة المصرية قبل أن يمتد أثرها إلى بقية البلاد. وهكذا كان للدلتا وظروفها الجغرافية فضل كبير فى احتفاظ مصر بطابعها الحضارى، على الرغم مما انتابها من غزوات.

ولكن الدلتا كانت بطبيعتها أقل تماسكا ونظاماً، كما كان أهلها أقل عصبية من أهل الصعيد؛ ذلك أن أفرع النيل الكثيرة وأرض المستنقعات تقطع بين أجزائها فى الشرق والوسط والغرب وأقاصى الشمال؛ كما أن مجارى النهر هنا كانت كثيرة التغير والتحول من سنة إلى أخرى، نظراً لشدة استواء الأرض واتساعها، مما أدى إلى تغير الحدود باستمرار بين الأقاليم أو المقاطعات المتجاورة، وزاد فى الفوضى والاضطراب بين السكان. وقد نشأت فى الدلتا عدة عواصم قديمة، منها بوتو وسايس (صا الحجر) وتانيس (صان الحجر) وغيرها. بل لقد تمثل تفكك الدلتا من ناحية الإدارة والسياسة منذ فجر التاريخ، فاستطاع رجال الصعيد أن ينتزعوا لأنفسهم فخر توحيد البلاد، فتغلب نارمر (مينا) وجنوده على أمراء الدلتا، الذين كانوا فيما يظهر أكثر منه مالا وأعز نفراً، ولكنهم كانوا أضعف عصبية وأقل نظاماً وتماسكاً. وبذلك تم النصر فى النهاية لأهل الجنوب.

وقد لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إذا استخلصنا مما سبق قاعدة عامة (لا تخلو من شواذ بالطبع) تنطبق بصورة أوضح على مصر الفرعونية، وهى أن الدلتا كانت تمد مصر بالمال، على حين كان الصعيد يمدها بالرجال.

(٧) الأقاليم الصحراوية على جانبى النيل:

وتشمل (أ) الصحراء الشرقية (وشبه جزيرة سينا) (ب) الصحراء الغربية. وقد كان لهذه الصحارى أثر هام فى تاريخ مصر العام؛ ويطول الأمر إذا حاولنا أن نتوسع فى سرد الحقائق الجغرافية الخاصة بها، ولكننا نجتزئ

بما أوردناه من تأثيرها فى تطور الحضارة فى مصر فى عهود ماقبل التاريخ ، ثم فى العصر التاريخى . وقد كانت الصحارى فى العصر الحجرى القديم المسرح الأول للنشاط البشرى فى هذا الركن من إفريقية ؛ أما بعد انقضاء عصر المطر وحلول الجفاف فقد نزل السكان إلى الوادى ، واضطروا إلى الإقامة على ضفافه . ومع ذلك فهم لم يقطعوا صلتهم بالصحراء (وشبه جزيرة سينا) التى كانت مورد كثير من المعادن ، كما كانت تمثل الدرع التى اضطرت مصر إلى التمسك بها ، حرصاً على كيانها وضماناً لوقايتها شر الغزوات . وكذلك كانت الطرق التجارية تخترق الصحراوين ، شرقاً إلى البحر الأحمر وما وراءه ، وغرباً وجنوباً بغرب إلى شمال إفريقية وإلى المناطق السودانية . وقد جنت مصر من هذه التجارة ثمرة طيبة فى عهود مختلفة من تاريخها الطويل .

فالصحارى إذن كانت ولا تزال تكوّن جزءا خطيراً من الوطن المصرى . ولولا وجودها على جانبى النيل لتغير وجه التاريخ فى كثير من نواحيه .

الخلاصة :

إذا نحن حاولنا الآن أن نجمل القول عن البيئة والإنسان ، وعن علاقة الظروف الجغرافية بالحوادث التاريخية الأساسية فى مصر ، فإننا نجد أن هذه البلاد (وادى النيل الأدنى والأوسط ، بما فى ذلك السودان الشمالى) كانت تمثل وطناً غنياً . ومسرحاصالحاً لأن تثمر فيه جهود البشر فى إنشاء حضارة عريقة متصلة الحلقات استطاعت أن تغالب الدهر وأن تبقى على الزمن ، على الرغم مما أصابها من فترات ركود ، لاتزيد فى مجموعها على ربع التاريخ المصرى منذ بداية الأسرات (سنة ٣٣٠٠ ق.م)، ولا على خمسه (أو سدسه) إذا رجعنا به إلى بداية الحضارة الزراعية المستقرة على ضفاف النيل . ولم يكن هذا القدم والاستمرار نتيجة المصادفة أو الاتفاق ، وإنما هما قد ترتبا على توافر أسس جغرافية معينة . وعلى تضافر عناصر البيئة فى مصر تضافراً له أثره فى مختلف نواحى الحياة ؛ فالصحراء تحيط بالوادى من جنباته ، وتقيه كأنها الدروع ،

٣ — مصر فى عهد الأسرات

عبد المنعم أبو بكر

مصادر التاريخ المصرى القديم :

تمهيد : تنقسم هذه المصادر قسمين : أولهما وأوثقهما ماخلفه لنا المصريون القدماء من آثار عدة ، بينها قوائم[1] أراد بعض ملوك مصر أن يخلد عليها أسماء الملوك الذين سبقوه فى الحكم ، وهى :

(ا) قائمة حجر بالرمو ، وقد دونت عليها أسماء الملوك من عصر فجر التاريخ حتى عصر الأسرة الخامسة .

(ب) قائمة الكرنك ، وقد دونت عليها أسماء الملوك من الأسرة الأولى حتى الأسرة الثامنة عشرة ، وقد أخطأ كاتب هذه القائمة فى تقسيم الأسر وترتيب ملوكها .

(ح) قائمة أبيدوس ، وقد دونت عليها أسماء الملوك حتى الأسرة التاسعة عشرة ، وليس عليها أسماء ملوك الهكسوس والملوك الذين تولوا فى عهد ثورة إخناتون الدينية .

(ى) قائمة ورقة تورين البردية ، وقد دون عليها أسماء الملوك حتى الأسرة التاسعة عشرة ، وتمتاز بذكر مدد حكم الملوك بالسنة والشهر واليوم .

(ه) قائمة سقارة ، وقد كتبت على جدران مقبرة زيلاى ، أحد الأشراف المعاصرين للملك رمسيس الثانى ، وهى تخلو من أسماء ملوك عصرى الاضمحلال الأول والثانى .

أما المصدر الثانى فهو ماوصل إلينا من نبذ عديدة دونها مؤرخو الأغريق

---

(١) يقصد بتلك القوائم الألواح الحجرية التى دوّن عليها بعض الأسماء والحوادث التاريخية .

فى كتبهم التاريخية عن مصر . ويجب ألا ننسى أن مصر فى عصورها الأولى كانت مغلقة فى وجه الأجانب ، وأن أول من سمح للأجنبي بدخول مصر كان بسامتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين .

تبوأ هذا الملك عرش مصر بعد أن ساعده على ذلك ملك اليونان وأيده بجيشه ، فعرف بسامتيك أن عرشه وأسرته لن يتمكنا من البقاء فى مصر إلا بمساعدة الجند المرتزقة وعطف الشعب اليونانى عليه ، فسمح لهؤلاء الجند بالبقاء فى مصر ، وشجع اليونان على السفر إليها . فحضر إلى مصر نفر كبير من قادة الفكر فى اليونان ، فزار مصر هيكاتيوس دى ميليت حوالى عام ٥٢٠ ق . م ، ثم تبعه هيردوت حوالى عام ٤٣٠ ق . م . ونحن إذا اعتمدنا على هذين المصدرين ، فإنما نعتمد على مادونوه فى كتبهم من مشاهدات رأوها بأعينهم ووصفوها أدق وصف . ومانيتون الذى عاش فى حكم بطليموس الأول حوالى عام ٣٠٥ ق . م يعد أهم مؤرخ كتب عن مصر ، فألف كتاباً فى ثلاثة أجزاء ، خصص منها جزءاً للتاريخ ، وآخر للديانة ، والثالث للحياة الاجتماعية وملاحظاته الشخصية . ولكن يؤسفنا أنه لم يصل إلينا من كتاب مانيتون هذا إلا مانقله عنه بعض المؤرخين ، الذين عاشوا بعده بسنين عدة ، مثل يوزيفوس ويوليوس أفريكانوس وأيزيبيوس . وقسم مانيتون ملوك مصر إلى ثلاثين أسرة . وقد أخذنا بطريقته بعد أن وجدنا انطباق تقسيمه على ماعثرنا عليه من آثار لهذا العهد الطويل .

ثم كتب فى تاريخ مصر فى أوائل ظهور المسيحية ديودور واسترابون .

عصور التاريخ المصرى القديم

(١) عصر الأسرات الأولى ، ويشمل الأسرات الأولى والثانية : (من سنة ٣٣٠٠ إلى سنة ٢٧٧٨ ق . م) .

(٢) عصر الدولة القديمة ، ويشمل الأسرات الثالثة حتى آخر السادسة : (من سنة ٢٧٧٨ إلى سنة ٢٤٢٣ ق . م) .

(٣) عصر الاضمحلال الأول، ويشمل الأسرات السابعة حتى آخر العاشرة (من ٢٤٢٣ إلى ٢١٦٠ ق. م).

(٤) عصر الدولة الوسطى، ويشمل الأسرات الحادية عشرة إلى آخر الثالثة عشرة: (من ٢١٦٠ إلى ١٦٨٠ ق. م).

(٥) عصر الاضمحلال الثانى (الهكسوس)، ويشمل الأسرات الرابعة عشرة إلى آخر السادسة عشرة: (من ١٦٨٠ إلى ١٥٨٠).

(٦) عصر الدولة الحديثة، ويشمل الأسرات السابعة عشرة إلى آخر العشرين: (من ١٥٨٠ إلى ١١٠٠ ق. م).

(٧) عصر حكم كهنة أمون، ويشمل الأسرة الحادية والعشرين: (من ١١٠٠ إلى ٩٥٠ ق. م).

(٨) عصر حكم الليبيين. ويشمل الأسرات الثانية والعشرين إلى آخر الرابعة والعشرين: (من ٩٥٠ إلى ٧١٥ ق. م).

(٩) عصر حكم الإثيوبيين، ويشمل الأسرة الخامسة والعشرين: (من ٧١٥ إلى ٦٦٣ ق. م).

(١٠) العصر الصاوى، ويشمل الأسرة السادسة والعشرين: (من ٦٦٣ إلى ٥٢٥ ق. م).

(١١) عصر حكم الفرس، ويشمل الأسرات السابعة والعشرين إلى آخر الثلاثين: (من ٥٢٥ إلى ٣٣٢ ق. م).

(١٢) عصر حكم اليونان، وذلك بدخول الإسكندر عام ٣٣٢ ق. م.

(١٣) عصر البطالسة (من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٠ ق. م).

(١٤) العصر الرومانى (من سنة ٣٠ ق. م إلى دخول العرب سنة ٦٤١ م).

أولا — عصر الأسرتين الأولى والثانية

كنا نعتقد إلى عهد قريب أن مينا هو أول ملك حكم مصر ووحد أقاليمها؛ وبعد أن عثرنا على قائمة حجر بالرمو ظهر لنا خطأ اعتقادنا، إذ أن هذه

القائمة ذكرت أسماء لملوك حكموا قبل مينا . وبعد البحث الطويل ثبت أن مصر وحدت قبل عصر مينا ، وحدها ملوك ينتسبون إلى مقاطعة الصقر ، التى كانت مدينة دمنهور تعتبر عاصمة لها . أما عاصمة البلاد فكانت وقتئذ هليوپوليس ؛ ونؤرخ هذا التوحيد بعام ٤٢٤٠ ق . م . وبعد ذلك انقسمت مصر إلى وجهين : الوجه البحرى والوجه القبلى . وتقسيم مصر إلى وجهين أمر تحتمه طبيعتها . ولقد اعتز كل من الوجهين بتقاليده ، وحافظ على حضارته ، وساق هذا التعادل فى المدنية إلى تشابه كبير بينهما ، فالوجه البحرى كانت له عاصمتان : (بوتو) و (پى) ، والوجه القبلى كانت له أيضا عاصمتان : (نخبت) و (نخن) . وكان الإله الذى يحمى العاصمة فى دولة الشمال هو الحية « أوتو » على حين كانت « نخبيت » تحمى عاصمة دولة الجنوب . وكان حوريس مدينة دمنهور هو حامى دولة الشمال ، وحوريس مدينة إدفو حامى دولة الجنوب . وكان ملك الشمال يلبس تاجا أحمر ، ويلبس ملك الجنوب تاجا أبيض ؛ وعلم الشمال كان ممثلا فى نبات البردى ، واتخذ الجنوب نباتا آخر (لعله القش) كعلم له ، وهلم جرا .

لقد اقتطعنا عصر الأسرتين الأولى والثانية من الدولة القديمة ، وسميناه عصر الأسرات الأولى ، لا لأنه قليل الأهمية ، بل لأنه ذو طابع خاص ، ولأنه العصر الذى اشتد فيه النزاع بين الوجهين البحرى والقبلى ؛ ذلك إلى أنه العصر الذى كونت مصر فيه لنفسها أسس الحضارة الزاهرة التى تباهى بها كل أمم التاريخ القديم . والتوحيد الثانى لم يتم إلا بعد حروب طويلة رأينا آثارها منتشرة على كل ماعثرنا عليه من وثائق مكتوبة من هذا العصر .

وكان من أهم الأمور التى عنى بها كل من جلس على عروش مصر من ملوك هاتين الأسرتين ، هو توطيد الحكم ، وإخضاع الثائرين على نظام وحدة السلطة . وهناك دلائل عدة توضح لنا تماما كيف كانت سياسة الدولة جمعاء فى عصر هاتين الأسرتين متجهة هذا الاتجاه .

والنهر تجرى مياهه بانتظام ، وتفيض بالخير فى كل عام ، والتربة الزراعية دائمة الخصب ، تتجدد حتى فى فترات الجمود وعهود الإهمال ، والمناخ صالح للإنبات والنمو والإنتاج ، والثروة الزراعية غنية وفيرة بما لا يكاد يضارع فى بلاد غير مصر ، والاتصال النهرى سهل ميسور بين مختلف أجزاء الوادى ، ثم الموقع الجغرافى الفذ قد جعل من مصر مفرق البحرين وملتقى الأرضين . كل هـذه العوامل مجتمعة قد تضافرت ، وأكمل بعضها بعضاً فى هـذا الوطن الصالح ، الذى أخرج للناس أمة عريقة ، لا تكاد تضارعها فى قدم التاريخ واتصاله أمة من الأمم .

ثم إن هذا الوطن قد امتاز إجمالا بظاهرتين ، ترتبت عليهما ظاهرة ثالثة .

فأما الظاهرة الأولى فتتمثل فى أن ظروف هذا الوطن الجغرافية كانت تفرض على الناس « الوحدة » ، فأساس الحياة فى مصر واحد . ومصدرها واحد ، والفائدة التى يجنيها السكان من تنظيم شئون الرى والزراعة مشتركة ، كما أن الخطر الذى يتهددهم به الفيضان فى كل سنة مشترك . والواقع أن الطبيعة قضت بأن يكون وادى النيل الأدنى وطناً واحداً ، ترتبط فى داخله تلك الأوطان الصغيرة التى عرضنا لها ، ويتضامن سكانه فى الغاية والوسيلة وفى السراء والضراء . وقد تجلت عظمة ذلك الوطن فى الأوقات التى استجاب فيها السكان للبيئة ، فأخذوا بأسباب الوحدة فى الحياة والمدنية والفكر والثقافة ، على حين انحلت أوصاله وتضعضعت شئونه عند ما باعد الانسان بينه وبين مقتضيات بيئته ، فتنابذ الناس ، وتنافرت الأقاليم ، وضاعت المصلحة العامة ، وفسدت الأمور ، لأن البيئة فى مصر من ذلك النوع الذى يغلب الجماعات البشرية الصغيرة متفرقة . ولا يخضع لها إلا مجتمعة . ولعل هذه الظاهرة لا تزال ماثلة أمامنا فى التاريخ الحديث ، بل وفى حياتنا القومية فى الوقت الحاضر ، مثولها فى عصور التاريخ ، وفى الماضى البعيد .

وأما الظاهرة الثانية فهى « النظام » . إذ البيئة المصرية قد فرضت النظام على الناس منذ بدأ استقرارهم على ضفاف النيل ، فكان النظام ضروريا لتوحيد الجهود

وتنسيقها ، وضمان نجاح المجهود الإجماعي في إقامة الجسور وحراسة النيل ، وتكديس كومات التراب التي تقام عليها القرية المصرية فوق مستوى الفيضان ، وشق الترع والقنوات ، وغير ذلك من مرافق الحياة . ولقد كان شعب مصر بطبيعة بيئته شعباً نظامياً منذ البداية ، وكانت استجابته لدواعي الطاعة والنظام ، واستكانته للعرف والقانون ، سجية فطرته عليها الطبيعة . والحق أن مصر إنما اختل أمرها ، وضعف شأنها ، وعمتها الفوضى ، وسادها الإهمال ، عندما خرج الناس على النظام ، وعلى من بيده أمر الجماعة ومصالحها المشتركة . وإذا كانت هذه القاعدة مما ينطبق على غير مصر من الأمم القديمة والحديثة ، فإن انطباقها على الحالة في بلادنا كان أظهر وأشد وضوحاً .

وأما الظاهرة الثالثة والأخيرة فقد ترتبت على هاتين الظاهرتين ، واتصلت بعامل جغرافي آخر ، هو موقع مصر بالنسبة للعالم المجاور وغير المجاور ؛ فقد كان هذا الموقع مما يصح أن يكون خيراً لمصر أو وبالا عليها . ففي العصور التي استعصمت فيها البلاد بوحدتها واستمسكت بنظامها ، ازدهرت حضارتها وامتد نفوذها وسلطانها . وأفادت من موقعها الجغرافي دون أن تخشى طمع طامع أو عدوان معتد ؛ وفي العصور التي انحلت فيها الوحدة ، وعمت الفوضى ولم يستجب الناس لدواعي البيئة ودوافعها الظاهرة والخفية ، طمع في مصر الطامعون ، وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض حيناً ، ومن أقصاها حيناً آخر . وصارت مصر الضعيفة أداة يسخرها العالم ويستغل موقعها ، ويوجهها وجهات كثيرة ، قد غيرت عليها أكثر من مرة مظهر ثقافتها ، وإن لم تستطع أن تغير من أسس مدنيتها الأولى .

ملوك الأسرة الخامسة على عرش مصر ، حتى ضعفت هذه السلطة ، ووزعت الوظائف الكبيرة على أفراد من الشعب بعد أن كانت وقفاً على أعضاء البيت المالك . ثم أصبح لحكام الأقاليم شيء من النفوذ والسلطة المحلية مع بقائهم متصلين بالسلطة الرئيسية فى العاصمة .

وظهرت سياسة جديدة فى عصر هذه الأسرة فبدأت الحكومة تبدى عنايتها بالبلاد الواقعة وراء حدودها ، فأرسلت البعثات التجارية إلى سورية ، وبلاد الصومال ، ثم إلى السودان فيما وراء الشلال الثانى ، وذلك لتسد النقص الذى اشتد فى عصر الأسرة الرابعة من الناحية الاقتصادية .

أما من الناحية الدينية فتختلف الأسرة الرابعة عن الخامسة بأنها جعلت الإله (رع) معبود الدولة الأول بدلا من الإله (حوريس) ، وأصبح بذلك الملك ابن الإله رع ، وزالت عنه صفة الألوهية المطلقة ، كما كان الحال طوال عصر الأسرة الرابعة .

وملوك هذه الأسرة هم :

(١) أسركاف .
(٢) ساحورع .
(٣) نفرايركارع .
(٤) شبسس كارع .
(٥) نفران رع .
(٦) نى أومر رع .
(٧) من كاوحور .
(٨) ردكارع .
(٩) أوناس .

٤ — الأسرة السادسة :

لسنا ندرى الأسباب التى أدت إلى انقراض الأسرة الخامسة ، كما لا نعرف أتزوج أول ملوك الأسرة السادسة من بيت الأسرة الخامسة أم اغتصب الحكم لنفسه بالقوة ؟ وكل ما نعرفه هو أن الأسرة الجديدة بقيت فى « منفيس » .

ملوك الأسرة السادسة هم :

(١) تتى .
(٢) أسركارع .
(٣) بيپى الأول (مرى رع) .
(٤) مرن رع الأول .
(٥) بيپى الثانى .

كان عصر هذه الأسرة حافلا بحوادث خطيرة كادت تهدم كيان الأمة المصرية وتقودها إلى الخراب ، لولا يقظة الحكومة المصرية ، ووجود قواد بارعين فى أساليب الحرب أخلصوا وتعاونوا فى الدفاع عن حدودها، وصدوا ذلك التيار الجارف من القبائل المهاجرة التى تركت أوطانها وهامت على وجوهها لاهم لها إلا الغزو والحرب . واستطاع الملك بيى الأول أن يقضى على الغزاة ، وتمكنت مصر من أن تتقى شر هذه القبائل طوال عهد الأسرة السادسة .

مبدأ ظهور العصر الاقطاعى :

تحدثنا عن ضعف السلطة المركزية فى عصر الأسرة الخامسة ، وبينا كيف أن ملوك هذه الأسرة أغفلوا قليلا شئون السياسة وجعلوها تفلت من أيديهم ، وتتجمع فى أيدى رؤساء الأقاليم الذين انتهزوا فرصة اشتباك الأسرة السادسة فى حروبها الطويلة ، وأخذوا يعملون على جمع السلطة فى أيديهم ، بل تمادوا إلى أكثر من هذا ، فجعلوا مناصبهم وراثية ، ثم تركوا العاصمة وانتقلوا إلى ولاياتهم ، وأقاموا فيها لايبرحونها إلى العاصمة إلا إذا حتم عليهم ذلك . وعندما استتب لهم السلطان حاطوا أنفسهم بحرس خاص وموظفين ، وسموا أنفسهم : « أمراء الأقاليم العظام » بدلا من حكام الأقاليم . فاضطر ملوك الأسرة السادسة إلى أن يتوددوا إلى هؤلاء الحكام يضيفون أبناءهم فى القصور الملكية راغبين فى استمالتهم إلى سكنى العاصمة ، لينغمسوا فى ملاذها ويتمتعوا بنعيمها ، فيلهيهم ذلك عن التفكير فى الجاه والسلطان . ولكن خاب فألهم ، فما أن انقرضت الأسرة السادسة حتى استقل هؤلاء الحكام بأقاليمهم وناوءوا كل ملك اعتلى عرش مصر .

الحالة الفكرية فى الدولة القديمة :

يصعب علينا أن نشبه المصرى بالأغريقى من الناحية الفكرية ، فالمصرى لم يهتم بالعلوم من ناحيتها العالمية المحضة كما فعل الأغريقى بل من ناحيتها العملية وحدها .

ومن العلوم التى اهتم بها الفلك والحساب والهندسة والطب والكيمياء . ونخص الطب بالذكر وخصوصاً بعد أن ظهرت ورقة « أدون سمث » البردية التى

حضارة عصر الأسرات الأولى :

الفن : كانت مصر فى عصر فجر التاريخ يتشابه فنهـا مع فنون كل الأمم المجاورة لها ، ثم بدأت تفصل نفسها عن هذه الأمم فى العصر الذى سبق عصر الأسرات ، وكونت لها فنا ذا طابع خاص ، ومميزات خاصة لم تتغير حتى آخر عصور التاريخ المصرى القديم . ظهرت بوادر هذا الطابع على لوحى الملك نارمر (مينا) والملك (دجر) المحفوظين فى المتحف المصرى ، ثم على لوح الملك (زت) المحفوظ فى متحف اللوفر .

الديانة : ديانة المصريين القدماء هى أصعب الديانات القديمة دراسة ، إذ أن تنوع آلهتها وتشعب نظرياتها . يجعل من الصعب علينا أن نكون عنها فكرة كاملة متسلسلة ، كما نفعل مثلا عند دراسة الفن أو التاريخ القديم . ولكن يمكننا أن نقول إن كل ماوصل إلينا عن هذه الديانة قد وجدت أصوله فى عصر الأسرات الأولى . بل فى عصر فجر التاريخ .

الدولة القديمة

تبدأ الدولة القديمة بالأسرة الثالثة . وعنوان هذه الدولة الأهرام التى تمتد من ميدوم إلى دهشور، إلى سقارة ، ثم إلى أبى صير ، ثم إلى الجيزة وأبى رواش .

وإذا كان العصر الذى سبق الأسرة الثالثة عصر الانتقال من الاقطاع إلى الاتحاد ، ومن التفكك إلى الاندماج ، فإن هذا العصر عصر اتحاد كامل ، يحكم مصر ملك يدير دفتها وحده ، هو الإله ابن الإله (رع) .

وإذا وصفنا هـذا العصر بأنه عصر ذهبى ، فيجب أن نميزه عن العصور الذهبية الأخرى . فهذا العصر لم يكن كنتيجة لعوامل خارجية فقط مثل الفتح ، وتدفق الأموال من الجزية المفروضة على الشعوب المستعمرة ، أو كثرة الأسرى الذين يستخدمون لتقوية شأن مصر ؛ وإنما كان كذلك نتيجة لاتحاد مصر ونهوضها أمة واحدة ، لاتمييز فيها بين مصرى الشمال ومصرى الجنوب .

(١) عصر القوة

١ — الأسرة الثالثة :

ملوكها : هم زوسر ، وسانخت ، ونب كا ، وحونى .

ولا نعرف الكثير من أعمال زوسر الحربية ، ولكنا عثرنا على لوح تذكارى فى منطقة شبه جزيرة سينا ، نرى عليه الملك يعاقب قبائل البدو التى تسكن الصحراء الشرقية . وهناك لوح حجرى آخرهو لوح المجاعة ، كتب فى عصر متأخر ، يحدثنا عن مجاعة أصابت مصر فى عصر الملك زوسر ، وعن الجزية التى فرضها هذا الملك على بلاد النوبة الشمالية (التى خضعت وقتئذ لحكم مصر) قدرها عشر المحصول ، لتخفيف وطأة المجاعة .

أما الملوك الآخرون فلم تصل إلينا عنهم أخبار كثيرة .

وحضارة هذا العصر لم تظهر لنا جلية إلا بعد إزالة الرمال عن منطقة هرم زوسر المدرج بسقارة . إذ ظهرت لنا أبنية استعمل فى تشييدها فن كنا نعتقد إلى عهد قريب أن موطنه اليونان لا مصر. أقصد بذلك تلك العمد المضلعة المعروفة فى الفن اليونانى باسم Proto - doric . واعتقد بعض أن هذا التقدم فى فن العمارة فى عصر الأسرة الثالثة كان نتيجة لتقدم مستمر متسلسل ظهرت آثاره فى عصر الأسرة الأولى والثانية ، فاستعمل الملك (دن) والملك (خاسخموى) الحجر فى بناء مقبرتيهما بدلا من اللبن الذى كان يعتبر المادة الفذة لبناء مقابر ذلك العصر . ولو أن زوسر بدأ عصره ببناء هرمه المدرج لصحت هذه الفكرة ، غير أنه عند ما اعتلى عرش مصر نحا نحو أجداده ، وبنى مقبرة كبيرة من اللبن فى بيت خلاّف . وعلى ذلك أصبحنا نميل الآن إلى الاعتقاد بعدم وجود تقدم متسلسل ، بل إن الخطوة الجريئة التى خطاها زوسر كانت نتيجة لعبقرية فنان كبير ؛ هذا العبقرى هو إيمحوتب وزير زوسر ومهندسه وكبير أطبائه ، بل كان أيضاً المشرف على كل كبيرة وصغيرة فى شئون الدولة . واشتهر

ذا الرجل حتى تحدث بنبوغه كل مصرى عاش فى الأجيال المتأخرة ، وبلغ تدير المصريين له أن جعلوا منه إلهاً للطب والفن والصناعة .

٢ — الأسرة الرابعة :

ملوكها :

(١) سنفرو (٤) خفرع
(٢) خوفو (٥) منقرع
(٣) دوفرع (٦) شبسس كاف

اشتهر ملوك هذه الأسرة بأهرامهم الضخام ، وما يتبعها من معابد جنائزية ومعابد للوادى . وهذه الأبنية الشامخة العظيمة أكبر حجة على قوة الحكومة فى هذا العصر ، وعدم اشتغالها بأية حروب أو فتوح . ويمكننا التحدث عن عصر هذه الأسرة بأنه كان عصر هدوء تام ، لم تحدث فيه حوادث خارجية تستحق الذكر ؛ ولذا يحسن قصر الحديث على آثارها الخالدة ، حتى نتمكن من فهمها والوصول إلى المغزى الذى من أجله بنيت هذه الأهرام .

الهرم : فى أوائل عهد الأسرة الثالثة كان الملوك والمصريون أجمعون يبنون مقابرهم من اللبن . وقد عرفنا كيف أن زوسر كان أول ملك مصرى استخدم الحجر فى البناء ؛ وفى عصر الدولة القديمة بنيت المقابر من الحجر . ولقد اصطلحنا على تسمية مقابر هذا العصر « مساطب » للتشابه بينها وبين مساطب الفلاحين .

وتنقسم المسطبة إلى قسمين : أحدهما فى جوف الأرض ، وهو معد لدفن الميت ، والآخر فوق الأرض ، وهو معد لزيارة أقارب الميت . ومن المسطبة نشأت فكرة الهرم ؛ إذ أن هرم زوسر المدرج ليس إلا ست مساطب تعلو الواحدة الأخرى . ثم ظهر الهرم الحقيقى فى عصر الأسرة الرابعة .

لماذا بنى الهرم؟ اعتقد المصرى فى خلود الروح ، وأن الإنسان سيحيا حياة ثانية على الأرض ، من شروطها بقاء الجثة حافظة لعناصرها . ولذلك بنى المسطبة ووضع الجثة فى تابوت محكم وخبأهما فى أعماق الأرض ، ثم حلى جدران

المسطبة (أى الجزء الذى يعلو الأرض) بكل ما اعتقد أنه سيحتاج إليه فى حياته الثانية : فمن قوارب لعبور النيل ، إلى مناظر الزرع والحصاد ، ومناظر الصيد على اختلاف أنواعه ، إلى المناظر التى تظهر لنا مايجرى فى منزله من الطبخ وتربية الحيوانات المنزلية وغير ذلك ؛ وزود كل هذه المناظر بنصوص تفسرها حتى لا تحار الروح فى التعرف عليها . ثم خشى أيضا أن يتغلب الدهر على الجثة المحفوظة ، مما يجعل العطب يدب إليها ، فصور صاحب المسطبة فى مواقفه المتعددة ، ثم قطع عدة تماثيل من الحجر تمثله ، وأودعها مكانا خاصا نسميه « السرداب » .

أما الملوك فلم يبنوا لأنفسهم مساطب ، بل شيدوا الأهرام تحوى جثثهم . وبجانب كل هرم بنوا معبدين : الأول خاص بكبار الكهنة والبيت المالك ، وتقام فيه الشعائر الدينية ، وتقدم فيه القرابين للملك الراحل . ويسمى « المعبد الجنائزى » ، والثانى وهو ما نسميه بمعبد « الوادى » ، فيقام عادة عند سفح الهضبة ، وكان بمثابة مدخل كبير تصل إليه الوفود من كل جانب ، حتى إذا اجتمع شملهم صعدوا إلى « المعبد الجنائزى » مخترقين ممراً منحدراً طويلا يصل بين المعبدين .

٣ — الأسرة الخامسة :

تاريخ هذه الأسرة يظهر لنا مدى التطور الفكرى والاجتماعى الذى وصلت إليه مصر ، بعد تلك الخطوات السريعة التى قطعتها فى الحضارة منذ الأسرة الأولى حتى آخر الأسرة الرابعة . وهو تطور طبعى نراه ممثلا فى كل الأمم المتحضرة ، واقتضته فى مصر تلك النظم الاقتصادية التى اتبعتها السلطة المركزية فيها لعدة قرون . وكان من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تستمر هذه السلطة مع تعسفها هذا قائمة بكل الالتزامات المطلوبة منها ، دون أن تواجه المعضلة الاقتصادية التى تواجهها الآن كل الأمم الديكتاتورية ، وهى نقص موارد الدولة ، واستنفاد كل مجهود الأمة لتحقيق فكرة أو هدف واحد .

اشتهر عصر الأسرتين الثالثة والرابعة بأنه كان عصرا قبض فيه الملوك بيد من حديد على جميع موارد الأمة . وما هو إلا أن انقرضت الأسرة الرابعة وجلس

تحدثت بأسهاب عن التقسيم التشريحي لكل أعضاء الجسم ، ثم ذكرت الأمراض المختلفة ودواء كل داء ، وحذرت الطبيب أن يصف الدواء قبل أن يشخص الداء . وذكر لنا هيرودت أن الطب فى مصر كان متقدماً إلى درجة جعلت لكل نوع من الأمراض طبيباً خاصا به . وقد عثر الأستاذ «يونكر» فى حفائره بمنطقة الجيزة على مايثبت ذلك ، إذ وجد جثة سيدة ربطت إحدى أسنانها بسلك ذهبي بالسن المجاورة .

أما تفوق المصرى فى العلوم الرياضية فمعروف لاشك فيه ، وأهرامهم الضخمة ومعابدهم الكبيرة أكبر دليل على ذلك . أما النظم الاجتماعية والكمالات الخلقية التى كان يرنو إليها المصرى فقد خلدها لنا « بتاح حوتيب » الذى عاش فى عصر الأسرة الخامسة ، ودون نصائح يبين فيها للمصرى حقوق الحاكم والتزاماته ، ثم قواعد الحديث والعادات المتبعة فى الزيارة وواجب الابن نحو أبيه ، ثم الصداقة وأسسها .

وقد وصل إلينا من عصر الأسرة الخامسة والسادسة مجموعة من النصوص نطلق عليها اسم نصوص الأهرام ، لأنها نقشت على حجرات الدفن فى أهرام ملوك هاتين الأسرتين فى « سقارة » . وهذه النصوص تتحدث عن الشعائر الدينية التى كانت تقام عند الوفاة وفى أيام الأعياد ، ثم تحتوى زيادة على ذلك على آمال وتمنيات الميت فى الخلود ، وتشير أيضا إلى بعض العادات والنظم الاجتماعية ؛ فهى تعد لذلك مجموعة تاريخية سجلت تطور المصرى فى حياته الاجتماعية وعقائده الدينية فى عصر الدولة القديمة .

(٢) عصر الاضمحلال الأول

عاش « بيبى الثانى » قرناً كاملا وحكم البلاد ٩٤ سنة ، فانتهز أمراء الأقاليم ضعفه لشيخوخته ، وتمادوا فى بسط سلطانهم ، وأصبحت مصر مجزأة إلى إمارات صغيرة مستقلة . وبعد موت هذا الملك اعتلى عرش مصر ملوك لانعرف عنهم شيئاً إلا أسماءهم ، فورد ذكر « مرنرع » و « نتوكريس » . ثم ذكر « مانيتون »

سبعين ملكا كل منهم حكم يوماً واحداً ، وأطلق عليهم ملوك الأسرة السابعة . وإذا صح هذا فإن ملوك هذه الأسرة لم يكونوا إلا كبار رجال الأمة المصرية ، أقاموا من أنفسهم مجلساً نشبهه بمجلس الوصاية على العرش فى زماننا هذا ، حكم كل منهم يوماً واحداً حتى تستتب الأمور وينتخب الملك على مصر .

وعرف « مانيتون » أيضاً ملوك الأسرة الثامنة ، وقال إن عددهم كان ١٨ ملكا حكموا ١٤٦ سنة . لكن قائمة (ورقة تورين) ذكرت « سبعة أسماء » لملوك حكم كل منهم سنة واحدة . أما قائمة (أبيدوس) فقد أتبعت ملوك الأسرة السادسة بسبعة عشر اسماً لملوك نرى تشابهاً كبيراً بين أسمائهم وأسماء ملوك الأسرة السادسة .

فى عصر الأسرة الثامنة وجد حكام أهناسيا (غرب مدينة بنى سويف الحالية) الفرصة سانحة لبسط نفوذهم على ماجاورهم من المقاطعات آملين إسقاط ملوك الأسرة الثامنة ، علهم يتقلدون هم شئون الحكم فى البلاد . وانتهى الكفاح بينهم بأن حكموا النصف الجنوبى من مصر فى نفس الوقت الذى كان فيه بعض ملوك الأسرة الثامنة يتقلدون مهام الحكم الوهمى فى « منفيس » .

وملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة كانوا من بيت حكام « أهناسيا » ، ولا نعرف من أسمائهم سوى ثلاثة ملوك يحملون اسم خيتى ، ورابع يحمل اسم « مرى كارع » . ويظن أنهم توصلوا إلى حكم البلاد ، إذ عثرنا على لوح تذكارى للملك «خيتى» فى جنوب مصر ، ولكن هذا الحكم لم يدم لهم طويلا ، إذ انفصلت عنهم المقاطعات بجوار طيبة ، وانضوت تحت لواء حكام طيبة الذين قاموا بحركة واسعة النطاق ، مناوئين حكم أسرة (أهناسيا) وكونوا أسرة حكمت الجنوب بأجمعه ، وهى الأسرة (الحادية عشرة) . ولذلك يمكننا أن نقول : إنه كما كانت الأسرتان الثامنة والتاسعة تشتركان فى الحكم ، اشتركت أيضاً العاشرة والحادية عشرة فى الحكم .

الحالة الاجتماعية فى مصر فى أثناء عصر الاضمحلال الأول :

كان هذا العصر عصر ثورات داخلية أتى على وصفه رجل اسمه «إيبو - فر». وقراءة فقرات مما كتبه هذا الرجل كافية لإعطائنا فكرة عن حالة مصر فى ذلك العصر .

« لقد انقلبت الحالة فى مصر رأساً على عقب . حقا أن النيل لا يزال يجرى ويأتى بفيضانه ، ولكن لا يقدم أى مصرى على حرث أرضه ، بل يقول كل منهم نحن لا ندرى ماذا حدث بمصر ؛ لقد وقعت مصر فى الهاوية ، وعم الحزن البلاد وانتشر العويل . وبينما كان الأغنياء يولولون نرى الفقراء قد عمهم الفرح ، ورجالات كل مدينة يقولون : لننقض على رجال السلطة المحلية الآن . ولهم الحق فى ذلك ، إذ أن الذهب والفضة تكاثرا حول أعناق الخادمات « العبيد »، على حين كان نساء البيوتات يهمن على وجوههن ، ويقلن لم يبق لنا كسرة نأكلها . انظروا ! لقد فسد النظام ، وأصبح الناس كالماشية دون راع لها ؛ الأسيويون قد انتشروا فى البلاد ، وأتى الأجانب إلى مصر أفواجاً ، وأصبح كل مصرى له ضمير يسير والحزن يملؤه ، لما يحدث فى البلاد ، إذ أن الأجنبى أصبح الآن هو ابن البلاد . حقاً أن الناس قليلون على الأرض ؛ ولكن فى مصر أصبح الأخ يقتل أخاه ، والجميع ينادون : ليتنا كنا أمواتاً ، والأطفال يقولون ياليت أمهاتنا لم تلدنا » .

هذه الثورة لم تؤثر فى الحالة الاجتماعية وحدها فى مصر ، بل تعدتها إلى الحالة الدينية ، إذ أصبح المصرى يرى مُثُله العليا تصاب أمام ناظريه بكل أذى ، ويلحقها الدمار بطرق وحشية ، فالملك أصبح ألعوبة فى أيدى حكام الأقاليم ، وصار أشبه بالسجين فى قصره ، وأكثر من هذا رأى المصرى حياته الثانية قد ضاع الأمل فيها ، تلك الحياة التى كان يحيا على الأرض من أجلها ، يعمل ويكد ويجمع المال ، ويعلو بنفسه لكى يسهل لنفسه السبل التى تحفظ الحق له فيها ، وتمكنه من حياة خالدة هانئة . رأى المقابر تسرق والتماثيل تهشم ، والمناظر والنقوش

نمحى ، ورأى أكثر من ذلك أن الجانى لايعاقب ، فتساءل المصريون أولا عن معنى الحياة ، وثانياً عن أهمية معتقداتهم الدينية . ولأول مرة فى تاريخ مصر صادفنا مثل هذه الأسئلة ، فانقسم المصريون فى معتقداتهم قسمين : الأول يفضل المرح والسرور ، ويسعى جهد طاقته أن يقنع بما هو فيه ، يحتقر الدنيا الثانية ولا يثق بها ؛ أما القسم الثانى فكانوا من الرجال الذين عرفوا الحياة وشعروا بالأزمة ، ولكنهم لم يفقدوا الأمل ، وبقوا على اعتقادهم فى الدنيا الثانية ، ومنوا أنفسهم بالسعادة فيها ، وعرفوا أنهم لاينالون هذه السعادة بما يضعونه فى مقابرهم من أثاث فاخر ومآكل متنوعة ، بل بما صنعوا فى الحياة : فمن عمل صالحاً عاش حياة كلها متعة ، ومن كان مجرماً ضيعت عليه آثامه التمتع فى الحياة الثانية . وأحسن مثل لذلك ماقاله « مرى كارع » من الأسرة العاشرة محذراً الناس : « لا تطمئن على حياتك الطويلة على الأرض ، فإن قضاة محكمة العدل سينظرون إلى سنى حياتك كما لو كانت ساعة واحدة . الإنسان سيبقى بعد موته ، وستبقى أعماله بجانبه ، سنحيا حياة الخلود فى الدنيا الثانية ، وأحمق كل من لايعتقد فى دنيا الخلود . ومن يقدم أمامه (أوزوريس) وقد خلا من السيئات ، أبقاه وجعله يسير كالآلهة بحرية » .

وبذلك نمت وترعرعت فى هذا العصر عقيدة « أوزوريس » إله الموتى ، وملك الدنيا الثانية ، ورئيس المحكمة التى تزن حسنات وسيئات كل ميت .

ثالثاً — الدولة الوسطى : الأسرات ١١ — ١٤

١ — الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

الأسرة الحادية عشرة : نشأت هذه الأسرة فى طيبة ، وتبادل الحكم أفراد أسرة (أنتف ومنتوحوتب) . وكانت مصر فى أوائل عصر هذه الأسرة منقسمة ثلاثة أقسام : الدلتا ، وكان يحكمها أجانب جاءوا إلى مصر من آسيا ؛ ومصر الوسطى حتى أسيوط : يحكمها أفراد أسرة (خيتى) ملوك الأسرة العاشرة ؛ ثم

الجنوب من أسيوط إلى أسوان ، ويحكمه أفراد أسرة (أنتف) .

وقد خلد لنا بعض الآثار الكفاحَ الطويل الذى قام بين حكام « طيبة » وحكام « إهناسية » . ودلتنا هذه الآثار على أن الحرب بقيت سجالا بين الطرفين طوال حكم أربعة من حكام « طيبة » اسمهم « أنتف » ، وستة اسمهم « منتوحوتب » ، تمكن الثانى منهم أن يسجل لنفسه النصر ، وأخضع الشمال ، وأرجع مصر إلى وحدتها ، وجعل منها أمة واحدة .

الأسرة الثانية عشرة : قدر لمصر مرة ثانية أن تستعيد مجدها ، وأن ترى عصراً ذهبياً خلال حكم هذه الأسرة وقد سبق أن ذكرنا كيف أن حكام طيبة «ملوك الأسرة الحادية عشرة» تمكنوا من توحيد مصر بعد أن هزموا حكام «إهناسية». ولما كتب لهم النصر، رجعوا إلى سياستهم القديمة من البطش بحكام الأقاليم الذين ناوءوهم . ولكن هذا لم يحدث إلا بمساعدة بعض الحكام الآخرين الذين أملوا فى رضاء الملك إذا ماتم له النصر ، وسارملوك الأسرة الثانية عشرة على ذلك المنوال ، وبدءوا حكمهم بالإيقاع بين الحكام ، والاستعانة ببعضهم على بعض . وإذا كان لملوك الأسرة الثانية عشرة أن يتغنوا بنصرهم وإعادة الاتحاد بين أقاليم مصر ، فإنهم اضطروا فى نفس الوقت إلى ترك بعض السلطة للحكام الذين ساعدوهم على نيل هذا النصر . وعلى ذلك فالسلطة المطلقة التى تمتع بها ملوك الدولة القديمة ، لم تكن لملوك الدولة الوسطى ، ولكن هذا لايمنع أن يكون العصر الذهبي المتوسط قد بلغ فى أهميته وتقدمه مابلغه عصر الدولة القديمة الذهبي ؛ فالحرب الطويلة والاضطرابات التى شملت مصر طوال عصر الاضمحلال الأول ، والمحنة التى شعر بها كل مصرى، ساعدت على نضج العقل المصرى على وجه الإطلاق . وبينما كانت العاصمة والملك فى عصر الدولة القديمة هما موضع السلطة ، ومنهما وحدهما تستمد مصر بأجمعها قوتها ونشاطها وتقدمها فى سبيل المدنية ، إذ قامت إلى جانب العاصمة مراكز أخرى تهتم بمظاهر الحضارة ، وتعمل على ترقيتها وتنميتها — هذه المراكز هى قصور حكام الأقاليم .

الأُسرة الثانية عشرة :

صادف أمنمحات الأول عقبات كثيرة فى أول حكمه، أقامها أمراء الأقاليم الذين ودوا الاستمرار فى استقلالهم ، والانفراد بالحكم فى إقطاعاتهم ، فعمل الملك على التفرقة بينهم ، واعترف بحكم من والاه منهم . بعد ذلك أسس عاصمة جديدة لأسرته فى نقطة تتوسط مصر ، سماها « إيثت تاوى» . ولما استتب له حكم مصر اتجه بفتوحاته إلى بلاد النوبة ، فأخضعها وتوغل فيها حتى كورسكو، ثم استغل مناجم سينا ووادى الحمامات .

سن هذا الملك سنة جديدة فى حكم البلاد ، إذ أشرك ابنه الأكبر فى إدارة شئون الدولة مدة حياته ، وهذه السنة الجديدة سار عليها كل ملوك الأسرة الثانية عشرة تقريباً . ومن الغريب أن هذا الملك الفذ القدير قد قوبل فى أواخر حياته بنكران الجميل ، فدبر بعض أفراد حاشيته مؤامرة لاغتياله ، ولكنه نجا منها .

وتقلد سنوسرت الأول الحكم بعد موت أبيه ، وذهب فى أول حكمه بجيوشه إلى بلاد الكوش فيما وراء الشلال الثانى ، وكانت هذه أول مرة يرافق فيها ملك مصرى حملة حربية . وبعد تغلبه على هذه البلاد ترك حاكما هناك ، وجعل مقره قلعة بناها فى بلدة تسمى (قمة) ؛ ثم اتجهت أنظاره بعد ذلك إلى الواحات، فنظمها ، وبدأ فى استغلالها ، وعين حكاماً عليها لكى يدافعوا عن حدود مصر الغربية ، وشملت هذه العناية أيضاً بلاد الفيوم .

وقد تمتعت مصر طوال حكم أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى بالرخاء والرفاهية ، فاستغلت مناجم سينا ، واستؤنفت العلاقات التجارية مع بلاد « بنت » حتى ألف أهلها رؤية المصريين ، فأخذ هؤلاء يذكرون تلك البلاد فى قصصهم ، ومن أطرفها قصة (الملاح الغريق)، التى تصف مالاقاه ملاح مصرى من مشاق وصعاب فى سبيل وصوله إلى بلاد « بنت » .

ويظهر أن سنوسرت الثالث هو الملك الوحيد الذى لم تسنح له الفرصة بالتدرب على شئون الحكم فى عصر أبيه . ومع هذا تمكن من أن يحكم مصر

أن حكمت ٢١ سنة ، وتعد من أعظم الملكات اللواتى يعرفهن التاريخ . ومما يؤسف له أن تحتمس الثالث قد خرب أكثر آثارها انتقاما منها لنفسه .

لم يكد تحتمس الثالث يتخلص من حتشبسوت حتى قام بتنفيذ آماله الواسعة التى انتهت بتدعيم أسس الإمبراطورية المصرية الأولى ، التى امتدت من الفرات شمالا إلى الشلال الرابع جنوبا . وقام بسلسلة من الغزوات بلغت سبع عشرة غزوة ، إلى البلاد السورية . ويلقب كبار المؤرخين تحتمس الثالث بنابليون مصر القديمة . والواقع أنه لم يكن بطلا حربيا فحسب ، بل كان مع ذلك إداريا حازما ، ومنظما عظيما ، ومشيدا لأفخم المبانى . وكان عهده ممتازا فى تاريخ مصر ، بل قل فى تاريخ الشرق الأدنى بأجمعه ؛ فهو أول فرعون تطاحنت معه الممالك العظيمة المختلفة ، التى تألف منها العالم القديم إذ ذاك ؛ وبدأت هذه الممالك تخرج عن حدودها ، ويختلط بعضها ببعض ، وتتبادل المنافع فيما بينها فى كل مرافق الحياة . يضاف إلى كل هذا أنه سن سنة جديدة فى استمالة الشعوب المستعمرة ، بأن أخذ أولاد أمرائها وحكامها وأدخلهم فى مدارس طيبة ، ليتعلموا الحضارة المصرية ، حتى إذا شبوا خلفوا آباءهم فى حكم هذه الشعوب . وقدساعد تحتمس الثالث بذلك على نشر لواء الحضارة المصرية فى ربوع تلك البلاد .

يمكننا أن نفهم مما سبق مقدار سلطان تحتمس الثالث وبطشه فى البلاد التى سيطر عليها فى خارج مصر . ولما توفى انبعث فى قلوب الأمراء الأجانب شيء من الراحة والأمل ، وتطلعوا إلى التخلص من الحكم المصرى ؛ ولكن أمنحوتب الثانى برهن أمام هؤلاء على أنه ابن تحتمس الثالث ، فإنه لم تمض بضعة أشهر على توليه عرش مصر حتى ظهر بجيوشه فى آسيا ، وثبت السيادة المصرية هناك . ويظهر أنه لم يعد بجيوشه مرة أخرى إلى ممتلكاته الشمالية ، إذ كان الدرس الذى علمهم إياه نافعا ، وأصبح فى مقدوره أن يخصص ما بقى من حكمه فى تنظيم أحوال بلاده الداخلية والعناية بشئون مستعمراته فى بلاد النوبة .

من المحتمل أن تحتمس الرابع لم يكن الوارث الحقيقى للعرش ؛ ويظهر أنه تولاه عن طريق وحى إلهى ، وساعده على ذلك الكهنة الذين دونوا على لوح

حجرى كبير لا يزال مقاما عند صدر أبى الهول ، أنه لما انتهى من الصيد فى يوم ما (وكان لا يزال أميراً) أخذته غفوة فى ظل تمثال أبى الهول العظيم ، فأتاه هذا فى الحلم ، وبشره باعتلاء العرش إذا ما قام بإزالة الرمال عنه ؛ فنفذ تحتمس إرادة المعبود بعد اعتلائه العرش . وكان تحتمس الرابع أول فرعون أقام سياسة المعاهدات والتحالف ، فعقد معاهدة صداقة مع بلاد الميتانى ضد دولة الحيثيين التى كانت تزداد قوة وتهدد حدود المستعمرات المصرية . ويمتاز عصر هذا الملك بابتداء التزاوج بين ملوك مصر والأميرات الأجنبيات ، فتزوج هو من (موت . أم . أويا) ابنة (ارتاتاما) ملك ميتانى وأنجب منها ابنه أمنوفيس الثالث الذى خلفه على العرش . وبعد أن وطد علاقته مع ملك ميتانى شرع فى الاتفاق مع ملك بابل وأفلح فى ذلك أيضاً .

أمنحوتب الثالث : وكانت سياسة هذا الملك تقوم على السلم ونشر التجارة والاعتناء بالأمور الاقتصادية . ولكى ينظم التبادل التجارى بين مصر والأمم الأخرى كون فرقاً خاصة تحافظ على الطرق التجارية وتحرسها ، ثم وضع ضرائب على البضائع الواردة إلى مصر ، فزاد فى إيرادات الحكومة ، وحافظ على الصناعات الوطنية من منافسة البضائع الأجنبية .

وفى عهد أمنحوتب الثالث تسابقت الأمم فى اكتساب محبة مصر ؛ ويعتبر هذا أول مظهر سياسى دولى عام فى تاريخ الممالك القديمة ، وصار قصر فرعون مركزا للتخاطب مع كبار حكام هذا العصر ، والدليل على ذلك « خطابات تل العمارنة » التى تبودلت بين حكام الأمم المجاورة وفرعون مصر

وقد ساعد استتباب الأمن فى مصر والبلاد الخاضعة لها على تكديس الأموال فى خزائن الدولة ، واستغلال هذه الأموال فى ترقية شئون الشعب المصرى ، وتشجيع الفنون المختلفة وبخاصة العمارة والزخرفة . وإن مبانيه التى خلفها لنا فى معبد الأقصر لأكبر دليل على ذلك . وقد وصل هذا المعبد بمعبد الكرنك بطريق فسيح أقيمت على جانبيه تماثيل حجرية ضخمة ، تمثل الإله « خنوم » (على صورة الكبش) . ومن آثاره الضخمة « تمثالا ممنون »

حكماً عادلا ، مظهراً من الحنكة والقدرة ما لم يظهره أى ملك من ملوك هـذه الأسرة . وكان أول همه ضم بلاد السودان نهائياً إلى مصر ، فحفر ترعة توصل إلى مابعد الشلال الأول ، ليسهل عليه نقل الجيوش اللازمة لفتح هذه المنطقة ؛ وبعد أن تم له هذا الفتح ، أقام لوحا حجريا عند أقصى الحدود الجنوبية ، فيما وراء الشلال الثالث ، مبيناً حد المملكة المصرية ، مهدداً كل زنجى يريد أن يتعداهما بالقتل ، سواء أكان مسافراً على الأرض أو على النهر ، بمفرده أو مع قطعانه ، مستثنياً كل رجل ينوى التجارة فى أرض مصر أو يحمل رسالة إليها ، وأمر رجاله أن يعاملوه بالحسنى . واعتاد هـــذا الملك أن يقود حملاته التى قام بها فى بلاد السودان بنفسه ، ويعد فى نظر ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفاتح الحقيقى والمستعمر الوحيـد لبلاد النوبة ، فجعلوا منه إلهاً محلياً لهذه البلاد وعُبد هناك . ولم تعق هذه الحروب فى بلاد النوبة « سنوسرت الثالث » عن الاهتمام بسورية فأرسل بعض الحملات إليها . وكما انتصر هذا الملك فى حروبه وفق أيضاً فى نضاله مع أمراء الأقاليم ، واستطاع التغلب عليهم ، وقضى على ما كان لهم من نفوذ.

ويعتبر عصر أمنمحات الثالث عصر سلام ورخاء ، فقد اهتم بموارد مصر الطبيعية ، وحاول جهـده أن ينميها ويوسـعها . وكان من الطبعى أن يوجه كل عنايته إلى شئون الرى ، واشتهر اسمه بعمله العظيم فى منطقة الفيوم ، وحسر المياه عن منطقة تبلغ فى اتساعها ما يقرب من عشرين ألف فدان ، ببناء سد ضخم بلغ طوله أربعين كيلو مترا . وفى الجهة الشمالية من هذا السد شيد قصراً عظيما تبلغ مساحته ٢٥٠ × ٣٠٠ متر ، جعل منه مسكناً ومعبداً ومقراً لحكومته . وكان بهذا القصر اثنتا عشرة ردهة وثلاثة آلاف حجرة ، خصص بعضها لحكام الأقاليم ، الذين يفدون كل سـنة لتقديم الأموال المطلوبة منهـم لخزانة الملك . وقد شاهد هذا القصر (استرابون) حوالى عام ٢٤ ق . م ، ورأى فيه أعجوبة من أعاجيب مصر ، واستحق اسم « اللابرنت » قصر التيه ، لأن الزائرين كانوا إذا مادخلوه صعب عليهم الخروج منه (وتاهوا) فى ردهاته وحجراته المتعددة .

وقد ورث أمنمحات الرابع أمة غنية وكنوزاً لاعداد لها وشعباً يحب السلام ،

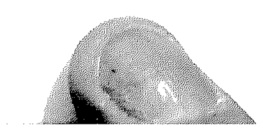
فلم يقابله من الصعوبات ما يشحذ عزيمته، فتهاون وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، فضعف شأنه . ولما مات هذا الملك دون أن يترك ولى عهد ورثته « سبك نفرورع » ، فضعفت الملكية ضعفاً أدى إلى انتهاء العصر الذهبي للأسرة الثانية عشرة الذى دام مايقرب من قرنين .

أسباب سقوط الأسرة الثانية عشرة :

تختلف الأسباب التي دعت إلى اضمحلال الدولة الوسطى عن تلك التى أدت إلى سقوط الدولة القديمة . لقد عرفنا كيف انتزع حكام الأقاليم فى عصر الأسرة السادسة السلطة من ملوك مصر . واستقلوا تدريجياً بالسلطة المحلية ، وأصبحوا يتصلون بالملك فى عاصمته بخيوط وهمية لا تتعدى العلاقات الرسمية بين مليك البلاد وملوك آخرين كل منهم استقل بمقاطعته .

لم يظهر هذا الخطر فى عصر الدولة الوسطى، وخصوصاً بعد أن تمكن الملك (سنوسرت الثالث) من القضاء على هذه الفئة قضاء تاما ، وإنما أتى الخطر من ناحية أخرى ؛ فقد اعتمد ملوك الأسرة الثانية عشرة على الموظفين الذين عينوا لمنافسة حكام الأقاليم فى سلطتهم ، ونجحت هذه السياسة ، وقضى هؤلاء الموظفون على كل ما كان من سلطة لحكام الأقاليم . ومن ناحية أخرى اعتمد الملوك فى حكمهم على الجيوش القائمة ، وكانت هذه الجيوش غير معروفة من قبل ، وكان الملوك كلما دعت الحال (كحدوث غارة على مصر أو إرسال بعث إلى الحدود أو إلى الخارج) يجمعون الناس ويدربونهم بسرعة على النظام، ويكوِّنون منهم فرقاً لاتلبث أن تسرح إذا ما انتهوا من المهمة التى جمعوا من أجلها .

فعصر الدولة الوسطى إذن هو أول عصر بقيت فيه فرق الجيش قائمة فى أيام السلم . والسبب الذى حدا بالملوك إلى ذلك هو النزاع الدائم بينهم وبين حكام الأقاليم ، واعتماد هؤلاء على فرقهم الخاصة ، وتفننهم فى تدريبهم والعناية بهم . وبذلك تكوَّن فى مصر فى أواخر عصر الأسرة الثانية عشرة حزبان كبيران لهما خطرهما : حزب الموظفين ، وحزب الجيش ؛ وعند ما اعتلى عرش مصر



« امنمحات الرابع » و « سبك نفرورع » ، وكان كلاهما ضعيفا لم يعرف كيف يسيطر على كل من الحزبين . أو يمنع تصادم هاتين القوتين ، سقطت الأسرة الثانية عشرة .

ويظهر أن ملوك الأسرة الثالثة عشرة كانوا من هاتين الفئتين ، كل فئة تناضل قدر جهدها ، ليكون ملك مصر من بينها ، حتى إذا نجحت تصدت لها الفئة الأخرى ، وناوأت الملك حتى تسقطه وتعين ملكا آخر من بينها . وهذا هو السبب فى تعدد ملوك الأسرة الثالثة عشرة (حتى بلغ عددهم ستين ملكا) ، وفى اختلاف أسمائهم ، بل وفى ظهور لقب جديد (رئيس الجيش) أضافه بعض ملوك هذه الأسرة على ألقابه الملكية .

ومن العبث حقاً سرد أسماء ملوك هذه الأسرة ، فهم على كثرتهم لم يخلدوا فى تاريخ مصر أى أثر ، ولم يساهموا مطلقاً فى رقيها ؛ بل بالعكس أسدلوا ستاراً كثيفاً من الظلام على عصرهم ، وسهلوا للأعداء أن يجدوا فى مصر لقمة سائغة ، فدخلها الهكسوس ، وأقاموا دولة عمرت فيها أكثر من قرن ونصف .

(٣) عصر الاضمحلال الثانى وقيام دولة الهكسوس

الهكسوس :

بعد أن انحلت الأسرة الثالثة عشرة واختفت أحزابها المتنازعة ، انقسمت مصر ثلاثة أقسام : قسم حكمه ملوك اصطلحنا على تسميتهم « ملوك الأسرة الرابعة عشرة » ، استقلوا بغرب الدلتا مع جزء من وسطها ، وذكرت لهم ورقة تورينو مايقرب من واحد وعشرين اسماً . وقد هاجم مصر فى عصرهم الهكسوس وأقاموا دولتهم التى امتدت على شرق الدلتا ، ثم على مصر الوسطى حتى أسيوط . أما مصر العليا فكانت تحت إمرة حكام مدينة «طيبة» ، الذين يرجع إليهم الفضل فى طرد الهكسوس وتأسيس الدولة الحديثة ، كما سنرى فيما بعد .

ودولة الهكسوس تشمل الأسرات : الخامسة عشرة ، والسادسة عشرة ، ثم السابعة عشرة فى الشمال . أما فى الجنوب فتكونت أسرة من حكام طيبه نطلق عليها أيضاً الأسرة السابعة عشرة .

ولانزاع فى أن الهكسوس من أصل سامىّ ، أو قل إنهم من البدو الذين سكنوا فلسطين ؛ ويظهر من أسمائهم التى وصلت إلينا مثل يعقوب ، وعبد ، ونحمن ، أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى العبرانيين .

لقد اختلفت الآراء فى تاريخ الهكسوس فى مصر، ويحدثنا (مانيتون) عن هذا العصر محددا له ٩٢٩ سنة . ومما لانزاع فيه أنه قد غالى فى تقدير مدة هذا العصر كل المغالاة ، واتفق العلماء أخيراً على أن الهكسوس دخلوا مصر عام ١٧١٠ ق . م . وأسسوا عاصمتهم أواريس (صان الحجر) وأقاموا فيها معبداً للإله (ست) عام ١٦٨٠ ق . م ، ثم طردوا نهائياً من مصر عام ١٥٨٠ ق . م ، وبذلك يكونون قد مكثوا فى مصر مايقرب من قرن ونصف .

آثار الهكسوس فى مصر :

بلغت الأسماء التى وردت على آثار خلفها لنا ملوك الهكسوس فى مصر ٢٣ اسماً ؛ ومما يؤسف له أن هذه الأسماء وردت متفرقة ، بحيث يصعب ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وكيف يمكننا ذلك وأهم هذه الآثار ليست إلا جعارين حاول بعض الأثريين ترتيبها ترتيباً تاريخياً ، ولكنه أخفق فى ذلك كل الإخفاق ؟ وأهم الملوك الذين تركوا لنا آثاراً من هذا العصر، هو الملك «خيان» الذى خلف آثاراً لم نعثر عليها فى مصر وحدها ، بل فى كل البلاد المجاورة مثل فلسطين ، وسورية ، والعراق ، وجزيرة «كريت»، بل فى بلاد مابين النهرين أيضاً ، وأراد البعض أن يتخذ من هذا الانتشار دليلا على دولة أسسها الهكسوس ، تمتد من بلاد مابين النهرين شمالا إلى «جزيرة كريت» فى الغرب ، وتضم سورية وفلسطين ومصر . ولكن ظهور هذه الآثار فى سورية وفلسطين لايدل إلا على العلاقة الجنسية بين الهكسوس فى مصر وموطنهم الأول ؛ أما ظهورها فى بلاد ما بين النهرين فكان عن طريق التجارة ليس غير . وكل ماعثرنا عليه هناك لا يتعدى تمثالا لأسد رابض حفر عليه اسم الملك «خيان» ، ويغلب على الظن أنه وصل إلى هناك عن طريق أحد تجار العاديات ، ثم اشتراه المتحف البريطانى .

وإذا دققنا النظر وجدنا أن كل الآثار التى خلفها لنا الهكسوس فى مصر وغيرها مصرية الصنع والطابع، مع أنه لو صحت النظرية القائلة بوجود دولة مترامية الأطراف للهكسوس لتوقعنا أن نرى فى مصر فناً آخر تأثر بالفن الأشورى، أو البابلىّ مثلا، أو لتوقعنا أن نرى الفن المصرى قد أثر فى أحد هذين الفنين، ولتوقعنا أن نعثر على آثار أعظم قيمة وأكبر حجماً مما وجدناه لهم فى مصر. والآثار التى وجدناها تدلنا دلالة واضحة على ضعف ملوك الهكسوس ضعفاً أنساهم موطنهم وعاداتهم الأولى، فاندمجوا فى الحضارة المصرية، وحذوا حذو المصريين فى كل شىء، فلقبوا أنفسهم بألقاب مصرية، وعبدوا إلهاً مصرياً، أقاموا له معبداً على الطريقة المصرية.

وقد هيأت الظروف القاسية لشعب الهكسوس أن يدخل مصر، تلك الظروف القاسية التى تحل بمصر كلما اكتمل لها عصر ذهبى، فلا تكاد تهنأ بهذا العصر وتسعى نحو التقدم والتحضر حتى يدهمها الانشقاق والاضطراب فتهوى.

فى هذه المرة دخل الهكسوس أرض مصر غازين متعسفين، هدموا معابدها، واستعبدوا المصرى وأهانوه كل الإهانة، فذاق المصريون الأمرّين من الغزاة. ولكنهم مالبثوا أن حطموا قيود التعسف، وثاروا فى وجه الطغاة ثورة موفقة. وعلى ذلك كان حكم الهكسوس فى مصر هو العامل القوى الذى جعل من الشعب المصرى لأول مرة فى تاريخه شعباً محارباً مستبسلا، طلب الحرية فنالها، ثم عرف طعم الحرب، وتذوق معنى الانتصار، فخرج من مصر يطلب الغزو، والحرب، فما لبثت كل البلاد المجاورة له أن خضعت لسلطانه، فنشأت الإمبراطورية المصرية الأولى التى أقامها بطل مصر الفذ «تحتمس الثالث».

وهناك شىء آخر جنته مصر من حكم الهكسوس، هو تعرفهم على العربة والحصان؛ فالهكسوس كانوا أول من استعملهما فى مصر، واستعانوا بهما على حكم المصريين، الذين مالبثوا أن تعلموا منهم هذه الحرفة الجديدة وأجادوها، ثم استغلوها فى تحرير بلادهم، وفى بسط سلطانهم على الأمم المجاورة.

طرد الهكسوس من مصر :

تحدثنا فيما سبق عن إمارة طيبة التى حكمت الجنوب تارة مستقلة وتارة تحت نفوذ الهكسوس . وهناك ورقة من البردى كتبت فى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، تحدثنا عن استفزاز الهكسوس لأمراء طيبة . وتقول هذه الورقة إن ملك الهكسوس المدعو « أبو فيس » أرسل رسلا إلى « سكنن رع » أمير طيبة يحذره من عاقبة صياح أفراس البحر التى تقطن مياه طيبة ، والتى تزعج ملك الهكسوس فى عاصمته « أواريس » ، وتمنع جلالته من النوم ليلا ونهاراً . ونكاد نعتقد أن الحرب بدأت فى عصر «سكنن رع » هذا ، ثم استمرت فى عصر أخيه المدعو «سكنن رع» أيضاً . وقد عثرنا على جثته المحنطة ، وفى الرأس آثار جرح عميق سبب موته ، وبذلك يكون هذا الأمير قدلقى حتفه فى كفاحه الهكسوس . وتولى إمارة طيبة ابن الأخير واسمه « كاموزه » ، الذى حاول جهده إضرام نار الثورة بين مواطنيه ورجال بلاطه الذين رغبوا فى أول الأمر عن الحرب ، قانعين بماهم فيه . ولا ندرى إلى أى حد وصل « كاموزه » فى محاربة الهكسوس ، ولكنا نعرف تماما أنه كان ملكا لم يستسلم لخنوع قواده ورجاله ، بل واصل الجهاد وأتم رسالة أبيه . ومن بعده أتى « أحموزه » الذى نجح تماما فى طرد الهكسوس ، وطاردهم إلى فلسطين .

هؤلاء كانوا ملوك الأسرة السابعة عشرة ، ونستثنى منهم « أحموزه » الذى يعتبر بحق مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، إذ بدأ عصرا جديدا . ووضع أول حجر فى بناء الأمبراطورية المصرية الأولى .

رابعاً — الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة :

تابع أحمس الأول محاربة الهكسوس حتى أجلاهم عن مصر وخلصها من تعسفهم . ولم تصل إلينا نصوص تبين لنا كيف بدأت هذه الحرب ؛ وكل ما نعرفه هو كيف انتهت . وقد حدثنا بذلك قائد كبير اسمه أحمس بن أبانا ، وخلدلنا

تاريخ المعارك النهائية على جدران مقبرته، فوصف لنا كيف طرد أحمس الأول الهكسوس من عاصمتهم « أواريس » ، ثم تتبعهم متخطياً حدود مصر الشرقية إلى « شاروهين » فى جنوب فلسطين ، وحاصرهم هناك ثلاث سنوات متتالية . وبعد انتصاره رجع إلى مصر ، ووجه همه إلى بلاد النوبة ، وتمكن بعد مدة قصيرة من أن يسترجع كل المناطق التى حكمتها مصر فى عصر الدولة الوسطى .

من ذلك نرى كيف أصبحت مصر للمرة الثالثة أمة متحدة ، يمتد سلطانها على بلاد النوبة حتى الشلال الثالث ، وعلى فلسطين .

اختلفت مهمة أحمس الأول فى تنظيم الحكومة المصرية وإداراتها الداخلية عن مهمة أمنمحات الأول (أول ملوك الأسرة الثانية عشرة) ؛ فبينما تولى الأخير عرش مصر واضطر — لكى يحتفظ بهذا العرش — أن يواجه حكاما أقوياء يتنازعون السلطة ، لم يجد الملك أحمس بدا من تكوين حكومة من حكام ضعاف (عاشوا ما يقرب من قرن ونصف تحت النير الأجنبى) ، وصبغ حكمه بالصبغة العسكرية . وقد تعلم الشعب طرق الكفاح المختلفة بعد أن تدرب على الحرب فى الغزوات الكثيرة التى قام بها الملك أحمس .

بدأ أمنحوتب الأول (ابن أحمس الأول) حياته بأن أسرع إلى بلاد النوبة ، وأخمد ثورة قام بها شعب الكوش . وبعد أن أزال الخطر عن حدود مصر الجنوبية وجه همه إلى غزو الشام . ومن دواعى الأسف أنه لم تصل إلينا أخبار عن غزواته فى آسيا ؛ ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ إلى نهر الفرات . ونستدل على ذلك بما قاله الملك تحتمس الأول الذى خلفه مفتخرا فى السنة الثانية من حكمه بأن مملكته قد امتدت إلى نهر الفرات ، مع أنه لم يكن قد قام فيها بعد بأى حركة حربية .

لم يجر فى عروق تحتمس الأول الدم الفرعونى ، ولكنه توصل إلى العرش بزواجه من أرملة أمنحوتب الأول . ولم يكن النصف الجنوبى من السودان المصرى هادئا ، واضطر الملك إلى إرسال حملة للضرب على أيدى الثائرين . وبعد ان استقرت الأحوال هناك عين هذا الملك حاكما عاما على هذه المنطقة

أشبه بمندوب سام ، يلقب بالمصرية القديمة لقبا معناه « ابن الملك المعين على كوش » ، مع أنه فى الحقيقة لا يمت للبيت المـالك بصلة القرابة . ونستدل على حروبه التى قام بها فى آسيا من نص لضابط يدعى أحمس بن نخبت ، الذى قال إنه وصل مع الملك إلى منحنى نهر الفرات ، وأن الملك شيد هناك لوحا حجريا ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لممتلكات مصر الآسيوية .

ولمـا شعر تحتمس الأول بضعفه وعدم قدرته على تحمل أعباء الحكم ، نزل لابنه تحتمس الثانى عن العرش ، وزوجه من ابنته الشرعية «حتشبسوت» ، ولكن تحتمس الثانى كان شابا مريضاً ضعيفاً مات بعد مدة وجيزة ، إذ كان أبوه تحتمس الأول لايزال على قيد الحيـاة . هنا انقسم المصريون إلى حزبين كبيرين : حزب يطالب تولية « حتشبسوت » ، الابنة الشرعية ، على عرش مصر ، والحزب الآخر يطالب تولية تحتمس الثالث بن تحتمس الأول من حظيته «إيزيس» . وكان الملك يميل إلى أن يخلفه رجل على العرش ، فاختير تحتمس الثالث ، وتزوج من أخته حتشبسوت . وما أن توفى تحتمس الأول حتى انتهز حزب حتشبسوت الفرصة وأدخلوا فى عقول الشعب رضى تحتمس الأول عن تولية ابنته الشرعية حتشبسوت ملكة على مصر . وكان هذا الحزب من القوة بحيث استطاع شل يد تحتمس الثالث ، إما باقناعه أو اضطراره ، وظل منزويا مهملا يقوم بوظيفة الأمير الزوج حتى وفاة حتشبسوت ، وعندئذ انفرد بالحكم ، فكان أقدر من تولى حكم مصر فى عصر الدولة الحديثة .

أرادت الملكة حتشبسوت أن تمثل دور الفرعون الحقيق ، فتخلت عن ألقاب الملكات ، وأخذت كل ألقاب الملك المصرى ، وتزيت بزى الرجال . وقد وجهت كل جهدها فى إقامة معبدها المدرج ، الذى لايزال قائمـا فى الجهة الغربيـة من الأقصر ، ويطلق عليه اسم الدير البحرى ، ورسمت على جدرانه مناظر البعثة البحرية المكونة من خمسين سفينة أرسلتها إلى بلاد الصومال ، ويمتاز عصرها باستتباب الأمن والسلام فى الداخل والخارج . واستغلت هذه الملكة كل موارد مصر الطبيعية استغلالا سهل عليها تنفيذ مشروعاتها السلمية . وماتت حتشبسوت بعد

اللذان أقامهما أمام مدخل قصره العظيم فى طيبة . وقد اندثر هذا القصر ولم يبق منه عين ولا أثر .

أمنحوتب الرابع (أخناتون) : كان هدوء الحالة واستتباب الأمن فى عصر والده ، مما جعل ملوك الأمم المتاخمة لمصر يتطلعون إلى التخلص من الحكم المصرى . وفى أواخر حكم أمنحوتب الثالث قام هؤلاء الملوك فعلا بثورات عدة ، ساعدهم عليها ملك الحيثيين . وكان حقا على أمنحوتب الرابع عند توليه العرش أن يسارع إلى الضرب على أيدى هؤلاء الثوار لإعادة الهيبة المصرية إلى قلوبهم ، ولكنه كان شاباً مغرماً بالمناقشات الفلسفية الدينية أكثر من الأمور الحربية السياسية .

لم يرق نظر أمنحوتب الرابع تعدد الآلهة فى الديانة المصرية . ورأى أنهم ليسوا إلا قوى مختلفة لإله واحد سماه بالإله « أتون » ، رمز له بقرص الشمس منبعثة منه الأشعة ، منتهية بأيد بشرية . فكان هذا الملك أول من نادى فى مصر بفكرة توحيد الآلهة .

ويرى بعضهم فى ثورة إخناتون الدينية سياسة حكيمة من الملك ، سار عليها للتخفيف من تدخل رجال الدين فى الشئون الإدارية والسياسية ، ونخص بالذكر كهنة أمون الذين جمعوا فى أيديهم كل السلطة الدينية والمدنية ، وكدسوا الأموال فى خزائن معابدهم ، فأصبحوا بذلك خطراً على نفوذ الملك . وبذلك أصبح هذا الملك أول من ألقى القفاز فى وجه الكهنة .

وبعد أن قام الملك بتوحيد الآلهة ، وجعل الإله أتون هو إله الدولة الواحد ، غير اسمه إلى «إخناتون» ، ونقل عاصمته إلى تل العمارنة ، لكى يهيئ بيئة جديدة يمكن أن تنمو فيها بذور دينه الجديد وتترعرع ، وشن الملك الحرب على كهنة أمون ، ومحا اسم الآلهة من كل الآثار المصرية .

وصحبت ثورة أخناتون الدينية ثورة أخرى فى الفن تكسرت بها قيود الفن القديمة ، وأصبح الفنان يرى الأشياء ويصورها كما هى ، لا كما يرغب رجال الدين .

نهاية الأسرة الثامنة عشرة :

لم يخلف أخناتون ابناً يتولى العرش من بعده ، فتبوأ « سمنخ كارع » زوج ابنته العرش ، وأمضى مدة حكمه القصير فى تل العمارنة ، ولم نعثر له على آثار مهمة . ثم خلفه صهر ثان لإخناتون ، وهو « توت عنخ أتون » الذى اتخذ سياسة حكيمة ، بأن رجع إلى عبادة آمون حتى يستميل إليه الشعب المصرى ، ورجع الملك إلى طيبة ، وأعاد حفر اسم أمون على آثاره القديمة ، وأطلق على نفسه « توت عنخ آمون » . وقد اكتشفت مقبرة هذا الملك عام ١٩٢٢ حاوية لأثاث الملك الكامل ، الذى يمثل التقدم الاخناتونى العظيم فى أمور المعيشة والفنون الجميلة .

ثم اعتلى عرش مصر زوج مربية إخناتون المسمى « آى » ، الذى كان وزيراً لتوت عنخ آمون ، وحكم مدة قصيرة . وبموته انتهت الأسرة الثامنة عشرة .

الأسرة التاسعة عشرة :

فى عهد الملك « آى » أخذ اختلال النظام فى البلاد يعظم خطره ، وانتهى إلى فوضى شاملة ، كادت تؤدى إلى ظهور عصر اضمحلال ثالث لولا ظهور « حور محب » ، الذى أفلح فى إعادة النظام إلى البلاد بعد أن زلزلت أسسه منذ موت أمنحتب الثالث .

وكان حور محب هذا قائداً للجيش . لا يمت بأية صلة إلى البيت المالك ، ويحتمل أنه كان وصياً على البلاد فى عهد الملك توت عنخ آمون .

لم يكن حور محب قائداً عظيما فحسب ، بل كان أيضاً كاهناً مخلصاً لعبادة أمون فأعاد إلى آلهة طيبة كل ممتلكاتها ، وأرسل خيرة رجال الفن ـ وبخاصة المثالين ـ لإصلاح ماتهدم من معابد آمون وإعادة اسم الإله على آثارها من جديد . ثم أخذ يعيد النظام فى المرافق المصرية المختلفة . ولم تكن هذه الخطوة سهلة ، لشدة الانحطاط الذى وقعت فيه الإدارة المحلية بسبب ضعف ملوك مصر ، وتغيير

دياناتها ؛ فرأى بثاقب فكره البدء بإصلاح الشئون المالية ، ومنع الظلم الذى حاق بالأهالى على أيدى كبار الموظفين ،ثم رأى جمع الضرائب من كل أفراد الشعب المصرى أيا كان مركزهم ، بطريقة عادلة توافق الجميع . أما من جهة السياسة الخارجية فقد اضطر لتركها وعدم العناية بها . وكانت نفسه تطمح بلا نزاع إلى الفتح ، ولكنه فقد الرجاء فى إصلاح تلك المستعمرات الخارجية مادامت شئون مصر الداخلية سيئة كما أسلفنا . أما فى الجنوب فقد أرسل حملة تأديبية لقمع ثورة قام بها بعض القبائل المناوئة ، ثم أرسل بعثا إلى بلاد الصومال لجلب حاصلاتها النفيسة .

وخلفه رمسيس الأول الذى كان رجلا مسنا عند ماتولى العرش . ولم ينتم إلى أسرة « حورمحب » ، بل يظهر أن الأخير اختاره لأنه مثله رجل عسكرى فى استطاعته أن يتمم رسالته . وفى السنة الثانية من حكمه أشرك معه ابنه« سيتى » فى حكم البلاد ، ومات بعد ذلك بمدة وجيزة .

بدأ سيتى الأول عصره بحملة سريعة حاسمة فى آسيا ، أسفرت عن بسط سلطانه على كل فلسطين الجنوبية ، ثم ذهب مرة ثانية إلى شمال فلسطين، وتلاقت جيوشه للمرة الأولى مع الجيوش الحيثية فى وادى نهر العاصى . ويظهر أن الحرب كانت سجالا بينهما ، إذ اضطر « سيتى » إلى عقد محالفة مع ملك الحيثيين ؛ وبعد أن حصن حدود بلاده فى الدلتا من غارات الليبيين ، خصص « سيتى » ما بقى من سنى حكمه لإصلاح معابد أمون والآلهة الأخرى التى خربتها ثورة إخناتون الدينية . وكذلك أقام مبانى جديدة فى الكرنك ومنف ، وعين شمس والدلتا . على أن هذه المبانى كانت تتطلب المال الوفير ، فاتجه همه إلى استخراج الذهب من مناجمه بالصحراء الشرقية .

مات سيتى الأول بعد أن حكم البلاد أكثر من عشرين عاما وخلفه أصغر أولاده رمسيس الثانى ، وبحكم هذا الملك يبدأ عصر جديد هو عصر الأمبراطورية المصرية الثانية . بدأ حياته باصلاح شئون البلاد الداخلية ، والقضاء على المشاغل

الدينية ، واستغلال المناجم ، ثم وجـــه همه إلى إشباع مطامعه خارج الحدود المصرية ، وبخاصة آسيا ، وكان فى ذلك الوقت قد استولى ملك الحيثيين على قلعة قادش بعد إبرامه معاهدة الصلح مع سيتى الأول، فحنث فى عهده ، وجمع صغار الأمراء حوله ، وجند من إماراتهم الجيوش الجرارة ، التى لم يتنازل المصريون مثلهم فى ساحة القتال طوال مدة تاريخهم . وخلد رمسيس الثانى اشتباكه مع هذه الجيوش فى حملته الأولى فى قصيدة تسمى باسم كاتبها « بنتاؤر »، عدد فيها رمسيس ما قام به من أنواع الفروسية والبطولة ، وكيف أنه كاد يُقضى عليه لولا ما أوتيه من رباطة الجأش وقوة العزيمة ، ولولا ما قام به الإله أمون من مساعدة كبيرة له فى محنته . ولم تكن هذه المعركة فاصلة بين العاهلين ، إذ اضطر رمسيس الثانى للاشتباك مرات أخرى مع ملك الحيثيين ، وانتهى الأمر بعقد محالفة دفاعية هجومية بينهما ، أهم شروطها :

(أولا) أن ينزل كل من الطرفين نزولا تاما عن القيام بأى عمل حربى يقصد منه الفتح .

(ثانيا) الموافقة على المعاهدات التى عقدت بين البلدين فيما سبق .

(ثالثا) الموافقة على معاهدة دفاعية لصد كل عدو يعتدى على إحدى الدولتين.

(رابعا) تسليم الهاربين والمجرمين والمهاجرين من كلتا الدولتين إلى الأخرى .

ووُطدت أركان هذه الصداقة عند ما تزوج رمسيس الثانى من كبرى بنات ملك الحيثيين ، وذلك بعد مضى ثلاث عشرة سنة من إمضاء هذه المعاهدة . وهكذا انتهت أعمال مصر الحربية فى سورية التى بدأ بها منذ ثلاثة قرون الملك أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة .

وكان من نتائج الحروب الأسيوية فى عهد رمسيس الثانى أن انتقلت عاصمة الملك من طيبة إلى الدلتا (بر رمسيس — تانيس — صان الحجر)، وازدهرت التجارة فى هذه المنطقة، وأصبحت تحوى مراكز للحضارة والفن تعادل مراكز مصر العليا . ومع المميزات الكثيرة التى امتاز بها رمسيس الثانى ، فإنه لم يخل

من نقائص ، منها إعجابه الشديد بنفسه ، وعدم معرفته حداً لشهواته ، واستيلاؤه على كل ماشيده أجداده من معابد وتماثيل ، نقش عليها اسمه ونسبها إلى نفسه . وكان مزواجا اقترن بأكثر من مائة امرأة ، أنجب منهن أكثر من مائة وخمسين ولداً .

خلفاؤه : تولى العرش بعد رمسيس الثانى ابنه «سيتى منفتاح» . ولم يقم هذا بفتوحات بعيدة . وقد كانت مصر فى حالة تلزم عاهلها أن يحارب فى كل وقت ليحافظ على حدودها الممتدة إلى الشمال ، والمتاخمة لحدود ملك الحيثيين ، الذى رأى فى قوته مايسمح له أن يطالب بمستعمرات مصر . وفى السنة الخامسة من حكمه قامت حروب بينه وبين اللبيين وشعوب البحر الأبيض المتوسط انتهت بانتصار المصريين .

وهناك لوح حجرىّ محفوظ فى المتحف المصرى يعرف « بلوح إسرائيل » ذكر عليه لأول مرة اسم « اسرائيل » وهى قبيلة انتصر عليها « منفتاح » . ولذلك يحتمل أن يكون هو الفرعون الذى طرد اليهود من مصر مع موسى عليه السلام ، غيرأن هذا الأمر يشك فيه إذا ما علمنا أن جثته وجدت فى طيبة وذلك يخالف ما جاء فى التوراة وما نعتقده بغرقه فى البحر الأحمر .

وبعد موت منفتاح حدث نزاع داخلى على العرش دام عدة سنوات توالى فيها على عرش مصر ملوك صغار لم يذكر التاريخ إلا أسماءهم ، وهم : أمن مسس ، منفتاح ، سابتاح ، سيتى . وقد بلغت الحالة حداً من الاضطراب سهل على أحد السوريين فى القصر أن يتولى العرش . وفى هذه الآونة ظهر بين المصريين رجل قوى الشكيمة مجهول الأصل يدعى « سيتى نخت » ، أعاد وحدة البلاد ، وقضى على المطالبين بالعرش ، ولكن لم تدم مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر استطاع فى خلالها أن يعد ابنه « رمسيس الثالث » ليتولى العرش من بعده .

٣ — الأسرة العشرون :

رمسيس الثالث وخلفاؤه : بدأ حكمه وهو فى شرخ شبابه مملوءا نشاطاً وقوة . وأحرز نصراً مبيناً فى أول أيام حكمه على قبائل الليبيين وشعوب البحر الأبيض

المتوسط مجتمعين . ولما حلت بهم هذه الهزيمة وجهوا أنظارهم إلى آسيا وهناك ضربوا دولة الحيثيين ضربة قاضية ، فكان ذلك من مصلحة رمسيس الثالث ، الذى انتهز الفرصة وأعد لنفسه العدة برا وبحرا ، وأجهز عليهم واسترد من أيديهم أكثر مستعمرات مصر فى آسيا .

ولم يكن عهده مكللا بالفخار فى خارج بلاده فحسب ، بل كانت البلا فى داخلها تنعم برخاء لا بأس به . ثم أخذ الملك يشيد المبانى الشاهقة للآلهة المصرية ، ويحبس على المعابد والكهنة من الخيرات ما لم نسمع بمثله من قبل ولدينا أكبر وثيقة تاريخية (ورقة هاريس البردية) التى عدد فيها الملك «رمسيس الرابع » أعمال أبيه وهباته التى قدمها للآلهة المصرية ، من ذلك أن دخ هذه المعابد كان يقرب من خمسى دخل الدولة . وهكذا كانت خزائن البلاد تحو من أحسن محصولاتها ، ولم ينتفع فرعون مصر من هذه الأموال إلا بما كا ينفقه على جيوشه ، وهى عدته الوحيدة التى كان يعتمد عليها . وكانت الج المرتزقة هى العنصر الهام فى الجيش المصرى ، ومطالبهم كانت مجحفة ، يصعب على الملك أن يقودهم ويلزمهم الطاعة ، إلا ببذل الأموال لهم . ومن أج هذا انتشرت المؤامرات فى قصور الملك ، ومن الغريب أن كل مؤامرة دبر لاغتيال الملك ، اندس فيها عنصر أجنبى ، ويظهر أن رمسيس الثالث لقى حت فى إحدى هذه المؤامرات .

جاء بعد رمسيس الثالث ثمانية ملوك بهذا الاسم ، حكموا ما يقرب م ثلاثة أرباع قرن ، ولم تظهر أسماء هؤلاء (الرعامسة) إلا على أوراق البردى على نقوش ليست لها أهمية تذكر . وحفر ستة منهم مقابر لأنفسهم فى واد الملوك ، بعضها فخم . وأهم فرعون بينهم كان « رمسيس التاسع » الذى حدث فى عهده قضية كبيرة ضد أشخاص اتهموا بتخريب وسرقة مقبرتى سيتى الأو ورمسيس الثانى فى وادى الملوك .

ومن دلائل ضعف سلطة ملوك هذا العصر ، ازدياد نفوذ الكهنة ، زيا جعلتهم خطرا على العرش ، والدليل على ذلك أن أحدهم صور نفسه فى إحد

المناسبات بحجم كبير مساو لحجم الملك ، ويعتبر هـذا أول تصوير من نوعه فى التاريخ المصرى القـديم ، إذ لم يسبق لأى موظف مصرى ، أن صور نفسه بحجم مساو لحجم الملك .

من الأسرة الحادية والعشرين الى نهاية عصر الأسرات :

وفى عهد رمسيس الثانى عشر قام أحد الأشراف من مدينة تانيس ، اسمه سمندس ، ونصب نفسه ملكا على الشمال ، وأسس الأسرة الحادية والعشرين ، وبذلك انقطعت علاقة (الرعامسة) فى طيبة بآسيا . حيث ظهرت دولة الأشوريين التى قضت على السيادة المصرية الاسمية فى آسيا . أما فى طيبة فلم يستطع (الرعامسة) الاحتفاظ بسلطانهم ، بل ضعفوا أمام كهنة أمون ، واستطاع رئيسهم «حرحور» أن ينقش ألقابه الكهنوتية والحربية على الجزء الأسفل من قاعة العمد فى معبد خنسو بالكرنك ، وهـذا أكبر دليـل على انتقال السلطة من فرعون إلى رئيس كهنته .

ولمـا كان « حرحور » طاعنا فى السن عنـد ما تولى العرش ، لم يعش طويلا ، وتبعه فى الحكم ابنه « باى عنخ » ، وهذا كان أيضا مسناً ، فلم يستطع التغلب على سلطة سمندس فى الشمال . ثم خلف « باى عنخ » ابنه « باى نجم » الذى تمـكن بسياسة حكيمة من ضم الشمال إلى الجنوب ، وذلك بأن تزوج من ابنة بسوسنس الأول ابن سمندس . وانتقل « باى نجم » إلى تانيس ، وأرسل ابنه رئيسا لـكهنة أمون بطيبة .

وامتـد حكم الأسرة الحادية والعشرين نحو مائة وأربعين سـنة ، أى حتى سنة ٩٥٠ ق . م . وهذا يجعلنا نعتقد أن ملوكها عاصروا شاءول وداود وسليمان المشهورين فى التوراة .

وفى عصر الأسرة الحادية والعشرين ظهرت بوادر ثورة جديدة كان قوامها الجنـد المرتزقة ، الذين ظهروا فى الجيش المصرى منذ الأسرة الثامنـة عشرة ، وأصبحوا قوة يعتمد عليها فى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، ثم هيمنوا على كل

شئون الجيش فى عصر الأسرتين العشرين والحادية والعشرين . وكون الليبيون (وكان عنصرهم إذ ذاك هو العنصر الظاهر فى عصر الأسرة السالفة الذكر) من أنفسهم فرقا يقود كلا منها رجل من بينهم . وتغلغل هؤلاء القواد فى الوظائف . وأصبح لهم الحق فى امتلاك الأراضى ، حتى ظهرت فى أواخر أيام الأسرة الحادية والعشرين ، أسرة تنتمى إلى رجل اسمه «بويوا» ؛ وقد توطنت هذه الأسرة هيرا كليو بوليس ، وسمى رئيسها بالأمير الكبير — أمير الأمراء .

وفى أواخر عصر الأسرة الحادية والعشرين كان رئيس هذه الأسرة رجل اسمه «شنشق» تمكن من تدريب جيش عظيم يذود به عن نفسه وعن مقاطعته وحفيد هـــذا الرجل هو الذى أسس الأسرة الثانية والعشرين ، التى حكمت مصر مايقرب من قرنين . وكان مقرها بوبسطة . وفى أواخر أيام هذه الأسر انحلت السلطة المركزية انحلالا كبيراً وانقسمت مصر إلى عدة أقسام . ثم تبعتها الأسرة الثالثة والعشرون ثم الرابعة والعشرن .

تمكن رجل اسمه « كاشتا » من أن يكوّن فى النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد فى جنوب بلاد النوبة دولة تسمى بدولة نباتا . استعان فى تكوينها بسلا الكهنة الذين هربوا أمام اضطهاد إخناتون ولجئوا إلى هذه المنطقة .

انتهز هذا الرجل ضعف السلطة فى مصر . وأرسل ابنه «بعنخى» على رأس قوة كبيرة اشتبكت فى حروب عدة مع « تفنخت » (أحد ملوك الأسرة الرابع والعشرين) انتهت بسقوط منفيس ثم الدلتا . وبعد أن عاد « بعنخى » إلى بلاد ثار عليه « تفنخت » مرة أخرى ، فأسرع ولى العهد « شباكا » وهزم المصريين وقتل تفنخت ، وحرق ابنه « بخوريس » حيا . وأصبحت مصر منذ ذلك العـ محكومة بملوك أثيوبيين لمدة نصف قرن .

وخلف شباكا ابنه شبا توكا ، ثم طهارقه ، ثم تانوت أمون . وعند ماتمكـ الأشوريون من هزيمة طهارقه اضطر إلى الجلاء عن الدلتا ، وحاول ابنه تانو أمون أن يبسط سلطانه مرة أخرى عليها ، ولكن خاب أمله ، واندثرت بذا أسرة الأثيوبيين فى مصر .

أسس الأسرة السادسة والعشرين بسامتيك الأول ، وحكمت مايقرب .

قرن ونصف . وهى من أهم الأسرات فى نظر المؤرخ المصرى ، إذ أنها قامت بأول محاولة لفتح الطريق أمام الشعوب الأجنبية لدخول مصر ، فرحبت بالشعب الأغريقى وبحضارته وفنه .

اضطر ملوك هذه الأسرة أن يتحدوا مع اليهود بمعاهدات ودية ، ليكونوا حائطاقويا يمنع تقدم الجيوش البابلية ، التى خرجت فيما وراء حدودها غازية محاربة ، لتؤسس مملكة واسعة النطاق فى آسيا الصغرى . هذه العلاقات بين مصر وشعبين آخرين (اليهود والأغريق) متقدمين فى الحضارة أوجدت فى مصر ثورة فكرية ، ظهرت معالمها فى مظاهر الحضارة المصرية المختلفة . ولكن الشعب المصرى لم يحتمل هذه التعاليم الجديدة ومظاهر هذه الحضارات المختلفة الأجنبية ، أوقل لم يسهل عليه هضمها ، فما لبث أن ظهرت عليه أعراض المرض الفتاك ، الذى لم يبرأ منه إلا بعد عصر طويل ، وكان طبيبه فى هذه المرة أجنبى تخلق بالخلق المصرى وحذا حذو فراعنة مصر ، وهو بطليموس الأول .

أهم ملوك هذه الأسرة بسامتيك الأول ، نيخاو . بسامتيك الثانى . إبريس ، أحمس ، بسامتيك الثالث .

ومن أهم مظاهر هذه الأسرة ولوع ملوكها الشديد بقواعد الفن والعمارة المتبعة فى عصور مصر القديمة ، فقلدوها تقليداً أعمى ، ولكنهم لم يتقيدوا بهذه النظم القديمة فى أساليب الحكومة والإدارة .

وغزا مصر ملك الفرس قامبيز عام ٥٢٥ ، وهزم ملكها بسامتيك الثالث ، وأسره وسجنه فى عاصمة الفرس «زوزا» ، وأصبحت مصر بذلك تابعة للحكم الفارسى ، وبقيت ما يقرب من قرنين تحت هذا الحكم القاسى . ونجح بعض ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين فى تخليص مصر من نير الفرس ، ولكن هذا النجاح كان وقتياً ، وما لبث أن اندثر أمام بطش ملوك الفرس ، وبقيت الحالة على هذا المنوال حتى دخل إسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ ق . م . فقضى على الاحتلال الفارسى ، وانتقلت مصر بذلك إلى عصر نعمت فيه برخاء وازدهار ، يمكن أن يقارن بأحسن العصور الذهبية القديمة .

٣ — مصر فى عهد البطالسة والرومان

ابراهيم نصحى

« أولا » مصر فى عهد البطالسة

١ — الفتح المقدونى :

لم تكن بلاد الإغريق دولة تنتظمها رابطة الوحدة السياسية ، وإنما كانت تنقسم إلى عدد كبير من الدول ، قطعت أوصالها المشاحنات والأحقاد . وإذا كانت بلاد الإغريق قد بلغت فى القرن الخامس ق . م . شأوا بعيداً فإنها أخذت تضعف وتشيع الفوضى بين أرجائها خلال القرن الرابع ، حين كانت مملكة مقدونيا على حدودها الشمالية جادة فى توحيد كلمتها وإعلاء شأنها . وعند ما ارتقى فيليب الثانى عرش مقدونيا رأى أن ينتهز حالة بلاد الإغريق ، فيوحدها بزعامة مقدونيا ، سياسيا وحربيا ، ويقود الإغريق فى حرب قومية ضد أعدائهم القدماء ، وهم الفرس الذين كانوا يتهددون سلامة بلاد الإغريق . ولقد كافح الإغريق أطماع فيليب ، إلا أنه أنزل بهم هزيمة فاصلة فى موقعة كيرونيا (Chaeronea) فى عام ٣٣٨ . وألف من أغلب الدول الإغريقية عصبة جعل مقرها مدينة كورنثا . ولم تلبث هذه العصبة أن قررت محاربة الفرس تحت قيادة مقدونيا .

لاقى فيليب حتفه قبل تحقيق أمنيته ، لكن لم يكد يستتب الأمر لابنه الإسكندر حتى أقدم على محاربة الفرس ، على رغم ما كان يكتنف ذلك من صعاب ، أهمها أن الفرس كانوا يعتمدون على موارد إمبراطورية لاتنضب ، ويتمتعون بسيادة البحار ، على حين كان الإسكندر لا يستطيع الاعتماد على قوى الإغريق البرية أو البحرية ، فقد عز عليهم ضياع حريتهم ، وخضوعهم لمقدونيا ، وكان طبيعيا ألا يتفانوا فى تأييد مشروعاتها . فرأى الإسكندر أن الطريقة المثلى للقضاء على

سيادة الفرس البحرية ، الاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسى واحدة بعد أخرى . وسرعان ما استولى الإسكندر على شواطئ آسيا الصغرى وفينقيا ومصر ، وبذلك ضمن سلامة مؤخرته ، وترك الأسطول الفارسى بلا مقر يلجأ إليه لإصلاح أى عطب يصيب المراكب ، أو بلد محالف يستمد منه المؤنة والمدد . لقد كان فتح مصر ضروريا ، لأنه كان من ناحية بمثابة استكمال فتح فينقيا ، ومن ناحية أخرى بمثابة ضمان لوضع بلاد الإغريق تحت رحمة الإسكندر ، لأن استيلاءه على مصر بعد استيلائه على الدردنيل ، كان يضع فى قبضته أكبر مصدرين تعتمد عليهما بلاد الإغريق فى استيراد ماتحتاج إليه من القمح .

وفد الإسكندر إلى مصر فى خريف عام ٣٣٢ ، فرأى الوالى الفارسى عجزه عن المقاومة ، وفتح له أبواب مصر على مصراعيها . وقد رحب المصريون بالإسكندر ، لأنهم كانوا يكرهون الفرس بسبب ما أنزلوه بهم من الظلم ، ولأنهم كانوا يذكرون مساعدة الإغريق لهم فى كفاحهم كلما حاولوا التخلص من نير الحكم الفارسى . ولما كان من بين الأسباب التى أحفظت قلوب المصريين على الفرس أنهم انتهكوا حرمة الديانة المصرية ، كان أول هم الإسكندر عند ماحط رحاله فى منف أن يقدم قرباناً للعجل المقدس وباقى الآلهة الوطنية ، بل يرجح أن الإسكندر توج أيضا فى معبد فتاح ، على نهج الفراعنة القدماء ، وذلك لكى يظهر أمام المصريين فى ثوب ملك شرعى خليفة الفراعنة القدماء ، فيضمن إخلاص المصريين لحكمه . لكن لم ينس الإسكندر أيضاً أنه يوم خرج من بلاد الإغريق قاصداً فتح الشرق ، قد أعلن أنه رافع لواء الحضارة الإغريقية وحامى حمى الإغريق ، ولذلك أقام فى منف حفلا إغريقيا : رياضيا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الإسكندر من مهامه فى منف ، وضع أساس مدينة الإسكندرية . ثم حج إلى معبد أمون فى واحة سيوه . ذلك المعبد الذى كان يتمتع بشهرة عالمية تضارع ما كان لمعبد زيوس فى ديدونا (Dedona) ومعبد أبولو فى دلفى (Delphi) . لاشك أن الاسكندر كان يرمى من وراء هذه الزيارة إلى تحقيق غايتين : إحداهما أن يثبت صلة نسبه بالآلهة أمام الرأى الدولى العام ،

لأنه كان يوشك أن يقيم أمبراطورية عالمية، تضم بين جوانبها عناصر من الشرق والغرب، وكان يرى أن نفوذه فى أرجاء هذه الأمبراطورية يقتضى أن يظهر نفسه للملأ أجمع بمثابة إله ـ ملك. وأخراهما أن يحصل على تأييد الإله أمون لمشروعاته التى كانت ترمى إلى بسط سيادته على العالم.

رجع الإسكندر بعد ذلك إلى منف، حيث أقام حفلا إغريقيا ثانيا، وقدم القرابين لزيوس. وقبل أن يغادر مصر فى ربيع عام ٣٣١ كان قد جعل من مصر حتى الشلال الأول ولاية مقدونية منظمة تنظيماً دقيقاً، يحميها جيش وأسطول.

وتمتاز النظم التى وضعها الإسكندر بشيئين:

(أولا) تقسيم السلطة بين عدة من الحكام، لاتقاء استبداد حاكم واحد بالسلطة، مما يتعارض مع مصلحة الإمبراطورية.

(ثانياً) روح العطف التى أبداها نحو المصريين، فقد اختار من بينهم واليين ليحكما الوجه البحرى والوجه القبلى.

غادر الإسكندر مصر قاصدا بابل، حيث هزم دارا ملك الفرس هزيمة فاصلة، فى موقعة جوجميلا (Gaugamela) فى عام ٣٣١، ثم أوغل فى أواسط آسيا حتى الهند، للاستيلاء على ولايات الإمبراطورية الفارسية. وفى عام ٣٢٣ قضى الإسكندر نحبه وهو فى شرخ الشباب، وبوفاة الإسكندر يبدأ العصر الذى اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الهلينستى (Hellenistic Age) لأن أمبراطورية الإسكندر سرعان ماتفككت. وقام على أنقاضها عدد من الممالك كان أهمها فى الشرق. حقا استمرت الحضارة الاغريقية (الهلينية) القديمة على أسسها السالفة فى جوهرها. لكن داخلها بعض العناصر الشرقية، وانتشرت هذه الحضارة بين ربوع الشرق، وانتقلت مراكزها من بلاد الإغريق القديمة إلى العواصم الشرقية الجديدة. التى أنشأها خلفاء الإسكندر، وينتهى العصر الهلينستى بموقعة أكتيوم فى عام ٣١ ق. م. التى بسط الرومان بعدها سلطانهم على مصر (آخر مملكة هلينستية احتفظت باستقلالها) وأعادوا بناء الإمبراطورية الرومانية على قواعد جديدة، ومن ثم بدأت الحضارة الإغريقية ــ الرومانية.

وغداة موت الإسكندر فى يونية عام ٣٢٣ اجتمع قواده فى بابل ، ليتشاوروا فى حال تلك الإمبراطورية المقدونية ؛ واستقر الرأى آخر الأمر على المناداة بأخى الإسكندر المعتوه فيليب أرهيديس (Philip Arrhidaeus) ملكا ، والاعتراف بحق جنين روكسانا (Roxana وهى سيدة شرقية تزوج منها الإسكندر ، ولم تكن قد ولدت عند وفاته ، وقد عرف ابنها فيما بعد باسم إسكندر الرابع Alex. Aegos) فى مشاركة فيليب فى الملك إذا كان ولدا ، وتعيين كراتريس (Crateres) وصيا على الملك المعتوه . لقد كانت السلطة الحقيقة فى أنحاء الامبراطورية فى يد كبار القواد المقدونيين . وخاصة برديكاس (Perdiccas) الذى احتفظ لنفسه بقيادة الجيش ، وصمم على استغلال مركزه ، ليكون بمثابة الوصى الأعلى على جميع الإمبراطورية . ولا شك أنه كان أقوى القواد سلطة يوم اجتماع بابل . وبعد أن فرغ القواد من مشكلتى العرش والحكومة المركزية فى الإمبراطورية ، اختاروا من بينهم حكاماً للولايات المختلفة فى الإمبراطورية ، وكانت مصر من نصيب بطليموس بن لاغوس .

٢ — سياسة البطالسة الخارجية :

لكى نتفهم حقيقة سياسة البطالسة الداخلية يجب أن نبدأ بدراسة سياستهم الخارجية ، ذلك لأن النظم التى وضعوها لحكم مصر تأثرت إلى حد كبير بالدور الذى أرادوا أن يلعبوه فى العالم ويستخلص المؤرخون سياسة البطالسة الخارجية من دراسة الحقائق التاريخية . لكن قلة هذه الحقائق كانت سببا فى الاختلاف فى تفسيرها . يرى بعض المؤرخين أن البطالسة الأوائل كانوا يطمحون إلى الاستيلاء على جميع العالم المعروف إذ ذاك ، على حين يرى البعض الآخر أن سياسة البطالسة كانت سياسة استعمارية هجومية ، فإنهم لم يروا فى مصر سوى وسيلة لتكوين إمبراطورية فى البحر الأبيض المتوسط ، ولعل الرأى الأقرب إلى الصواب أن السياسة الخارجية التى اتبعها البطالسة الأوائل كانت استعمارية

حقا ، إلا أنها كانت دفاعية واقتصادية بحتة ، ترمى إلى تكوين إمبراطورية كوسيلة لضمان سلامة مصر وثروتها ، فإن جميع الحقائق التاريخية التى نعرفها حتى الآن تشير إلى أن البطالسة الأوائل كانوا يرمون إلى تكوين مملكة قوية غنية ، على ضفاف النيل وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر . فقد كانوا يرمون إلى ضمان استقلالهم وتقوية شوكتهم ، وتوفير ما يلزم لهم من الأموال والأدوات : لا لتكوين الجيوش ، وبناء الأساطيل لتذود عن ذلك الاستقلال فحسب ، بل للقيام بالمشروعات التى تكفل تقدم مرافق البلاد أيضاً . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن سياستهم لم تبغ من وراء غنى الدولة رفاهية الأفراد ، بل كانت ترمى إلى امتصاص ثروتهم وتسخير جهودهم فى سبيل غنى الدولة .

لقد وضع أساس هذه السياسة بطليموس الأول ، واقتفى أثره بطليموس الثانى والثالث . رأى بطليموس الأول أن استقلال مصر كان لا يتحقق إلا بالقضاء على وحدة الإمبراطورية المقدونية ، ومكافحة كل من رغبوا فى لم شعثها ، فانضم إلى محالفة بعد أخرى ، وخاض غمار حروب عدة . فنرى أنه عند ما اشتد خطر برديكاس انضم بطليموس إلى محالفة تألفت من بعض الولاة الآخرين ، ووضعوا حداً لأطماع برديكاس فى عام ٣٢١ . وكذلك عند ما تهدد نفوذ أنتيجونس (Antigonus) - والى بعض الولايات فى آسيا الصغرى - بقية الولاة الآخرين ، تألفت ضده محالفة انضم إليها بطليموس ، ولم تتوان هذه المحالفة فى محاربة أنتيجونس إلى أن قضت عليه فى عام ٣٠١ . وبموت أنتيجونس ماتت معه فكرة إحياء الإمبراطورية المقدونية ، فتنفس الصعداء خلفاء الإسكندر الآخرون ، الذين كانوا قد حذوا حذو أنتيجونس ، ولقبوا أنفسهم ملوكا فى عام ٣٠٦ أو ٣٠٥ .

وإلى جانب تحقيق استقلال مصر كان يرمى بطليموس إلى توفير أسباب قوة دولته وغناها ، فلم يدخر وسعا فى العمل على شيئين :

(الأول) ضم الأقاليم التى يمكن اعتبارها ملحقات مصر الطبيعية مثل برقة فى الغرب ، لضمان حدود مصر الغربية وسورية (أو على الأقل جنوب سورية)

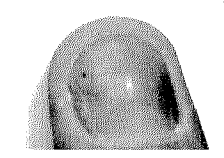
وفينقيا ، وفلسطين ، وقبرص فى الشرق ، لسد أبواب مصر من الجهة الشرقية ، والحصول على المعادن والأخشاب التى يفتقر إليها وادى النيل .

(الثانى) بسط سلطان مصر ما أمكن فى البحر الأبيض ، لكى تستولى على الأقاليم التى يكثر فيها ما تحتاج إليه مصر من المواد الضرورية ، ولكى تستطيع حماية الطرق التجارية التى تصلها بدول بحر إيجه ، ولكى تكون فى قبضتها منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى .

لم يأل بطليموس الأول والثانى والثالث جهداً فى اتباع هذه السياسة التى كانت ترمى إلى توفير سلامة مصر من الاعتداءات الخارجية، وإلى ضمان تفوقها الاقتصادى على منافسيها ، فصادفهم التوفيق أحياناً ، وخانهم الحظ أحياناً أخرى. لقد بسط البطالسة الأوائل سلطانهم على كثير من أقاليم البحر الأبيض خلال القرن الأول بعد وفاة الإسكندر ، وبلغت أمبراطورية البطالسة أقصى اتساعها وعظمتها فى عهد بطليموس الثالث . وكان أهم تلك الأقاليم وأطولها بقاء تحت سيطرتهم : قبرص ، وبرقة ، وجنوب سورية وفلسطين ، وفينقيا ، كما أن كيليكيا وپامفيليا ، وليسيا . وكاريا ، وعصبة السيكلاديس بقيت سنين طويلة جزءا من إمبراطورية البطالسة . وفضلا عن ذلك حكمت مصر لمدة وجيزة جزءا من تراقيا وغاليبولى، بل تسنى لها فى وقت ما أن تبسط نفوذها على جزء من البلوبونيز (راجع خريطة أمبراطورية البطالسة) . وعندما ارتقى بطليموس الرابع العرش كانت لمصر إمبراطورية واسعة ، خف للدفاع عنها يوم تهددها أنتيوكس الثالث ملك بابل وسورية . ومن أجل ذلك أعاد بطليموس الرابع تنظيم الجيش، وأدمج فيه للمرة الأولى بعد تجربة بطليموس الأول فى بداية حكمه عددا كبيرا من المصريين يعزى إليهم الفضل الأكبر فى الانتصار فى موقعة رفح ، فى عام ٢١٧ على جيوش أنتيوكس الإغريقية .

أخذ ساعد أنتيوكس يشتد بعد موقعة رفح ، حتى أفزعت مطامعه مصر التى كان قد داخلها الانحلال ، فعملت على التقرب من مقدونيا وروما ، إلا أن ذلك لم يحل دون ضياع أغلب ممتلكاتها الخارجية فى عصر بطليموس الخامس

(٢٠٣ - ١٨١) حتى إنه لم يبق لها سوى قبرص وبرقة ، بل لم يبق لها سوى ظل الاستقلال بسبب توغل نفوذ روما فيها . ومنذ ذلك الوقت حتى وفاة بطليموس الثامن (Lathyros) فى عام ٨٠ ق . م ، كانت سياسة البطالسة الخارجية مقصورة على محاولة استرداد جنوب سورية وفلسطين من أسرة سليوكس (ملوك بابل وسورية) ، لكن لم ينجح البطالسة فى هذه المحاولة ، وفقدوا أيضاً برقة فى عام ٩٦ . ومنذ وفاة بطليموس الثامن أصبح مصير مصر متعلقا بمصير الصراع الحزبى فى روما ، ولم يكن للبطالسة هم سوى الاحتفاظ بملكهم فى مصر ، إلا أن كيلوبترا لعبت دوراً فى حروب روما الأهلية كادت تجنى من ورائه إمبراطورية



واسعة على حساب الرومان ، لكن ذلك لم يؤد إلا إلى الصراع الذى تمخض عن القضاء على دولة البطالسة .

وتعتبر موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذى بلغت فيه دولة البطالسة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، والعهد الذى أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب إليها ، حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها ، ففقدت أملاكها فى الخارج ، وتزعزع سلطانها فى الداخل ، وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات ، إلى أن انتهى بها الأمر إلى أفول نجمها وزوال استقلالها . ويعزى هذا الاضمحلال إلى عاملين هامين :

(الأول) ضعف السلطة المركزية واختلال نظام الحكم فى عهد بطليموس الرابع والخامس ، فتمخض ذلك عن خطرين واهمين . أما الخطر الأول فهو انتعاش روح الثورة بين المصريين ، فإن الدور الذى قاموا به فى موقعة رفح أعاد إليهم الثقة بأنفسهم ، فلم يتهيبوا الوقوف فى وجه الحكومة ، ثائرين على ما كانوا يلقونه من صنوف الضغط والإرهاق . وتعددت الثورات منذ عام ٢١٦ حتى شغل البطالسة بأمرها ، إلى أن قضى عليها بطليموس الثامن (Lathyros) فى عام ٨٨ بتخريب طيبة التى كانت مهد الفتن ومعقل الثائرين . أما الخطر الثانى فهو لاعتداء على ممتلكات مصر الخارجية . إذ كان ضعف السلطة المركزية واشتغال مصر بثوراتها غير مشجع لذوى المطامع أعدائها منهم والحلفاء ، فاستولى فيليب الخامس ملك مقدونيا على ممتلكات مصر فى تراقيا وغاليبولى ، كما استولى انتيوكس الثالث على جنوب سورية وفلسطين ، وأعقب ذلك باستيلائه على كل ممتلكات مصر فى آسيا الصغرى ، بل إن أنتيوكس الرابع غزا مصر نفسها ، ولم ينقذها منه سوى وقوف روما فى وجهه.

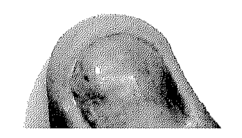
(الثانى) ظهور عامل هام فى الأفق السياسى لدول شرق البحر الأبيض ، وهو ازدياد نفوذ روما المتواصل ، ولاسيما بعد فراغها من الحرب البونية الثانية ، وخروجها منها فائزة ، بالقضاء على قرطجنة فى عام ٢٠٢ ق . م . ولو أن خلفاء الإسكندر فى شرق البحر الأبيض أدركوا تماما مغزى الصراع بين روما

وقرطجنة ـــ ذلك الصراع الذى كان من أجل سيادة العالم ـــ وكان فى مقدور
أن يتحالفوا على روما ، لقضوا عليها ولم تقض هى عليهم واحداً بعد آخر
لكنهم أعطوا روما الفرصة لتتحالف مع الأغريق وتشجع نشوب الثورة
بلادهم على مقدونيا ، وبذلك شلت يدها عن مساعدة هنيبال عند ما كان يطر
أبواب روما . فكان ذلك فاتحة اهتمام روما بشئون الدول الشرقية .

أما علاقات مصر بروما فقد بدأت فى عهد بطليموس الثانى ، وكانت
مقصورة على تبادل المجاملات دون أن تسعى إحداهما إلى التقرب من الأخرى
وظلت كل منهما مستقلة عن الأخرى فى سياستها وعلاقاتها الخارجية حتى عصر
بطليموس الخامس عند ما أخذ يزداد نفوذ روما فى مصر ، ولعل من أكبر
ماساعد على ذلك عاملين :

(الأول) المخاطر التى استهدفت لها مصر من قبل فيليب الخامس ، وأسرة
سليوكس بوجه خاص ، مما دفع مصر إلى الارتماء فى أحضان روما منذ بداية
القرن الثانى قبل الميلاد . وقد قضت روما على فيليب فى عام ١٩٧ ، لكنها
تناصب أسرة سليوكس العداء إلا فى عام ١٩٦ حين نصبت نفسها حامية لحرية
الإغريق وأملاك بطليموس الخامس المسلوبة . ومنذ ذلك الحين لم يبق لأسرة
سليوكس والبطالسة من الاستقلال إلا الاسم ، إذ أصبحت روما تسيطر على
سياستهما بطريق الإيعاز أو التهديد . إلى أن أدمجت دولتيهما فى أمبراطوريتها

(الثانى) ظهور روح التنافس واستحكام النزاع بين أفراد أسرة البطالسة
منذ عهد بطليموس السادس ، ذلك النزاع الدموى الذى كانت تذكى روما نار
أحياناً ، والذى سجل التاريخ صفحة حوادثه بين أقسى وأروع ماسجله عن أمراء
أعمت أبصارهم وأضلت بصائرهم ألوان الترف والنعيم التى شبوا فى أحضانها
وأفسدت نفوسهم وألهبت شهواتهم مظاهر السلطة المطلقة التى نشئوا فى كنفها
وضروب الخلاعة والاستهتار التى عاشوا فى ظلها ، فكانوا مزيجاً من الرذائل
التى تتولد فى جو فاسد مسمم ، قوامه سلطان لا يحد ، وشعب ذليل مستكين
يكاد لايملك حق التألم ، وحاشية فاسقة لا تعنى بغير اللهو والقصف وجرثومة



عليلة منكرة هى ثمرة تزاوج الإخوة بأخواتهم ، فلا عجب أن انكشف هذا كله عن جرائم قد لا تقل بشاعة ووحشية عما ارتكبه تيبريوس ونيرون . وأن استغلت روما هذه الحوادث لبسط نفوذها على مصر .

إن الثورات الداخلية والمنازعات بين أفراد الأسرة المالكة قد دبت فى عظام مصر ، فنهكت حيويتها ، وهدت قواها . حتى خرت آخر الأمر فريسة لروما فى عام ٣٠ ق . م . لكن ليس أدل على الحيوية الكامنة فى مصر من أنها استطاعت أن تقاوم كل هذه القوى الهادمة مدة طويلة ، وكانت آخر مملكة فى شرق البحر الأبيض طأطأت الرأس أمام قوة روما

٣ — سياسة البطالمة الداخلية :

عرفنا أن مصر كانت جزءاً من إمبراطورية الإسكندر التى اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى ، ليبعثوا من جديد تلك الإمبراطورية لمنفعتهم الخاصة ، ولذلك رأى بطليموس الأول ضرورة تكوين جيش وأسطول قويين يمكنانه من الذود عن حياض مملكته ، ومن سد حاجاتها ، كما رأى سلامته فى الاعتماد على رجال مقدونيين أو إغريق فى تكوين الجيش والأسطول ، لثقته فى مقدرتهم وبسالتهم ، فإنه كان يخشى تجنيد المصريين ، لارتيابه فى كفايتهم الحربية ، أو فى إخلاصهم الطاعة له ، أو لخوفه أن يحيى بذلك الأمة المصرية يوم استولى عليها الاضمحلال .

ولما كان عدم استقرار الحالة فى مصر خلال القرن الرابع قد أدى إلى اضطراب الإدارة ، وتدهور الزراعة والصناعة والتجارة . وكانت مشروعات البطالسة الخارجية تتطلب نفقات طائلة ، لم يكن فى استطاعة حال مصر الاقتصادية (على ما كانت عليه إذ ذاك) توفيرها ، فقد كان ضروريا أن يعاد تنظيم شئون مصر الإدارية والاقتصادية . وكان طبيعيا أن يُعتمد فى ذلك على رجال إغريق ورءوس أموال إغريقية . أضف إلى ذلك أن بطليموس كان أحد رجال

الإسكندر الأكبر ، الذى كان همه الأول نشر الحضارة الإغريقية ، التى بلغت إذ ذاك ذروة المجد ، على حين كان نجم الحضارة الفرعونيـة قد أفل . فكان طبيعيا أيضاً أن يرمى بطليموس إلى تشييد مملكته الجديدة على أسس تلك الحضارة التى كانت تسود العالم إذ ذاك . من أجل ذلك فتح البطالسة أبواب مصر للإغريق وتابعوا عليهم المنح والامتيازات ، فهرعوا إليها زرافات ووحدانا ، وأعقبهم كثيرون من سكان آسيا الصغرى وسورية ، وإذا أضفنا إلى ذلك العبيد الذين أسروا فى الحرب أو استحضروا من آسيا أو إفريقية ، أمكننا أن نتخيل الخليط الذى تكوّن منه العنصر الأجنبي فى مصر .

حقا كانت مصر جزءاً من الإمبراطورية المقدونية ، إلا أنها كانت قبل كل شيء بلداً يعتز بحضارته الفرعونية ونظمه الموروثة . لقد وفد إلى ضفاف النيل فئة كبيرة من الأجانب ، لكن هؤلاء كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى أهل البلاد الذين استمروا يعيشون كما عاش أجدادهم من قبل . فإذا كان البطالسة قد شملوا الإغريق بعطفهم ، فقد كان لزاما عليهم ألا يغفلوا المصريين البتة من حسابهم .

لقد كان البطالسة سادة مصر بحق الفتح ، فلكى يكون سلطانهم دائماً وسيادتهم راسخة ، رأوا ضرورة اكتساب ولاء الجيش والأجانب والمصريين ، لأن سياستهم كانت ترمى إلى تكوين مملكة قوية غنية ، شعارها الحضارة الإغريقية ، ودعامتها أبناء مقدونيا وبلاد اليونان ومصر .

أما الجيش فكان مفروضاً عليه الطاعة للملك بحكم نظمه الحربية ، لكن كان هناك عاملان آخران يضمنان هذه الطاعة : مرتبات رجال الجيش التى كانوا يتقاضونها من الملك ، والمركز الممتاز الذى اختصهم به الملك فى حياة البلاد . أما الأجانب عامة فكانوا أيضاً يدينون للبطالسة بالامتيازات التى منحوهم إياها ، لكن لما كانت غالبيتهم رجالا أحراراً نشئوا فى جمهوريات اعتادوا الاشتراك فى حكمها ، وكانت مصر فى عهد البطالسة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ، لجأ البطالسة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق إلى وسيلتين :

يتمتعون بنفوذ كبير بين الناس ـ خطراً يهدد سلطانهم ، ولم يغير البطالسة نظام القساوسة المصريين ، بل أبقوه على ما كان عليه من قبل ، ولكن لكيلا يستغلوا مركزهم بين الناس ، فيكونوا أداة لنشر روح التمرد فى البلاد . وضعهم البطالسة فى قبضتهم .

ولما كان بطليموس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على اشتراك المصريين والإغريق معاً فى العمل على تقدم مرافق البلاد ، رأى من الضرورى أن يؤلف بين هذين العنصرين . ولما كان يعرف أن الإغريق قد حملوا معهم دياناتهم ومذاهبهم ، وأن للمصريين ديانة موروثة راسخة القدم ، وجه همه إلى التغلب على النفور الدينى الذى كان يعوق الألفة بينهم ولا شك ، بإيجاد ديانة جديدة تربط بين هذين العنصرين المختلفين . وللحصول على هذه الضالة المنشودة اتفق بطليموس ومستشاراه (رجل أثينى حجة فى الديانة الإغريقية يدعى تايموثيوس «Timotheus» ، وكاهن مصرى من أعلام الديانة الإغريقية يدعى مانثو «Manetho») على تكوين ثالوث مقدس يتألف من سيرابيس وإيزيس وهربوكراتس ، وهى كلها آلهة مصرية أظهروها للإغريق فى ثوب يتفق مع آرائهم ومعتقداتهم الدينية . لقد نجحت الديانة الجديدة من حيث فوزها بعدد كبير من الأتباع والأنصار ، لكن يقاس نجاحها الحقيق بمقدار ما أفلحت فى تأدية الغرض المنشود من إقامتها ، وهو ربط المصريين والإغريق بإزالة الفوارق ، أو على الأقل تضييق شقة الخلاف بين معتقدات كل من الفريقين . حقا كان المصريون يعبدون آلهة الثالوث المقدس ، ولكن فى ثوبها المصرى ، ولأنها كانت فى عداد الآلهة التى ظلوا على ولائهم لها . وكذلك اعتنق الإغريق ديانة هذا الثالوث ، لأن آلهته قدمت لهم فى ثوب إغريقى ، بل على أنها نظراء لآلهتهم الإغريقية . ولم يقف الإغريق عند ذلك الحد ، بل كانوا يعبدون آلهة مصرية أخرى ، بعضها بأسماء إغريقية ، وبعضها بأسمائها المصرية . وليس من العسير تعليل احترام الإغريق لآلهة المصريين ، فقد أدخل على عقولهم أن تلك الآلهة كانت لا تختلف فى شىء عن آلهتهم ، فضلا عن أنهم

كانوا يعتبرون أنفسهم ضيوفاً على البلاد ، فكانوا يرون من الحزم أن يستجدوا عطف الآلهة التى تشملها بالرعاية . إلا أن الإغريق حينما كانوا ينزلون فى كثرة فى المدن الاغريقية أو فى غيرها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم الإغريقية ، مثل زيوس وأبولو وديمتر . ويكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية للإغريق كانت عبادة آلهتهم القديمة . التى ظلوا على تمسكهم بها مدة طويلة ، حتى بعد عصر البطالسة . ولاشك أن الديانة الجديدة تمتعت برواج عظيم ، لكن لما كان ذلك الرواج نتيجة لايحاء الحكومة . وكانت تلك الديانة ديانة مفتعلة ، وكان البطالسة قد أباحوا حرية الديانة لسائر رعاياهم ، وكانت الديانة الحقيقية لكل من المصريين والإغريق لاتزال تختلف إحداها عن الأخرى فلا عجب أن كانت الديانة الجديدة غير محققة للغرض المنشود من إقامتها .

حقا حاول البطالسة الأوائل اكتساب ولاء العناصر المختلفة التى كانوا يحكمونها لكن لاريب أن كل عطفهم كان موجها نحو الإغريق الذين اتخذوا منهم العماد الأول لحكمهم ، فرحبوا بهم ، وأجزلوا لهم الامتيازات والعطايا والهبات على اختلاف أنواعها . أما فيما يختص بالمصريين فقد ظن هؤلاء البطالسة أن نصب أنفسهم فراعنة كان يبيح لهم معاملة المصريين كما يتراءى لهم ، فاحتقروا أهل البلاد ، ولم يروا فيهم سوى آلات يسخرونها لمنفعتهم ، حتى إنهم لم يقفوا عند حد فى استغلال المصريين وإرهاقهم بشتى التكاليف ، وليس من العسير أن نتصور شقاء المصريين ، فإنهم لم يكونوا خاضعين لملوك غرباء فحسب ، بل لجنس غريب تغلغل فى جميع نواحى حياة البلاد .

ولا أدل على تذمر المصريين من عدد الإضرابات التى تحدثنا عنها الوثائق القديمة ، فقد كان العمال والزراع والموظفون يُضربون عن أعمالهم ، ويلجئون إلى المعابد لحمايتهم . ولقد كانت روح التذمر تجيش فى صدور المصريين ، لكنهم كان ينقصهم حافز يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، ويشجعهم على الوقوف فى وجه مغتصبى بلادهم ، فصبروا على بلائهم كارهين ، إلى أن أشعل جذوة الوطنية فى صدورهم النصر المبين الذى أوتوه فى معركة رفح . بدأت الثورات منذ عام ٢١٦

فى الدلتا . ولم يأت عام ٢٠٦ حتى كانت الثورة قد بلغت أشـدها ، وامتد لهيبها إلى مصر الوسطى ومصر العليا ، حيث كان يذكى نارها أمير نوبى يدعى هارماخس (Harmachis) . وبقيت نار الثورة مستعرة حتى أخمدت فى مصر العليا ومصر الوسطى فى بداية حكم بطليموس الخامس . لكن لم يسد الهدوء هناك طويلا ، فإن أنخماخس (Anchmachis) أشعل نار الثورة ثانية ، وبقيت متأججة حتى هزم فى عام ١٨٦ . أما فى الدلتا فإن الثورة لم تضع أوزارها منذ نشوبها إلا عندما أخضعت سايس فى عام ١٨٣ . ولم يكد بطليموس السادس ينجو من شبح أنتيوكس الرابع المخيف ، بفضل تدخل روما ، حتى واجه فى عام ١٦٦ الثورة التى قام بها زعيم وطنى يدعى ديونيزيوس بتوسيرابيس (Dionysios Petoserapis) ، فقد حاول أن يستغل الشقاق الأسرى بين بطليموس السادس وأخيه ، لينقذ المصريين من مغتصبى بلادهم ، لكن التوفيق بين الأخوين أفسد على ديونيزيوس خطته . ومكن بطليموس السادس من القضاء عليه . غير أن أصداء تلك الثورة تجاوبت فى أنحاء البلاد ، فاضطر بطليموس السادس إلى القيام بحملة حتى النوبة . ولم تهدأ الثورة إذ ذاك إلا لتتجدد ثانية فى عهد بطليموس الثامن ، الذى رأى الطريقة المثلى لاستئصال دابرها فى القضاء على طيبة ـ العاصمة المصرية القديمة ـ التى كانت دائما مهد الثورات ، ومعقل الثائرين ، فلم يتردد فى الاستيلاء عليها وتخريبها فى عام ٨٨ . وبذلك خرج المصريون من كفاحهم الطويل يجرون أذيال خيبة كانت محتومة ، لأن جيوشهم وجيوش أصدقائهم النوبيين كانت تفتقر إلى ما كان للإغريق من العدد والعدد .

ولا تتعاش الروح القومى بين المصريين اضطر البطالسة إلى النزول عن كبريائهم وجبروتهم ، والنظر بعين جديدة إلى المصريين ، فأخذوا يتبعون منذ أيام بطليموس الرابع سياسة جديدة فى حكم المصريين ، ترمى إلى اكتساب عطفهم والتودد إليهم ، فسمحوا للمصريين بتقلد المناصب الكبرى ، وزادوا

فى حقوق رجال الدين وأراضى المعابد، وأحيوا طبقة المحاربين المصريين، وزادوا مساحة إقطاعاتهم، ونقصوا مساحة إقطاعات الإغريق، وكفوا عن منحهم ضيعات واسعة، وأقاموا معابد كبيرة للآلهة المصرية. واتخذوا من منف عاصمة ثانية، وتوجوا أنفسهم على نهج الفراعنة القدماء. لكن لم يفلح كل ذلك فى تكوين دولة قومية مصرية إغريقية، فقد حال دون ذلك النظام المالى الذى وضعه البطالسة الأوائل، ولم يشأ أن يتعرض له البطالسة الأواخر، بسبب ما كان يدره عليهم من الخيرات .

٤ — نظم الحكم فى مصر فى عهد البطالسة :

(ا) النظام الإدارى :

كان البطالسة ينظرون إلى مصر على اعتبار أنها ضيعة أصبحت ملكا لهم بحق الفتح وبحق الملوك الإلهى. فلضمان سلامة هذه الضيعة من الاعتداء الخارجى، ولسد حاجتها، أنشأ البطالسة جيشاً وأسطولا قويين. ولضمان استدرار أوفر الخيرات من هذه الضيعة شرعوا لها من النظم ما يكفل لهم السيطرة عليها. وحسن الإدارة فيها. ولذلك نرى الملك على رأس السلطة المركزية فى الإسكندرية، ونرى هذه السلطة المركزية تشرف على السلطة المحلية فى طول البلاد وعرضها. ولما كان أول هم للملك أن تفيض عليه ضيعته بالبركات، كان ضرورياً أن يعنى بمرافق البلاد الاقتصادية، وأن تدفع الضرائب بانتظام. وأن يستتب الأمن وتطبق القوانين، ولذلك كانت السلطة المركزية تتكون من الملك ووزير المالية ووزير العدل .

كان الملك مصدر جميع السلطات، والمرجع الأول والأخير فى تنفيذ القوانين، فكانت تستمد منه السلطتان المركزية والمحلية نفوذهما، وإليه نفسه كانت توجه الشكاوى والالتماسات، ومنه خاصة كان يصدر كثير من الأوامر. وكان المساعد الأول للملك فى إدارة البلاد وزير المالية (Dioiketes) الذى كان بعد الملك رئيس الحكومة بأجمعها، المسئول عن مرافق البلاد الاقتصادية،

(إحداهما) أن جعل بطليموس الأول عبادة الإسكندر دينا رسميا فى مصر، له كاهن يعين كل سنة، وتؤرخ باسمه الوثائق الرسمية. ولما كان بطليموس خليفة الإسكندر فى مصر أصبحت سلطته مستمدة من مصدر إلهى، ولذلك حق له أن يتمتع بالسلطة الشاملة المطلقة فى مملكته. إلا أن بطليموس الثانى لم يقف عند هذا الحد فى سبيل توطيد سلطان أسرته، إذ أنه رفع أباه وأمه إلى مرتبة الآلهة، وأقام المعابد لعبادتهما، وحفلا رياضيا كل أربعة أعوام تكريما لهما؛ ولم يلبث بعد ذلك أن نادى بنفسه وزوجه إلهين، يقيم شعائر دينهما كاهن الإسكندر. ومن ذلك الحين أصبحت عبادة الملك وزوجه منذ تبوئهما الحكم تقترن بعبادة أسلافهما، وعبادة الإسكندر، فنشأت ـ على مر السنين وتعاقب ملوك البطالسة وملكاتهم ـ سلسلة جديدة من الآلهة. لكن بطليموس الرابع لاحظ أن هذه السلسلة بدأت ببطليموس الثانى وزوجه، لأن بطليموس الأول وزوجه لم يعبدا رسمياً فى حياتهما، على حين كان من حق مؤسس الأسرة وزوجه أن يكونا فى المقدمة، ولذلك وضع اسميهما على رأس سلسلة البطالسة المتألهين. ويلاحظ فيما تقدم أن العبادة كانت مقصورة فى أول الأمر على أشخاص يرفعون إلى مرتبة الآلهة بعد وفاتهم، ثم تدرج الحال إلى عبادة أشخاص يُرفعون إلى مرتبة الألوهية فى حياتهم، ويحتفظون بها بعد مماتهم.

(الأخرى) أن اقتفى البطالسة الأوائل أثر منافسيهم ملوك سورية المقدونيين فى محاولة تبرير سلطانهم المطلق بآراء فلسفية، إذ يحتمل أنهم أوحوا إلى الفلاسفة بأن يعالجوا الملكية فى رسالات يمتدحون فيها سلطان الفرد المطلق، فقد أظهر الفلاسفة الملوك فى ثوب المنقذين والمصلحين، الذين وجهوا خدماتهم لرفعة بلادهم، فنشروا العدالة، ومهدوا السبل لتقدم العلوم والفنون، ورادفوا النعم على الإغريق، وصدوا الأعداء عن البلاد، وأحسنوا معاملة الرعية، وأخلصوا فى عبادة الآلهة، وباختصار أثبتوا أنهم ملوك عادلون وليسوا طغاة مرهقين.

أما لاكتساب ولاء المصريين فقد رأى البطالسة أنه لابد لهم من اتخاذ صفة الفراعنة كى يرتفعوا بذلك إلى صف الآلهة المصرية، فإن المصريين كانوا

يعتقدون أن الفرعون يحكم فيهم لأنه إله بشرى، أى لأنه حلقة الاتصال الوحيدة بين آلهة السماء وعباد الأرض، وبدونه كانت الديانة المصرية تفقد الحلقة الأساسية فى الاتصال بين الناس والآلهة. ولذلك يصعب علينا أن نعتقد أن بطليموس الأول عند مانادى بنفسه ملكا لم يقتف أثر الإسكندر، ويتخذ هو أيضا ألقاب الفراعنة، وإذا كان الشك يخالجنا فى تصرفات بطليموس الأول فى هذا الأمر، فلا مجال لهذا الشك فيما يتعلق ببطليموس الثانى وخلفائه، لكن الأرجح أن بطليموس الخامس كان أول من توج من البطالسة على نهج الفراعنة.

لم يدخر البطالسة وسعاً فى أن يظهروا أمام المصريين كخلفاء للفراعنة القدماء، فإنهم قبلوا الديانة المصرية كما كانت عليه، ووطدوا الصلة التى كانت تربط حكومة البلاد بديانتها، لكن على رغم مجهودات البطالسة فى هذه الناحية، لم تطمئن قلوب المصريين إلى هؤلاء الفراعنة الجدد، ولم يعتقدوا أنهم فراعنة حقا، بل لم يروا فيهم إلا دخلاء مغتصبين، ولم يعتبروا الإسكندرية عاصمة بلادهم، فكانوا يتوقون إلى ملك وطنى، وعاصمة وطنية، كما نستخلص من التنبؤات التى تتحدث عن تحرير مصر وإعادة العاصمة إلى منف. ويخيل إلينا أن البطالسة أنفسهم شعروا بأن نصب أنفسهم فراعنة لا يكفى وحده لاكتساب ثقة المصريين وولائهم، ولذلك رأوا حتما عليهم أن يوطدوا صبغتهم الاسمية بدلائل مادية. ومن أجل هذا نجد أنهم أجزلوا العطايا لإقامة شعائر المذاهب المصرية المختلفة، وحذوا حذو الفراعنة فيما قاموا به من إصلاحات أو إضافات أو زخرفة فى المعابد. لكن لم تكن منشآت البطالسة الدينية فى بداية الأمر سوى منشآت ثانوية، ولم يكن عرضاً أن أغلب المعابد المصرية الكبرى التى شيدها البطالسة فى أدفو ودندرة وإسنا وكوم امبو وفيلا، لم تبدأ إقامتها إلا بعد النصر الذى أوتيه المصريون فى موقعة رفح.

وبينما كانت الديانة المصرية موضع كل عطف وإجلال من البطالسة، وجد رجال الدين أنفسهم مقيدين بأغلال من القوانين كسرت شوكتهم، وافترضت عليهم الطاعة لحكام البلاد، فقد رأى البطالسة فيهم ـ على اعتبار أنهم زعماء دينيون

أن مشروعات البطالسة الأوائل الخارجية قد كلفتهم نفقات طائلة ، وتمخضت عن ولايات عادت على مصر بخيرات وفيرة ، لكن تلك الخيرات كانت من نصيب خزانة الدولة وحدها ، ولم يجن منها أهل البلاد شيئاً مذكوراً .

وإذا كانت موارد مصر الاقتصادية قد نمت فى القرن الثالث بفضل مجهودات البطالسة الأوائل ، فإن ضعف البطالسة منذ أيام بطليموس الرابع ، الذى أفضى إلى ضياع ممتلكات مصر فى الخارج ، وفساد الإدارة ، واضطراب الحالة فى الداخل ، قد أدت بطبيعة الحال إلى تناقص مواردها . وتدهور حالتها الاقتصادية ، لكن من المحتمل أنه على رغم ذلك كان ملوك مصر لا يزالون إذذاك أغنى ملوك العالم . وإذا كانت مشروعات البطالسة الأوائل الخارجية كلفتهم نفقات طائلة ، فإن البطالسة الأواخر أنفقوا أيضاً مبالغ كبيرة فى محاولة الاحتفاظ بعرشهم . وعلى كل حال فإن البطالسة ، الأوائل منهم والأواخر ، كانوا يعتبرون مصر ضيعة لهم ، فعملوا جهد طاقتهم وبقدر ما سمحت لهم الظروف ، على تنمية مواردها وامتصاصها ، دون أن يفعلوا شيئاً لتحسين حالة المصريين ، وهم الذين كانوا الوسيلة الكبرى فى غناهم .

أما وقد رأينا أن سياسة البطالسة الاقتصادية كانت ترمى قبل كل شىء إلى تكوين دولة قوية غنية ، فلا عجب إذا عرفنا أن نظامهم المالى أثقل كاهل الأهالى ولما كان البطالسة يعتبرون أنفسهم أصحاب جميع أراضى مصر بحق الفتح ، وطبقاً لحق الملوك الإلهى وكان أول همهم استغلال هذه الأراضى على أتم وجه قسموها جميعاً قسمين : الأراضى الملكية ، والأراضى الموهوبة . أما الأراضى الملكية فكانت تقسم إلى مساحات صغيرة تؤجرها الحكومة بالمزاد العلنى ، فى مقابل الجانب الأكبر من المحصول ، وبشروط قاسية ، حتى إن الزراع المصريين الذين كانوا يقومون بفلاحة أغلب هذه الأراضى ، لم يكونوا فى الواقع أحسن حالا من العبيد ، وإن كانوا قانونا زراعا أحرارا . أما الأراضى الموهوبة فكانت أربعة أنواع : (١) أراضى المعابد (٢) إقطاعات الجنود (٣) أراضى العطاء أو المنح (٤) أراضى الامتلاك الخاص .

ولما كان البطالسة أصحاب أراضى مصر كلها ، فإنهم فى الواقع لم يمنحوا أرباب الأراضى الموهوبة سوى حق استغلالها مقابل ضريبة معينة . وتمتاز أراضى الامتلاك الخاص بأن الشخص القائم على استغلال الأرض كان يحل له أن يهب حق استغلالها لسواه ، أو أن يبيعه إياه ، أوأن يرهنه له . كما أنه كان يورث أولاده ذلك الحق من بعده . أما أراضى العطاء فإنها كانت تسترد بعد وفاة أصحابها . وكان الملك حتى آخر القرن الثالث يسترد أيضاً إقطاع الجندى عند وفاته ، ليمنحه غالبا لابن الشخص المتوفى إذا كان صالحاً للخدمة ، وفى أواخر القرن الثالث تقرر أن يستولى ابن صاحب الإقطاع على إقطاع أبيه عقب وفاته مباشرة ، لكنه كان لايحق له أن يستولى على محصول الأرض إلا بعد أن يتم تسجيل انتقال الملكية إليه ، ويحتمل أن هذا الحق امتد فى القرن الأول إلى أقارب الشخص المتوفى إذا لم يكن له أبناء . وكان أرباب الأراضى الموهوبة يقومون على استغلالها فيما عدا أراضى المعابد ، فقد أسند البطالسة إدارتها إلى الحكومة لكى يخضعوا القساوسة لنفوذهم .

ويمكن تلخيص أوجه انتفاع الدولة من الزراعة :

(أولا) فى استغلال الأراضى الملكية .

(ثانياً) فى تحويل مساحات كبيرة من الأراضى البور إلى أراض منتجة كانت تفرض عليها الضرائب نتيجة لاستغلالها .

(ثالثاً) فى الضرائب ، وكانت تختلف قيمتها تبعاً لاختلاف نوع المحصول وجودة الأرض وحالة فيضان النيل .

(رابعاً) فى استغلال المراعى ، فقد كان التاج المالك الوحيد لأراضى المراعى وصاحب الحق فى استغلالها . فمن شاء الانتفاع بها دفع ضريبة معينة ، بل كانت تفرض ضريبة على من زرع علفاً لماشيته بعد انتهاء المحصول . وفى هذه الحالة كان حتما عليه أن يسلم للدولة ما يزيد من العلف على حاجة ماشيته .

(خامساً) فى احتكار غلة الأرض التى تزرع كتاناً أو نباتات زيتية ، فقد كانت الدولة تحدد كل عام مساحتها ، وتحتم بيع المحصول لها بسعر معين ، لأنها

وشئونها المالية ، وما يقتضيه ذلك من حسن تصريف شئون الدولة الإدارية .
وكان المساعد الثانى للملك وزير العدل ، (Archidikastes) الذى لا نعرف مهام وظيفته على وجه التحقيق ، وإنما نرجح أنه كان يعين بعد موافقة الملك قضاة المحاكم المختلفة ، ويحضّر القضايا التى كان يفصل فيها الملك عند ما يستأنف المتقاضون إليه من الأحكام الابتدائية .

أما السلطة المحلية فقد كانت تتكون من حكام المديريات التى كانت تنقسم إليها الدولة ، فإن البطالمة أخذوا عن الفراعنة نظام تقسيم البلاد إلى مديريات ، فقسموا الدلتا ووادى النيل ـ فيما عدا المناطق التى خصصت للمدن الإغريقية ـ إلى مديريات كان كل منها يكوّن وحدة إدارية منفصلة عن الأخرى . وكان يحكم كل مديرية (Nome) عند الفتح المقدونى مدير مصرى (Nomarch) ، وقد استبقى الإسكندر المديرين المصريين فى مناصبهم . لكن من المحتمل أنه عند ماولى بطليموس حاكما على مصر ، شرع من النظم مايشير بجلاء إلى احتلال البلاد بسلطة عسكرية أجنبية ، فكوّنت كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها قائد (Strategos) ومدير (Nomarch) . ولما كان من اختصاص القائد الإشراف على شئون المنطقة العسكرية والمدنية جميعاً ، أصبح المدير مرءوساً للقائد وتضاءلت أهميته ، حتى إننا لا نسمع عنه شيئاً على الإطلاق فى القرن الثانى . وكان يساعد القائد فى إدارة شئون مديريته الكاتب الملكى ، الذى يعتبر الساعد الأيمن للقائد ، فقد كانت توكل إليه مراقبة سير أعمال الحكومة ، وإعداد قوائم دافعى الضرائب ، والتقارير الخاصة بحالة الحاصلات . وكان يوجد أيضاً وكيل المديرية الذى يختص بالشئون القضائية ، ورئيس الشرطة وممثلو الإدارة المالية المركزية فى المديرية . وكانت كل مديرية تنقسم إلى أقاليم (Topoi) ، كل منها تحت إمرة (Toparch) ، كما كان كل إقليم ينقسم إلى قرى (Komai) ، يحكم كلا منها (Komarch) . وكان موظفو الأقاليم والقرى عبارة عن صورة مصغرة لموظفى المديريات . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أننا نسمع منذ القرن الثانى قبل الميلاد أن كلا من العاصمتين المصريتين القديمتين منف وطيبة كانت

تحت سلطة حاكم خاص يسمى (Hypostrategos) ،وأن إقليم طيبة الذى كان يمتد من مديرية هرموبوليس إلى أسوان كان تحت سلطة حاكم يدعى أحياناً (Epistrategos) ، وأحياناً أخرى (Strategos) .

أما المدن الإغريقية فى مصر ، وهى الإسكندرية ونقراطيس وبطوليميس (Ptolemais) فإنها كانت خارج نفوذ السلطة المحلية ، وتخضع لنظم تختلف عن نظم سائر المدن الأخرى فى مصر ، إذ كان أغلب سكانها من الإغريق ، فسمح البطالسة لهذه المدن بنظم تتمشى مع سبل الحياة الاغريقية ، ليتمكن إغريق مصر من الاحتفاظ بإغريقيتهم ، لأنهم كانوا العماد الأقوى الذى يستند البطالسة إليه فى حكمهم .

كانت الإسكندرية مقر البلاط وعاصمة مصر ، لكننا نجد من العسير أن نعرف إلى أى حد كانت تنعم بالنظم السياسية التى كانت تمتاز بها المدن الإغريقية الحرة (City - States) ، بل لاندرى أكانت الإسكندرية تحظى بمظاهر الحكم الذاتى ، وحتى إذا كان الأمر كذلك فإننا لانشك أن عنان ذلك الحكم كان فى يد الملك . وبرغم أننا نعرف أنه لم يكن للإسكندرية مجالس نيابية فى أوائل العصر الرومانى، نظن من المحتمل أنها تمتعت بهذه المجالس حتى اضطر البطالسة إلى تغيير سياستهم ، فألغوا هذه المجالس ، ليجعلوا الإغريق الذين كانوا دعامة حكمهم أكثر خضوعا لهم . وعلى كل حال كان للإسكندرية حكام محليون يرجح أنهم كانوا يختارون من مواطنى العاصمة ، الذين كانوا يتمتعون بالحقوق المدنيـة فيها . وينقسمون إلى قبائل وعشائر ، كما كانت الحال فى كافة المدن الإغريقية .

أما نقراطيس — المدينة الإغريقية القديمة التى تأسست فى عهد بسامتيك الأول — فقد احتفظت بنظمها كمدينة إغريقية حرة ، ويحتمل أنها استبقت دستورها الذى كان يشبه دستور مَسِّليا ، ويمتاز بمجلس أرستقراطى . وجدير بالذكر أن قانون نقراطيس لم يعتبر الزواج بين الإغريق والمصريين زواجاً شرعياً . حقا إن النص الذى ينبئنا بذلك يرجع إلى القرن الثانى بعد الميلاد ،

لكن يرجح المؤرخون أن أصله يرجع إلى تاريخ أكثر قدماً من ذلك ، لأن البطالسة كانوا يحرصون على أن يبق العنصر الإغريقى فى المدن الإغريقية نقيا خالصاً . ولذلك نرجح أن قوانين الإسكندرية وبطوليميس لم تسمح أيضاً بمثل هذا الزواج .

وكانت بطوليميس (المنشاة بالقرب من إخميم) المدينة التى أنشأها بطليموس الأول لتخلد اسمه ، وتكون مهداً للحضارة الإغريقية فى الوجه القبلى . فلا عجب إذا أنبأتنا وثائقها بأنها كانت تتمتع بكل النظم الخليقة بالحياة الإغريقية . لقد كان لها مجلس استشارى ، وجمعية شعبية ، وحكام وقضاة تنتخبهم هيئة المواطنين الذين كانوا ينقسمون إلى قبائل وعشائر ، ويتمتعون بمثل ما كانوا ينعمون به فى بلادهم الأصلية من المعابد والمعاهد والمسارح . وقد كانت بطوليميس شكلا مدينة إغريقية حرة حليفة للملك بطليموس الحاكم ، لكنها لم تكن فى الحقيقة سوى مدينة خاضعة للملك . فإنه كان يشرف على شئونها بالموظفين الملكيين الذين كانت تسند إليهم المراكز الهامة فيها .

وبالرغم مما فى الوثائق التى لدينا من النقص ، فلا شك أن البطالسة وضعوا لمصر نظاماً إداريا دقيقاً . وقد كفل نظام البريد الذى شمل كل أنحاء البلاد وصول رغبات الملك إلى كافة الحكام المحليين وتنفيذها بدقة .

(ب) النظام المالى :

لما كان النظام المالى فى أية مملكة يرتبط كل الارتباط بحالتها الاقتصادية ، كان لزاماً علينا أن نلم أولا بسياسة البطالسة ، وحالة البلاد الاقتصادية قبل أن نعالج نظام مصر المالى فى عصر البطالسة .

لقد وجه البطالسة الأوائل عنايتهم إلى تنمية موارد البلاد الاقتصادية ، فاهتموا بضبط مياه النيل وحسن تصريفها ، وما يقتضيه ذلك من العناية بالترع والجسور، فأمكن زيادة مساحة الأرض التى تزرع واستغلال الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، وأدخلت أنواع جديدة من الفاكهة . وانتعش غرس الكروم والزيتون ، وحولت مساحات واسعة من الأراضى مراعى

لتربية الماشية . ولما كانت مصر منذ أمد بعيد مركزا لعدة صناعات ناجحة طار صيتها فى الآفاق ، لم يدخر هؤلاء البطالسة جهداً فى توفير السبل لاستمرار انتعاش هذه الصناعات وتقدمها . ولذلك اختطوا لأنفسهم سياسة خارجية مكنتهم من استيراد حاجات الصناعة ، وتصدير منتجاتها الزائدة ، كما أنهم لم يدخروا وسعا فى الانتفاع بمواهب الإغريق لرفع مستوى الصناعات المختلفة .
ولم يكن اهتمام البطالسة الأوائل بتجارة مصر الخارجية أقل من اهتمامهم بالزراعة والصناعة ، فقد كانت التجارة الخارجية تلعب دورا هاما فى حياة مصر الاقتصادية، فوضع البطالسة نصب أعينهم أن يحافظوا على الطرق التجارية القديمة ، التى كانت تربط مصر بأواسط إفريقية ، وبلاد العرب والهند وفلسطين وسورية وفينيقيا ودول بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، وأن ينشئوا طرقاً جديدة لتسهل انتشار تجارة مصر ، فوصلت منتجاتها شرقاً حتى الصين ، وغرباً حتى إسبانيا ، وشمالا حتى بريطانيا ، وجنوباً حتى أواسط إفريقية .

أنعشت سياسة البطالسة الأوائل الاقتصادية موارد مصر ، لكنه لم يكن يراد بهذه السياسة منفعة أهل البلاد أنفسهم ، فماذا جنى المصريون من تضاعف مساحة الأرض الصالحة للزرع ، أو ازدياد استغلال الأرض ، أوازدهار الصناعة ، أو رواج التجارة ، إذا كان ازدياد مساحة الأرض يرجع قبل كل شىء إلى توفير أراض للإغريق ، وكان الملك هو صاحب أرض مصر ، والحكومة هى القابضة على ناصية الصناعة ، والإغريق وغيرهم من الأجانب هم أقطاب التجارة والصناعة؟ لقد كان المصريون كالشمعة تحترق لتنير للغير ، ولم يكن نصيبهم سوى نصيب العبد الكسير ، الذى يشقى وينصب ليملأ خزائن سيده بالأموال .

يتفق المؤرخون على أن نفوذ البطالسة الأوائل فى مصر أو فى ولاياتها أو فى السياسة الدولية ، كان يرتكز على استغلال الموارد الاقتصادية فى مصر وولاياتها ، استغلالا منظماً دقيقاً ، فلا عجب أن كانت سياستهم الاقتصادية قد وجهت إلى تحقيق أغراضهم التى كانت ترمى إلى تكوين دولة قوية غنية . ونحن نعرف أن غنى الدولة لا يستتبع دائما غنى رعاياها أو رفاهيتهم . ولا شك

كانت تحتكر صناعة الزيوت والمنسوجات .

أما موارد الدولة من الصناعة فكانت على نوعين :

(أولهما) احتكار بعض الصناعات والحرف مثل الزيوت ، والمنسوجات ، والورق ، والمعادن ، والأحجار ، والملح ، والنطرون ، والمصارف ، المالية وسك النقود ، وغيرها .

(ثانيهما) رسوم الترخيص وضرائب الإنتاج ، وكانت تفرض على أرباب الحرف والصناعات التي لم تدخل ضمن دائرة احتكار الحكومة . فقد كان لزاماً على صاحب كل حرفة أو صناعة منها أن يحصل على ترخيص يؤدى عنه الرسم المقرر ، وكان عليه فوق ذلك أن يدفع حصة معينة من أرباحه .

أما موارد الدولة من التجارة فكانت بطبيعة الحال العوائد، والمكوس، ولم تقتصر على الصادرات والواردات ، بل كانت تفرض أيضا على التجارة المتبادلة بين الوجهين القبلي والبحرى ، وكذلك بين كل مديرية وأخرى .

وقد كانت الدولة تستمد دخلا كبيراً من ضرائب شتى . فإنها كانت تفرض ضريبة مقدارها ١٠٪ من قيمة الممتلكات التي تنتقل ملكيتها بالبيع أو التقسيم أو الهبة ، كما كانت تفرض عدة ضرائب أخرى تدفع نقداً مثل ضريبة ٥٪ على أجرة المنازل ، و ٢٪ على مايباع فى الأسواق ، و ٣٣⅓٪ على أبراج الحمام ، وضريبة الرأس وكانت تفرض على جميع الرجال من المصريين عدا القساوسة . وكانت هناك أيضاً ضرائب لشراء تاج من الذهب عند ارتقاء ملك جديد العرش ، وضرائب لسد حاجات الأسطول والمنائر ، وضرائب أخرى لأغراض محلية .

لقد كانت الضرائب نوعين : عيناً ونقداً ، أما الضرائب التي كانت تجبى عيناً فقد أنشأت الدولة من أجلها فى المدن والقرى مخازن ملكية ، وكان الزراع يقومون بتوريد مقدار الضريبة المفروضة عليهم إلى المخازن الفرعية ، ثم ينقل مايتجمع فى هذه المخازن إلى المخزن الرئيس للدولة فى الإسكندرية على مراكب تابعة للحكومة . أما الضرائب التي كانت تدفع نقداً فإنها كانت تجبى

بطريقة الالتزام ؛ وقد كانت الحكومة تعان بالمزاد العلنى حق التزام جباية الضرائب عن كل مديرية على حدة ، وكان يقوم الملتزمون بتسديد الأموال إلى فروع مصرف الدولة فى المدن أو القرى ، وكانت هذه تتولى إرسالها إلى المركز الرئيس لذلك المصرف فى الإسكندرية .

(ح) القضاء :

كانت الأغلبية المطلقة من سكان مصر فى عصر البطالسة تتألف من المصريين والإغريق ، فكان طبيعياً أن يسترشد البطالسة فى وضع نظام القضاء بنظم المصريين والإغريق . ولذلك احتفظوا للمصريين ما استطاعوا بقوانينهم ونظمهم الموروثة ، وحرصوا على احترام عادات الإغريق وشرائعهم فيما شرعوه لهم من قوانين . وكل ما يمكننا أن نستخلصه من أكداس الوثائق التى وصلت إلينا فى هذا الشأن ، أنه كان هناك نظامان للقضاء : أحدهما خاص بالمصريين ، والآخر خاص بالإغريق . ولذلك كان هناك نوعان من المحاكم ، أحدهما قضاته من المصريين ، للفصل فى قضايا أهالى البلاد على وفق القوانين الفرعونية ؛ والآخر قضاته من الإغريق ، للفصل فى قضايا نزلاء البلاد طبقاً لقوانين المدن الإغريقية وللأحكام الواردة فى المراسيم والأوامر الملكية . وكان يوجد أيضاً نوع ثالث من المحاكم ، وهو عبارة عن محاكم مختلطة ، للفصل فى القضايا بين المتخاصمين من أجناس مختلفة ، لكن ألغيت هذه المحاكم المختلطة فى القرن الثانى . وقد كان القضاة الإغريق يميلون إلى الاعتداء على حقوق القضاة المصريين ، ولذلك أصدر بطليموس السابع (Euergetes II) فى عام ١١٨ مرسوماً قضى بأن يكون الفصل فى القضايا بين المصريين والاغريق بقضاة مصريين أو إغريق ، تبعاً للغة وثائق القضية ، وبأن الفصل فى قضايا المصريين يجب أن يعهد فيه إلى قضاة مصريين . وقد ازداد منذ القرن الثانى تدخل رجال الادارة فى الشئون القضائية ، وربما كان ذلك نتيجة لالتجاء المتقاضين إليهم فى كثير من الأحيان ، مفضلين الوصول إلى حل سريع فى قضاياهم على انتظار انعقاد المحاكم .

وكان زراع الأراضى الملكية ، وعمال الصناعات التى تحتكرها الحكومة ، وكل موظفى الادارة المالية ، خاضعين لتشريع خاص ، يقوم على تطبيقه وزير المالية وممثلوه فى المديريات ، وقد كان محرما على المتخاصمين — حتى ولو كانوا إغريقاً — فى حالة اختصامهم مع الإدارة المالية ، أن يستخدموا محامين للدفاع عنهم ، بل كان المحامون الذين يدافعون ضد مصالح الملك عرضة لحرمانهم من ممتلكاتهم .

٥ — الحالة الاجتماعية :

كان ينقسم الخليط الذى يتكون منه سكان مصر فى عصر البطالسة إلى أجانب ومصريين ، وكان الاغريق أهم عناصر الأجانب ، وكانوا يعيشون إما فى المدن الاغريقية الثلاث ، وإما فى المدن والقرى المصرية . وقد حرص البطالسة على أن يحتفظ إغريق المدن الإغريقية بصبغتهم الإغريقية ، فحرموا عليهم التزوج من المصريين ، ووفروا لهم أغلب سبل الحياة التى ألفوها من قبل ، والتى كانت تساعدهم على الاحتفاظ بإغريقيتهم . وأبلغ دليل على اهتمام البطالسة بالحضارة الإغريقية ، مااختصوا به المدن والجاليات الإغريقية من العناية ، وما أنشئوه فيها من المنتديات والمعاهد ، التى كان أهمها معهد (Museum) الإسكندرية ومكتبتها ، وهما كانا من أهم مظاهر الحضارة الاغريقية فى مصر بأجمعها . كما كانا من بين الأسباب التى أذاعت شهرة الإسكندرية فى العالم القديم ، فقد كانت المكتبة أعظم المكاتب طرا ، وكان المعهد يضم خيرة رجال الأدب والعلوم فى القرن الثالث قبل الميلاد . وإذا كانت أثينا لاتزال تعتز خلال ذلك القرن بالمكانة الأولى فى حلبة الفلسفة والكوميديا الاجتماعية ، فإن الإسكندرية كانت تفخر بشهرة لاتبارى فى ميدان الأدب ، والجغرافية ، والرياضة ، والطب ، ولذلك كله كانت حياة الإغريق الاجتماعية فى الإسكندرية ، ونقراطيس ، وبطوليميس مثل ثقافتهم العلمية والفنية ، إغريقية بحتة .

ولم يدخر الإغريق خارج المدن الإغريقية وسعاً فى أن يعيشوا معيشة إغريقية خالصة ، فكونوا لهم جاليات خاصة بأنفسهم . ولما كانت الجاليات الإغريقية هيئات مكونة على النظم الهلينية ، أنشئت فيها معاهدهم ومنتدياتهم الإغريقية (Palaestrae, gymnasia) ، ولذلك لم تقتصر هذه المعاهد والمنتديات على المدن الإغريقية ، بل وجدت كذلك فى عواصم المديريات والقرى التى كان بها عدد وافر من الإغريق ، مثل فيلادلفيا فى الفيوم ، والقرية النائية كوم امبو . ويمكننا أن نعرف إلى أى حد كانت ثقافة هؤلاء الإغريق إغريقية ، عند ما نتبين أنهم كانوا شديدى الحرص على إغريقيتهم ، فى جدهم وهزلهم ؛ فلم تكن التعاليم التى يتلقونها سوى تعاليم إغريقية ، ولم يكن الأدب الذى يتلونه سوى مؤلفات هومر ، ويوريبيديس ، وأفلاطون ، وأرسطو ؛ ولم تكن الأغانى التى ينشدونها سوى أغان إغريقية . هذا إلى أنه توجد وثائق عدة تشير إلى أنه حتى أواخر القرن الثالث كانت الجماعات الإغريقية خالصة فى عنصرها ، وأن لغتها الإغريقية لم يطرأ عليها الفساد إلى ذلك الحين .

إذا كنا نستخلص مما مر بنا أن الإغريق الذين وفدوا إلى مصر حملوا معهم من بلادهم دياناتهم ونظام معيشتهم وتعاليمهم ولغتهم وقوانينهم ، وأن أغلب هؤلاء الإغريق كانوا دائماً فى بيئة إغريقية ، فقد كانوا يعيشون إما فى المدن الإغريقية ، وإما فى الجاليات الإغريقية خارج هذه المدن ، وإذا كنا نعرف أن أفواج مهاجرى الإغريق كانت تفد باستمرار إلى مصر حتى أواخر القرن الثالث ، فتنعش فيهم ماذوى ، وتجدد مابلى ، وأن الإغريق كانوا سادة البلاد ، الذين سيطروا على أسمى المناصب فيها ، وقبضوا على ناصية الحكم ، وتمتعوا بمزايا أشعلت نار الحقد والغضب فى قلوب المصريين ، فلاشك أن إغريق مصر وسط هذه الظروف قد حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم ، فبقوا إغريقاً خالصين حتى نهاية القرن الثالث ، عند ماوقف تيار وفودهم ، ولاحت فى الأفق عوامل جديدة كانت لها نتائج ملموسة .

لاجدال فى أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية بالنسبة إلى ملايين المصريين الذين استمروا يعيشون كما عاش أجدادهم من قبل ، محتفظين بتقاليدهم وعاداتهم ، يعبدون آلهتهم ، ويخضعون لقوانينهم الفرعونية . لقد قصر ملايين منهم حياتهم على فلاحة الأرض ، واشتغلت ألوف منهم بالتجارة والصناعة ، واندمج بعضهم فى سلك الحكومة . لكن قلما نعرف من بينهم من شغل مناصب خطيرة فى أيام البطالسة الأوائل . ويرجح المؤرخون أن بطليموس الأول سمح لطبقة الأرستقراطية الأهلية بالاحتفاظ بممتلكاتها ، وبشىء من السلطان فى الإدارة ، إلا أن بطليموس الثانى والثالث قضيا عليها ، ولذلك نرجح أن القساوسة اختصوا بكل ما كان بعد ذلك من أرستقراطية مصرية فى عهد البطالسة .

ويغلب على الظن أن المصريين كانوا يجتمعون فى أنديتهم أو فى المعابد أو فى بيوت الأعيان . ولا نشك أن ثقافة المصريين كانت مصرية ، لكننا نرجح أن الكثيرين منهم تعلموا اللغة الإغريقية ، إذ يحتمل أن الطبقة العليا رأت فى ذلك إكمالا لمؤهلات أفرادها ، وأن الطبقات الوسطى رأت فيها ضرورة ، لأنها كانت اللغة الرسمية . لكن يجب ألا نبالغ فى قيمة تعلم هذه اللغة أو عدد من تعلموها ، فإن اللغة الإغريقية كانت لغة الدخيل المغتصب ، وأن الأمية كانت فاشية ، وإن تعلم لغة ليس معناه دائما اكتساب حضارة أهلها ، ولاسيما أن الهيروغلفية والديموتيقية بقيتا مستعملتين لاعلى جدران المعابد ونصب الموتى فحسب ، بل فى اللوائح والقوانين ، وخاصة ما كان منها متعلقا بشئون الضرائب .

نعرف حقا أن نظام الإدارة فى عهد البطالسة قام على أسس نظام الفراعنة ، كما نعرف أن المصريين كانوا خاضعين لقوانين الفراعنة بوجه عام ، لكن كانت الضرائب التى فرضها البطالسة على المصريين فادحة ، واستغلالهم موارد البلاد مجهداً ، ولم يسبق له مثيل . ولم يكتف الإغريق باستيلائهم على أرفع مناصب الدولة ، بل امتدت أيديهم إلى أخصب المزارع . هذا إلى أن جنود البطالسة لم يُمنحوا إقطاعات فحسب ، بل مساكن فى منازل خاصة أو داخل منازل الأهالى .

ولقد سبق أن ذكرنا كيف قُضى على الأرستقراطية الأهلية، وأذل رجال الدين. وجملة القول أنه لم ينج مصرى من استبداد البطالسة.

إذن كان سكان البلاد عامة ينقسمون إلى طبقتين منفصل بعضهما عن بعض تمام الانفصال: طبقة عليا مكونة من الإغريق، الذين كانوا حكام البلاد، ويعتقدون أنهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى، ويعيشون فى بيئات خاصة بهم، ويحيون حياتهم التى اعتادوها فى بلادهم؛ وطبقة سفلى مكونة من المصريين، الذين كانوا خاضعين للأجنبى، ويشعرون بأنهم سُلبوا كرامتهم كما سُلبوا خيرات بلادهم، إلا أنهم استمروا يستمسكون بعاداتهم وتقاليدهم، ويذكرون مجدهم القديم. فإذا أضفنا إلى العوامل الوطنية والمصالح المادية، مانعرفه عن اعتياد المصريين القدماء التزوج من أسرهم، أمكننا أن نوقن تماماً أن التصاهر بين المصريين والإغريق فى الشطر الأول من حكم البطالسة كان أمراً بعيد الاحتمال، اللهم إلا فى بعض حالات خاصة.

وتدل جميع الظواهر على أن الحالة الاجتماعية، أخذت تتغير منذ أواخر القرن الثالث. فإن البطالسة الذين كانوا أكبر عضد للإغريق، أخذوا يتبعون سياسة جديدة، كانت أكثر ميلا إلى المصريين؛ هذا إلى أنه قد انقطع وفود أفواج جديدة من الإغريق إلى مصر، فكان طبيعيا أن يضعف الروح الإغريقى بهذه المؤثرات. لكن تحريم التزاوج بين المصريين والإغريق فى المدن الإغريقية، وبقاء المعاهد والمنتديات الإغريقية، كانا سبباً فى بقاء إغريق المدن الإغريقية خالصين، وإن ضعف فيهم الروح الإغريقى.

إن العاملين اللذين أديا إلى تغير الحالة فى المدن الإغريقية كان لهما أثر أقوى فى الأقاليم، ولاسيما أن أصحاب الإقطاعات قد أصبح مثلهم منذ أواخر القرن الثالث مثل ملاك الأرض العاديين، أى أصبحت لهم مصالح دائمة فى البلاد؛ أضف إلى ذلك أن ارتفاع مستوى المصريين، وانخفاض مستوى الإغريق، ساعد على التقرب بين العنصرين، فأدى هذا إلى نتيجتين:

(الأولى) انتشار التعليم الإغريقى والآداب الإغريقية بين المصريين. ولما

كانت تسود العالم الإغريقي إذ ذاك الفكرة القائلة بأن « قِوام الإغريقي ثقافته لادمه » سُوِّى بين المصريين المتعلمين تعليما إغريقيا والإغريق ، واتخذ المصريون (المتأغرقون) أسماء إغريقية إلى جانب أسمائهم المصرية . لكن لم يكن هؤلاء سوى أقلية ، وبقيت الأغلبية العظمى من المصريين بعيدة حتى عن مظاهر الحضارة الإغريقية ، فقد كان للمصريين عادات ثابتة ، تقوم على أسس حضارة وديانة ترجعان إلى أقدم العصور .

(الثانية) تشجيع التزاوج بين المصريين والإغريق ، فقد ازداد تدريجاً عدد الإغريق ، الذين اتخذوا زوجات مصريات . وكان أولاد هذا الزواج أنصاف إغريق ، عاداتهم وطباعهم مصرية ، وأسماؤهم مصرية أو مصرية وإغريقية . ولا شك أن أنصاف الإغريق كانوا كالمصريين (المتأغرقين) ، أقرب إلى العقل المصرى برغم مظاهرهم الإغريقية . لكن إذا كان التزاوج قد ازداد ، فإنه لا يحتمل أن كل إغريق الأقاليم ، أو معظمهم ، قد تزوجوا مصريات ، فإن الزواج بين عنصرين يختلف بعضهما عن بعض هذا الاختلاف ، لا يمكن أن يكون سوى استثناء ، ولاسيما أنهما تعودا أن يعيشا منفصلين خلال قرنين تقريباً . وإذا كنا نعتقد أن الإغريق الذين أصهروا إلى المصريين ، تمسكوا بأذيال حضارتهم الإغريقية ، وأن بعض المصريين أقبلوا على التعليم الإغريقى ، فلا شك أن أولئك الإغريق الذين لم يتزوجوا من المصريين ، قد تمسكو بإغريقيتهم ، بفضل أثر المدن الإغريقية فى مصر ، وبقاء المعاهد والمنتديات الإغريقية أينما وجد عدد كاف من الإغريق . لكن إذا كان أثر البيئة جعل إغريق المدن الإغريقية مختلفين تمام الاختلاف عن الإغريق القدماء ، فلا ريب أن إغريق الأقاليم كانوا أكثر منهم اختلافا ، وإن كان أغلبهم قد بقوا إغريقاً .

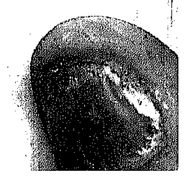
« ثانياً » مصر فى عهد الرومان

١ — الفتح الرومانى :

لقد مر بنا كيف ازداد نفوذ روما تدريجاً فى مصر ، منذ أيام بطليموس الخامس ، وكيف أصبح مصير مصر متعلقاً بمصير الصراع الحزبى فى روما منذ وفاة بطليموس الثامن لكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالسة مستمسكين باستقلالهم الإسمىّ على الأقل . وعند ما ارتقت كيلوبترا عرش مصر فى عام ٥١ ق . م . واندلع لهيب الحروب الأهلية فى روما ، لعبت كيلوبترا دوراً كادت تجنى من ورائه أمبراطورية واسعة على حساب الرومان ، مما أفضى إلى صراع روما مع كيلوبترا ، وهو الصراع الذى تمخض عن القضاء على دولة البطالسة .

بيان ذلك أن كيلوبترا مدت يد المساعدة إلى بومبى فى صراعه مع قيصر ، لكن لم يكن نصيب بومبى سوى الهزيمة ، ففر إلى الإسكندرية حيث قتله رجال البلاط . ليبرهنوا لقيصر الذى تبعه إلى هناك أن مصر قد قطعت علاقاتها مع أعدائه ، وبذلك لم يبق ثمة داع لغزو مصر . إلا أن قيصر دخل الإسكندرية ، وبعد حرب قصيرة عنيفة تعرف «بحرب الإسكندرية» وطد مركز كيلوبترا على العرش ، واستهوت كيلوبترا قيصر ، فأصبح طوع أمرها . وعند ماغادر مصر خفت إلى زيارته فى روما ، حيث أقامت إلى جانبه ، معللة نفسها بارتقاء عرش إمبراطورية واسعة . لكن لم تلبث أن انهارت هذه الآمال عند ما استثارت مطامع قيصر غضب الرومان ، فقضوا عليه فى عام ٤٤ ق . م .

بادرت كيلوباترا بالهرب إلى مملكتها ، وأخذت ترقب الصراع الذى نشب فى العالم الرومانى بين قتلة قيصر وأعوانه دون أن تناصر فريقا على آخر ، حتى إذا ما انتصر أصدقاء قيصر ، وعلى رأسهم أنطونيوس وأكتافيوس (أغسطس) فى خريف عام ٤٢ ، وذهب أنطونيوس لمباشرة شـئون الجزء الشرقى من



الأمبراطورية الرومانية ، أرسل هذا يستدعيها إلى كيليكية ، لتجيب عن تجنبها معاونة أنصار قيصر . ولم تتردد كيلوباترا فى الذهاب إلى طرسوس ، حيث أحرزت نصراً حاسماً على فؤاد أنطونيوس ، ومن هناك انتقلا لتمضية شتاء عام ٤١ — ٤٠ فى جو مصر الممتع . وبقى أنطونيوس فى مصر يلهو ويعبث غير آبه لما كان يحدث فى العالم الرومانى حتى ربيع عام ٤٠ عند ماعاد إلى روما . وأصلح ما بينه وبين أغسطس ، وتزوج من أختـــه أكتافيا ، وحصل على الاعتراف بسلطانه على الولايات الشرقية . وظل أنطونيوس بعيداً عن كيلوباترا حتى عام ٣٦ عند ماذهب إلى سورية ، ليتولى الإشراف على حملته ضد بارذيا ، واشتد به الشوق إلى كيلوباترا . فاستدعاها إلى جانبه . وبعد انتهاء حملته فى أوائل عام ٣٥ عاد إلى مصر ، ثم برحها فى نفس العام ، ليعيد الكرة على بارذيا . وعند ماعلم وهو فى طريقه بأن زوجه كانت قادمة إليه أمرها بأن تعدل عن ذلك ، فكانت تلك الإهانة التى لحقت بأكتافيا أولى الأسباب التى جعلت الحرب لا مناص منها بين أنطونيوس وأغسطس .

لم يقم أنطونيوس إذ ذاك بحملته ، بل عاد إلى مصر . وفى العام التالى وجه حملته إلى أرمينية ، وعاد منها مظفراً إلى الإسكندرية ، حيث أقام مهرجان النصر ، الذى كان يقيمه القواد الرومانيون المنتصرون عادة فى روما . وقد أثار ذلك غضب الرومان ، واشتد حنقهم عند ماورد إليهم نبأ حفل آخر ، أقيم بعد ذلك بأيام قليلة ، واشترك فيه أنطونيوس ، ونودى بكيلوبترا ملكة الملكات ووزعت بين أبنائهما الولايات الرومانية فى الشرق . فرأت كيلوبترا أنها كانت توشك أن تصبح إمبراطورة العالم ، ورأى أنطونيوس نفسه سيد الشرق . ولم يبق له إلا أن ينتصر على أغسطس فى الصراع المقبل المحتوم بينهما ، لكى يضم الجانب الغربى من الإمبراطورية الرومانية ، إلى كنف العرش الذى تربع فوقه مع كيلوبترا ، فكان أول همه اتخاذ العدة لذلك الصراع . ولم يلبث أن طلق زوجه أكتافيا ، فأثبت بذلك الطلاق رغبته فى أن يصبغ صلته بكيلوبترا بصبغة شرعية ، وأجاب أغسطس عن ذلك بإعلان الحرب على ملكة مصر لا على أنطونيوس ، لكيلا

يتهمه أحد بإشعال نار حرب أهلية . وفى سبتمبر عام ٣١ التحم الفريقان فى موقعة أكتيوم ، التى انكشفت عن انتصار أغسطس وفرار كيلوبترا وأنطونيوس إلى الإسكندرية ، حيث قدم إليهما أغسطس فى صيف عام ٣٠ . وبينما كان يحاصر الإسكندرية لجأت كيلوبترا إلى حيلة جعلت أنطونيوس يقضى على نفسه ، لكى تمهد السبيل إلى حسن الاتفاق مع أغسطس ، لكنها أخفقت فى استهواء هذا القائد الجديد . وعند ما أحست رغبته فى أن يقودها أسيرة إلى روما ، قضت على نفسها هى أيضاً . وسرعان ما تخلص أغسطس من أولادها ليطوى صفحة الماضى ، ويبدأ فصلا جديداً فى تاريخ مصر ، التى أصبحت منذ ذلك الوقت ولاية رومانية .

٢ — سياسة أباطرة الرومان فى مصر :

ضم أغسطس مصر إلى الإمبراطورية الرومانية فى عام ٣٠ ق.م . ولما كانت مصر تمتاز عن سائر الولايات الرومانية الأخرى بمركزها الجغرافى الهام ، وثروتها الطائلة ، رأى أغسطس أن يضع لحكم مصر نظاماً خاصاً ، فعندما قسمت الولايات الرومانية فى عام ٢٧ ق . م . إلى ولايات خاضعة للسناتو ، وأخرى للأمبراطور ، كانت مصر فى عداد الولايات الأخيرة ، وكان لها مركز ممتاز بين هذه الولايات . فقد أقيم عليها حاكم ذو مرتبة رفيعة يدعى (Praefectus) ، وتقرر ألا يتقلد رجال السناتو مناصب إدارية فى مصر ، بل حُظر عليهم زيارتها دون استئذان الامبراطور فى ذلك . ولكن زال هذا القيد عند ماقلت ثروة مصر ، ولم تعد المصدر الوحيد لقمح روما ، فلم يعد يرى الإمبراطور فى مصر خطراً يهدده من استيلاء ذوى النفوذ عليها . وكان أول من خرج على قانون أغسطس الإمبراطور ماكرينس (Macrinus ٢١٧ - ٢١٨) ، فإنه عين إلى جانب حاكم مصر مساعداً له من رجال السناتو . وليس أدل على نقص أهمية مصر فى القرن الثالث ، مما فعله الإمبراطور سفرس إسكندر (Severus Alexander ٢٢٢ ـ ٢٣٥) ، فإنه عند ماثار عليه بعض الجنود

عين زعيمهم حاكما على مصر ، لا إرضاء له ، وإنما لإقصائه إلى مكان لايستطيع فيه أن يهدد مركزه .

لقد اعتمد الرومان فى توطيد سلطانهم فى مصر على القوة قبل كل شىء ، فأقاموا حاميات عسكرية فى الأماكن الرئيسة ، التى تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ولذلك وضعوا حامية رومانية فى نيكوبوليس (Nikopolis) ، على بعد أربعة أميال شرقى الإسكندرية ، لتلق الرعب فى سكان العاصمة ، التى أثبتت الحوادث أنها كانت أشد معاقل الثائرين خطراً فى الدلتا ، فى أيام البطالسة الأواخر . وأقام الرومان حاميات أخرى فى بابيلون (Babylon) ، التى كانت مفتاح الوجه البحرى ، وفى أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر ، وعلى شواطئ هذا البحر ، لضمان سلامة التجارة الشرقية . لكن لم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم فى مصر ، بل لجئوا أيضاً إلى الأساليب السياسية .

كان أهم عناصر السكان بعد فئة الرومانيين المصريون والإغريق واليهود . وكان يقطن فى الإسكندرية أكبر مجموعة من الإغريق واليهود . وقد رأى الأباطرة فى إخضاع الإسكندرية أكبر ضمان لإخضاع مصر ، فلجئوا إلى سياسة التفرقة بين الإغريق واليهود فى الإسكندرية ؛ ولذلك رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثانى أن يعيدوا إلى الإغريق مجالسهم النيابية . وإذا كان قد بقى للعاصمة حكامها الذين كان ينتخبهم المواطنون من بينهم ، فإنه لم تكن لهم سلطة إدارية . آلم كل ذلك الإغريق ولا سيما أن اليهود منحوا كافة الحقوق والامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فى عصر البطالسة . وقد والى أغسطس هذه المنح على اليهود ، على الرغم من أن الإغريق رجوا منه أن يحرم اليهود إياها ، فتملك الغضب قلوب الإغريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالسة ، وخضوعهم لأمة لم ترتفع إلى مستوى حضارتهم ، ومحاباة الرومان لليهود . وقد زاد فى حقد الإغريق على اليهود أن هؤلاء بادروا إلى الترحيب بالرومان ، والالتفاف حولهم ، فنقم الإغريق على الرومان واليهود ، وأخفت

عداوة الإغريق لليهود كرههم الدفين للرومان . لكن إذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التمتع بحقوقهم وامتيازاتهم القديمة ، فإنهم أبوا عليهم التمتع بالحقوق المدنية ، التى كان يتمتع بها الإغريق ، فحقد اليهود أيضاً على الإغريق . ولذلك كله لم يكن هناك بد من وقوع صدام بين الإغريق واليهود . وفى عصر كاليجولا (٣٧ – ٤١ Caligula) استعرت نار العداء بين الإغريق واليهود ، فقد استباح الأغريق حرمة المعابد اليهودية ، ونهبوا بيوت أعدائهم ، وأنزلوا بهم أقسى صنوف العذاب ، وأفلحوا فى حمل الحاكم الرومانى على حرمان اليهود مؤقتاً من امتيازاتهم ، وعلى جلد عدد من شيوخهم . وأرسل كل فريق من المتنازعين وفداً لبسط شكاواه أمام الأمبراطور ، لكنه أعرض عنهم . وعند ما ارتقى كلوديس (٤١ - ٥٤ Claudius) العرش عاد وفدا الإغريق واليهود إلى روما ، فأيد الإمبراطور حقوق الإغريق المدنية ، لكنه رفض منح الإسكندرية مجلساً للسناتو ، ورفض منح اليهود الحقوق المدنية ، وأمر الفريقين بأن يكفا عن تطاحنهما الدموى . فهدأت الحال بضع سنين ، ثم تجدد النزاع ثانية ، وسرعان ماحجت الوفود مرة أخرى إلى روما . وكان النصر حليف اليهود هذه المرة ، فإن كلوديس أمر بقتل زعيمى الإغريق . وفى عصر نيرون (٥٤ ــ ٦٨ Nero) اشتد النزاع بين الإغريق واليهود ، ولم ينته قبل أن قضى على نحو من ٥٠,٠٠٠ يهودى . لقد كان الشقاق بين اليهود والإغريق كالحمى الخبيثة المتقطعة . تخف وطأتها وتهدأ حيناً . ثم تعود إلى الظهور وتشتد حيناً آخر . وفى عصر تراجان (٩٨ــ١١٧ Trajanus) رفع هذا الداء المخيف رأسه ثلاث مرات ، كان أشدها هولا فى عام١١٥ عند ماأشعل اليهود لهيب الثورة فى مصر وبرقة ، وآلت السلطة إليهم فى الأقاليم برهة وجيزة ، فأعملوا القتل بين الإغريق ، ولجأ هؤلاء إلى الإسكندرية ، حيث قضوا على كل من وصلت إليه أيديهم من اليهود ، وتفاقمت الحال ، حتى اضطرت الحكومة إلى تجنيد فرق من الزراع المصريين . لكن استمر القتال حتى نهكت حرب جودايا (Judaea) الثانية قوى اليهود ، بعد وفاة تراجان وارتقاء هادريان (١١٧ – ١٣٨ Hadrianus)

العرش . ثم أخلد الفريقان إلى السكينة حتى أواخر أيام هذا الإمبراطور ، عند ماشهدت مصر آخر الاضطرابات اليهودية ، لكن يبدو أنها لم تكن ذات بال .

وإذا كان الأباطرة الأوائل قد حرموا الإغريق مجالسهم النيابية ، ليقلموا أظافرهم ، ويجعلوهم أكثر خضوعاً لهم ، واعتماداً عليهم ، فإن الامبراطور سبتميس سفرس (Septimius Severus ١٩٣ — ٢١١) عند ما زار مصر فى عام ١٩٩ — ٢٠٠ ، منح الإسكندرية وعواصم المديريات مجالس للسناتو ، بل إن خليفته كركلا (Caracalla ٢١١—٢١٧) منح الإغريق الحقوق المدنية الرومانية (Civitas Romana) . وعلى كل حال فإن الأباطرة بوجه عام ، أظهروا عطفهم على الحضارة الإغريقية ، فشملوا برعايتهم معاهد الإغريق العلمية ، وخاصة معهد الاسكندرية ، وأبقوا اللغة الإغريقية لغة البلاد الرسمية . ولم تستعمل اللغة اللاتينية إلا فى الجيش ، واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى ، وحرموا التزاوج بين المصريين ، وإغريق المدن الإغريقية . وقد أسس هادريان عندما زار مصر فى عام ١٣٠ مدينة أنطينؤبوليس (Antinoopolis)، لتكون مركزا جديداً للحضارة الإغريقية فى مصر العليا . وأباح الرومان للإغريق حرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة ، فبقوا على ولائهم لها مدة طويلة .

لم ير المصريون فى انتقال الحكم من البطالسة إلى الرومان أكثر من قيام مغتصب مكان مغتصب آخر . ولم يصحب هذا الانتقال اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة عند انتقال الحكم من أسرة إلى أسرة أزمان الفراعنة . ولا يسترعى انتباهنا بعد ثورات المصريين التى حدثت فى أوائل حكم الرومان سوى الثورة التى نشبت فى عصر ماركس أورلياس (Marcus Aurelius ١٦١ — ١٨٠) بين المصريين فى الدلتا ، وعرفت « بحرب الزراع » . وهزمت فى خلالها الفرق الرومانية ، وكادت تقع الإسكندرية فى قبضة الثائرين ، إلا أن النجدة التى قدمت من سورية قضت على تلك الثورة . وقد رأى الأباطرة أن يصبغوا مركزهم صبغة شرعية فى نظر المصريين ، فاتخذوا صفة الفراعنة ، كما فعل البطالسة من قبلهم ، بل إن حاكم مصر الرومانى أيضاً كان يتشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل

وقت الفيضان ، ويقدم القرابين عند بلوغ النيل أقصى ارتفاعه ، ويمثل دور الفرعون فى غير ذلك من شتى المظاهر . ولم يتعرض الرومان للمصريين فى معتقداتهم الدينية القديمة ، فأطلقوا لهم حرية التمسك بها ، وقد كانوا فى بادئ الأمر ينظرون إلى تلك المعتقدات نظرة احتقار ، لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون إلى تعرف أسرارها ، فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أساطير ؛ وما عتم الغزاة الفاتحون أن خضعوا لسلطان تلك الآلهة ، وشاركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم فى عبادتها ، وتقديم القرابين إليها ، بل أقاموا التماثيل والمعابد لبعضها ، حتى فى روما العظيمة نفسها . ولعل أبلغ مايدل على التغير الفكرى الذى طرأ على الرومان ، من حيث تقديرهم للآلهة المصرية البحتة ، أن أغسطس أبى واستكبر أن يرى العجل المقدس أبيس ، لكن تيتس (٧٩—٨١ Titus) شهد الاحتفال بتكريسه ، وأظهر احترامه لآلهة المصريين ، فوضع بذلك أساس سياسة جديدة ، نلمس أثرها فى بدء تصوير الآلهة المحلية فى المديريات على نقود الإسكندرية ، منذ عصر دوميشان (٨١—٩٦ Domitianus) . وكذلك فى تشبيه زوج تراجان بالإلهة هاتور . فلا عجب بعد ذلك إذا علمنا أن المصريين تمسكوا بعبادتهم القديمة أمداً طويلا ، غاية الأمر أن الرومان احتفظوا لأنفسهم بالإشراف المطلق على رجال الدين .

إن ماعرفناه من أمر الرومان حيال الآلهة المصرية لايعنى أنهم انصرفوا عن عبادة آلهتهم الأصلية ، فقد أدخلوا عبادة هذه الآلهة فى مصر ، كما أدخل الإغريق من قبل فى عهد البطالسة عبادة آلهتهم الاغريقية . و نقلوا عن البطالسة عبادة الملوك ، فقرنوا الأباطرة بالآلهة ، مثل أغسطس بزيوس اليوثريس (Zeus Eleutherius) ونيرون بأجثديمون (Agathadaemon) ، وبلوتينا (Plotina) بأفروديتى (Aphrodite) ، لكن لم يفرض الرومان على المصريين هذه العبادات خشية الاصطدام بالشعور القومى ، وهو ما كان يبذل الرومان جهدهم لاتقائه . وكان الرومان يعبدون أيضاً بعض آلهة المصريين بالاشتراك مع آلهتهم ، مثل عبادة النيل مقترناً بإيوثينيا (Euthyneia) ،

كما أنهم أخذوا عن الإغريق عبادة ثالوث الإسكندرية المقدس ، وعبادة الآلهة المصرية ، التي أسبغت عليها أسماء إغريقية .

يبدو مما مر بنا أن الرومان أباحوا لليهود والإغريق والمصريين حرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة ، لكنهم حاولوا مدة طويلة أن يعوقوا اعتناقهم المسيحية . إن قرب مصر من فلسطين جعلها فى طليعة البلاد التى تسرب إليها الدين الجديد خلال القرن الأول ، وأخذ ينتشر خفية هناك ، ولا سيما فى الإسكندرية والوجه البحرى ، وأصبح عدد المسيحيين كافياً لتنصيب مطارنة للإسكندرية . وقد ازداد أعوان المسيحية فى القرن الثانى ، وخاصة عندما نُصِّب ديمتريس فى آخر عهد كومودس (١٨٠ — ١٩٢ Commodus) مطرانا للإسكندرية ، وعلى يده تمت رسامة قسس عدة تبعاً لانتشار المسيحية . وأدى انتشارها إلى إثارة مخاوف الرومان ، ومن ثم عملوا على اضطهاد دعاتها وأنصارها ، ولجئوا إلى وسائل القهر لصد الناس عنها . وكان بدء اضطهاد الحكومة للمسيحيين فى مصر اضطهادا منتظما خلال حكم الإمبراطور سبتميس سفرس (١٩٣ — ٢١١) ، وبلغ أشده فى أواخر عصر ديوكليشان (٢٨٤ — ٣٠٥ Diocletianus) . وتركت هذه الاضطهادات أثراً عميقاً فى النفوس ، إلى حد أن الكنيسة المصرية استمرت بضعة قرون تستعمل لتأريخها « عصر الشهداء » ابتداً من حكم ديوكليشان . لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تقف فى سبيل انتشار الدين الجديد ، حتى تمت له الغلبة فى عصر قنسطنطين الأول (٣٢٣ — ٣٣٧ Constantinus) ، عند ما اعترفت الدولة رسمياً بالمسيحية . ومن ثم وقف المسيحيون أنفسهم للقضاء على الوثنية ، اللهم إلا إذا استثنينا الفترة القصيرة التى ارتفع فيها على العرش الأمبراطور الوثنى جوليان (٣٦١ — ٣٦٣ Julianus) . وقد تابع المسيحيون نشر دينهم بنفس القسوة التى حاول بها أنصار الديانة القديمة إخماد جذوة المسيحية . وأبلغ دليل على قسوة الرهبان مقتل الفيلسوفة هيبشيا (Hypatia) فى الإسكندرية ، بإيعاز من البطريرك سيرل (Cyril) . ويبدو أن رجال الكنيسة كانوا يعتقدون أنه يحق لكل منهم أن يتصرف كما يتراءى له مع الوثنيين

وممتلكاتهم . وقد حالف انتشار المسيحية فى مصر انتشار عادة التنسك فى الأديار التى أخذها المسيحيون عن اليهود . وسرعان ما ازداد عدد الأديار إلى أن أصبح يعترف بها القانون فى أواخر القرن الرابع كجماعات يحق لها إحراز ممتلكات ، كما أنها أصبحت عقبة كئودا فى سبيل الحكومة ، بسبب كثرة عدد أتباعها الذين ادعوا لأنفسهم حق إعفائهم من الجندية والوظائف غير المأجورة .

وقد ساعد على انتشار المسيحية فى مصر ، أنه عند ما ارتقى الامبراطور ثيودوزيوس (Theodosius ٣٧٩—٣٩٥) العرش فرض المسيحية قسرا فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية . و نُفذ قرار الإمبراطور دون هوادة فى الإسكندرية والوجه البحرى . بل ذهب الرهبان فى تنفيذه إلى أبعد مدى ، فقد كان القرار يقضى بإغلاق كل المعابد التى كانت تُقدم فيها القرابين ، لكن استمد الرهبان من ذلك القرار السلطة ليهدموا المعابد . أما فى الوجه القبلى ، فإن سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى إذا شاء رجال الإدارة تنفيذه ، وكان أغلبهم فى الواقع مسيحيين غير متحمسين ، أو إداريين متبصرين ، لم يشاءوا أن يفرضوا ديناً معيناً على الشعب دون رغبته ، ولا سيما أن تصرفات زعماء المسيحية كانت تسبب لهم مضايقات كثيرة . وإذا كانت الحكومة المركزية تؤيد المسيحية على الدوام تقريباً ، فإنها لم تتردد فى استخدام الآلهة القديمة لأغراض سياسية ، فإنه عند ما عقد الصلح فى عصر مارسيان (Marcianus ٤٥٠—٤٥٧) مع القبائل النوبية ، التى أغارت على حدود مصر الجنوبية ، كان من بين شروط الصلح السماح لها بزيارة معبد إيزيس فى فيلا ، وباستعارة تمثال هذه الإلهة فى أوقات معينة . ولا شك أن هذا ينهض دليلا لا على استمرار الوثنية فى فيلا فحسب ، بل أيضاً على أن الحكومة كانت تعترف بتلك العبادة ، حتى إنها كانت تتخذ منها وسيلة للنجاح فى المفاوضات .

وما كادت تتخلص المسيحية من اضطهاد الحكومة ، حتى عانت متاعب جمة من جراء الخلاف الطائفى ، الذى نشب عن تفسير طبيعة المسيح عليه السلام بين زعيمى المسيحيين فى مصر : أثنازيوس (Athanasius) وأريوس (Arius) ،

فانقسم المسيحيون فى مصر إلى طائفتين : اليعاقبة (Jacobites) أى أتباع مذهب المونوفيزيت (Monophysite) ، وكانوا الغالبية العظمى ، والملكائيين (Melkites) أى دعاة مذهب الدوفيزيت (Duophysite) وكانوا الأقلية .
وفى بداية مراحل الخلاف طلب إلى الإمبراطور قسطنطين الأول إبداء رأيه ، فدعا المطارنة إلى الاجتماع فى عام ٣٢٥ فى نيكايا (Nikaia) ، حيث بحث مجمع المطارنة فى الموضوع ، وقرر طرد أريوس من الكنيسة ونفيه . ولكنه عند ما أوضح وجهة نظره للأمبراطور عفا عنه ، وأمر أثنازيوس الذى كان إذ ذاك مطران الإسكندرية بقبول أريوس ثانية فى الكنيسة . وعند مارفض أثنازيوس إطاعة هذا الأمر ، دُعى أمام مجمع للمطارنة عقد فى صور فى عام ٣٣٥ ، وتقرر عزله ونفيه . وإذا استثنينا جوفيان (٣٦٣ — ٣٦٤ Jovianus) وبازيلسكس (Basiliscus) الذى اغتصب العرش من ٤٧٥ — ٤٧٧ ، فإننا نلاحظ أن الأباطرة بوجه عام اتخذوا منـــذ بداية الخلاف تقريبا خطة مناوئة لغالبية المسيحيين فى مصر ، فاحتدم النزاع بين اليعاقبة من ناحيـة وبين الملكائيين والأباطرة من ناحية أخرى . ولم يكن هذا النزاع أقل عنفا وسفك دم من اضطهاد المسيحية على يد الوثنيين ، أو اضطهاد الوثنية على يد المسيحيين . وقد انكشفت هذه الخلافات الدينية عن نتائج سياسية بعيـدة المدى ، فإن إقحام الإمبراطور فى الخلافات الدينية أدى إلى :

(أولا) انفصال الولايات الشرقية عن الولايات الغربية فى الإمبراطورية الرومانية : فإن الخلاف فى الرأى الذى نشأ بعـد وفاة قسطنطين الأول بين ابنيه قسطنس (Constans) وقسطنطيس (Constantius) على مسألة نفى أثنازيوس ، بأمر من الأخير ، كان أساس الخلافات التى بدأت على هـذا النحو بين روما والقسطنطينية ، واستمرت بعـد ذلك بأشكال مختلفة فى كل المشاكل التى أدت إلى انفصال إحداهما عن الأخرى نهائيا .

(ثانياً) تدخل رجال الدين فى الشئون المدنية : فإنه بسبب تدخـــل الإمبراطور فى الشئون الدينية ، ومناوأة غالبية المسيحيين فى مصر ، كان طبعيا

ألا يصبح مطارنتهم قادتهم الدينيين فحسب ، بل صاروا زعماءهم الوطنيين في مقاومة الأباطرة ، وبذلك اتخذت الخلافات الدينية طابعاً وطنيا زادها شدة وحدة . هذا إلى أن المطارنة ادعوا لأنفسهم سلطة مدنية ، كما يبدو جليا من سير الحوادث ، فإن أثنازيوس عند ما كان مطران الإسكندرية فى عصر قنسطنطين الأول ، حاول جباية ضريبة لمساعدة الكنيسة ، وعند ما أصبح ثيوفيلوس (Theophilus) بطريرك الإسكندرية فى عصر أركاديوس (٣٩٥—٤٠٨ Arcadius) اعتبر مخالفيه فى الرأى ثائرين على سلطته ، ثم على سلطة الحكومة ، ولذلك قاد بعض الجنود ، ودمر عدداً من الأديار التى كان ينزل بها أعداؤه الدينيون . أما سيرل (Cyril) الذى كان بطريرك الإسكندرية فى عهد ثيودوزيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) فإنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد كان فى الواقع حاكم الإسكندرية ، وعجز حاكمها الرسمى عن إنقاذ يهود العاصمة أو أتباع مدارسها الفلسفية من أذى رجال البطريرك ، وعند ماضاق مارسيان (٤٥٠—٤٥٧) ذرعا بالإسكندريين ، فأراد أن يحرمهم زعيمهم الذى كان يقود ثورتهم على رجال الإدارة ، عقد مجمعاً للمطارنة فى خلقدنيا (Chalkedon) فى عام ٤٥١ ، وحصل منهم على قرار بطرد ديوسكورس (Dioscurus) بطريرك الإسكندرية من الكنيسة ، وأقام فى مكانه كاهناً من قبله . لكنه لم يزد النار إلا لهيباً ، ولم يكن نصيب هذا الكاهن سوى القتل فى عصر ليو الأول (٤٥٧—٤٧٤ Leo I). وعلى الرغم من ذلك أصر الإمبراطور على مناوأة اليعاقبة، وعين بطريركا آخر لاقى من بعده تأييد الامبراطور زينو (٤٧٤—٤٩١ Zeno)، فاستمر النزاع والاضطراب . وقد كان نتيجة الإصرار على اتباع هذه السياسة الخائبة أن منح الإمبراطور جوستينيان (٥٢٧—٥٦٥ Justinianus) لثالث بطريرك عيّنه ، سلطة مدنية خولته إشرافاً مباشراً على الجنود ، لتنفيذ إرادته ، فأفلح هذا البطريرك فى تهدئة ثائر الإسكندريين ، لكنه لم يتمتع بنفوذ دينى كبير ، فقد كان أغلب المسيحيين فى مصر يعتبرون رئيسهم الدينى البطريرك اليعقوبى ، أى المونوفيزيتى ، الذى كانت تنتخبه الكنائس المحلية .

(ثالثاً) زوال حكم الرومان فى مصر ؛ فإن الخلافات الدينية التى عانتها مصر لم تنهك قوى البلاد فحسب ، بسبب أعمال الاضطهاد والتخريب فى الإدارة ، وتدهور الحالة الاقتصادية ، بل كذلك قوضت دعائم النفوذ الرومانى فى مصر ، وذلك نتيجة للدور الذى لعبه الأباطرة والحكام فى هذه الخلافات ، فقد أغفلوا من حسابهم إرادة الشعب ورغباته . فلاعجب أن أقدم الفرس على فتح مصر فى عام ٦١٦ ؛ لكن لم يعمر حكمهم أكثر من عشر سنين ، وبسط الرومان سيادتهم عليها ثانية ، إلاأن عمرو بن العاص لم يجد مشقة فى فتح مصر والقضاء على حكم الرومان فيها فى عام ٦٤٢ .

٣ — نظام الحكم فى مصر فى العصر الرومانى :

(ا) النظام الإدارى :

١ — من الفتح الرومانى حتى نهاية القرن الثانى : لم يدخل الرومان على نظام الإدارة فى مصر تعديلات أكثر مما تطلبته الظروف ، لأن سياسة الرومان بوجه عام خلال فتوحاتهم فى الشرق ، كانت تقضى بتجنب تغيير النظم ماأمكن فى البلاد التى تتمتع بإدارة منظمة .

لما كانت روما فى حاجة قصوى إلى الانتفاع بموارد مصر الطائلة فى تخفيف عبء ماليتها ، وإمداد شعبها بمقادير وفيرة من القمح ، ولما كان فى وقوع مصر فى يد قوية مناوئة للإمبراطور ، أو فى قيام اضطرابات بين الأهالى ، خطر يهدد كيان الإمبراطور ، حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر خاضعة لإشرافهم مباشرة ، وعلى ألا يتولى رجال السناتو أو من فى مرتبتهم مناصب إدارية فى مصر ، أو يدخلوها دون استئذانهم ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطيا . ولذلك أسندت المناصب الرئيسة فى السلطة المركزية إلى رومانيين يوفدهم الأباطرة من قبلهم ، ويستبقونهم فى مناصبهم أو يعزلونهم كما يتراءى لهم . وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام

(Prefect) كان يتمتع بمعظم السلطة التى كانت من نصيب الملك فى عهد البطالسة ، فإنه كان يهيمن على إدارة البلادالعامة وشئونها المالية والقضائية تحت إشراف الأباطرة مباشرة . وكان يلى الحاكم العام فى الهيمنة على الشئون القضائية موظف يدعى ديكايودوتس (Dikaiodotes) يرجح أنه كان الرئيس الفعلى فى الشئون القضائية . أما فى الشئون المالية فكان للحاكم العام مساعدان هما الإديولوجوس (Idiologos) والديويكيتس (Dioiketes) ، اللذان يجوز اعتبارهما مستشارين للحاكم العام فى الشئون المالية ، ورقيبين على تصرفاته . وكان لهماوكلاء (Epitropoi أو Procuratores) يمثلون الإدارة المالية المركزية فى الإشراف على موارد الدولة المختلفة فى أنحاء البلاد .

ومن أجل تسهيل الإدارة العامة قسمت البلاد منذ أوائل أيام الإمبراطورية ثلاثة أقسام : الدلتا ، ومصر الوسطى ، ومصر السفلى ؛ وأسندت إدارة كل قسم إلى إبستراتيجوس (Epistrategos) ، وكان يعين الإمبراطور هؤلاء الحكام (Epistrategoi) ، إلا أنهم كانوا يخضعون للحاكم العام مباشرة ، ويستمدون منه معظم سلطتهم ، وقد كان اختصاصهم إداريا بحتا .

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة ينقسم إلى مديريات ، على رأس كل منها قائد كان يلى حاكم القسم فى المرتبة ، ويتلقى منه جميع الأوامر فيما عدا الشئون المالية ، فإنه كان يرجع فيها إلى الإدارة المالية المركزية فى الإسكندرية. ولم يكن للقائد أى اختصاص حربى ، لكن كان يمتد نفوذه إلى جميع نواحى الإدارة المدنية . وكان يلى القائد فى المرتبة الكاتب الملكى ، وكان أهم اختصاصاته متعلقاً بالشئون المالية فى الإدارة المحلية . وكان يجىء بعد الكاتب الملكى رؤساء مكتب السجلات ، الذى كان ينقسم قسمين ، أحدهما خاص بالأراضى ، والآخر بالإحصائيات المالية ، وكان يشرف على كل من هذين القسمين رئيسان (Bibleophylakes) .

وكان مقر إدارة كل مديرية فى عاصمتها ، ولم تتمتع تلك العواصم حتى نهاية القرن الثانى باستقلال محلى ، على أنه كان لكل منها عدد من الحكام غير

المأجورين ، لم يكونوا حتى عام ٢٠٠ هيئة ذات سلطة إجماعية . وكان يمثل السلطة المركزية فى إدارة تلك المدن القائد وكاتب المدينة .

وكانت تنقسم كل مديرية إلى عدد من القرى ، يدير الشئون المحلية فى كل منها جماعة من شيوخها ، كانوا حلقة الاتصال بين الأهالى والحكومة فى دفع الضرائب ، كما كانوا يراقبون فلاحة أراضى القرية ، ويمدون الحكومة بما تطلبه من العمال أو الجنود ، لخدمتها فى وقت الحاجة ، وكانوا أيضاً مسئولين أمام القائد عن حالة الأمن فى قراهم . ولا نعرف طريقة انتخاب شيوخ القرية ، وربما كان وجودهم يرجع إلى رغبة الحكومة الرومانية فى إيجاد وسيلة تزيد اطمئنانها على الحصول على ضرائب القرى ، لأن هؤلاء الشيوخ كانوا مسئولين شخصياً عن تسديد ضرائب كل قرية ، ويرجح أن خدمتهم كانت فرضاً إجباريا على أثرياء كل قرية مدة عام بدون أجر . وكان يمثل السلطة المركزية فى إدارة كل قرية رئيس البوليس وكاتب القرية .

لقد كانت المدن الاغريقية خارج نفوذ السلطة المحلية ، وكانت تتمتع ثلاث منها بشيء من الاستقلال الذاتى فى إدارة شئونها المحلية ، فقد كان لكل من نقراطيس وبطوليميس وأنطنيؤبوليس دستور إغريقى ، أهم قواعده مجلس وهيئة حكام خاصة . أما الإسكندرية فإنه لم يكن لها مجلس للسناتو حتى نهاية القرن الثانى ، وكان يدير شئونها هيئة حكام خاصة ، تتكون من مثل حكام عواصم المديريات ، ومن ممثلى السلطة المركزية ، (Archidikastes و Hypomnematographos ، وكانا ينوبان عن الحاكم العام فى الشئون القضائية و Nukterinos Strategos وكان رئيس بوليس المدينة) .

٢ — فى القرن الثالث : شاهد القرنان الأول والثانى من حكم الرومان زيادة مطردة فى تطبيق مبدإ المناصب غير المأجورة . ويبدو أنه فى بداية الأمر كان يتولى أغلب المناصب المحلية فى المدن أشخاص متطوعون من الأثرياء ، لكن بمضى الوقت عند ماتعذر وجود أشخاص قادرين مستعدين لتحمل تبعات تلك المناصب ، قسم اختصاص كل منصب بين عدة أفراد . ومنذ بداية القرن

الثانى بعد الميلاد أصبحت القاعدة إرغام الأفراد المناسبين من أهالى المدن والقرى على ملء المناصب غير المأجورة فى الإدارة المحلية مدة معينة. وكان يقضى النظام نظرياً بألا يرغم شخص على تولى منصب غير مأجور مرة أخرى قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه المنصب مرة سابقة، وكان يُعفى من تولى الوظائف غير المأجورة المواطنون الرومانيون وقدماء المحاربين ومواطنو الإسكندرية وأنطنيؤبوليس خارج هاتين المدينتين، والأطباء العموميون، وأساتذة معهد الإسكندرية، والفائزون فى المباريات العامة، وعدد معين من قساوسة كل معبد، والعجزة. لكن عند ماقل عدد الأشخاص اللائقين لتولى هذه المناصب، ازداد تدريجياً تغاضى الحكومة عن هذه الاعفاءات؛ وعند مازار الإمبراطور سبتميس سفرس مصر فى عام ٢٠٠، ورأى أن الاضمحلال قد أخذ يدب فى موارد البلاد، وأن الإدارة الحكومية المحلية توشك أن تتداعى، أدخل بعض التعديلات على نظام الإدارة المحلية، مؤملا أن يصلح بذلك ما أفسده الدهر.

ولما كان محور هذه التعديلات منح الإسكندرية وعواصم المديريات مجالس للسناتو، فإنه لم يكن لهذه التعديلات أثر جوهرى فى السلطة المركزية، أو فى إدارة المدن الإغريقية الأخرى. وقد انتقل إلى هذه المجالس تعيين كبار الحكام المحليين. وكان السناتو يرشح أيضاً الأشخاص الملائمين لأداء مهام أخرى دون أجر. وأصبح من اختصاص السناتو تعيين جباة الضرائب فى كافة أنحاء المديرية. وتعيين المراقبين الذين يشرفون على جمعها، لأن السناتو كان الضامن الأخير لتسديد ضرائب الحكومة. وقد كان أساس النظام الجديد تقسيم كل مديرية إلى أقاليم (Toparchies) يختار لكل منها مراقبان (Dekaprotoi) كانا عادة من رجال السناتو، للإشراف على جباة الضرائب (Praktores) وغيرهم. وترتب على هذا النظام إحياء وظيفة حاكم الأقاليم (Toparch).

وقد أدى تكوين السناتو إلى إيجاد مراكز إدارية جديدة، أهمها مركز (Prytanis)، الذى كان يرأس السناتو وينفذ قراراته؛ ومركز (Hypomnematogratophos) الذى يرجح أنه كان بمنزلة كاتب المدينة؛

ومركز (Syndikos) وكان مستشار السناتو فيما يتعلق بالشئون الدستورية ؛ ومركز (Tamias) الذى كان يختص بشئون المدينة المالية ؛ ومركز (Nuktostrategos) وكان رئيس بوليس المدينة . ويجب ألا يغيب عن البال أن سلطة السناتو الإدارية كانت مقصورة على عاصمة المديرية ، ولم تمتد إلى كل تلك المديرية التى كانت هى مقر إدارتها .

وكان أهم التعديلات التى أدخلت على إدارة القرى إحياء وظيفة حاكم القرية (Komarch) ، والقضاء تدريجياً على اختصاص الشيوخ وكاتب القرية ، فقد أسندت الإدارة إلى حكام القرى الذين كانوا اثنين عادة فى كل قرية . وكانت وظيفة هؤلاء الحكام غير مأجورة ، ويبدو أنها كانت لمدة عام واحد . وكان حكام القرية يرشحون خلفاءهم ومن تحتاج إليهم الإدارة من موظفين . لكنهم كانوا لايتولون مهامهم قبل أن يوافق القائد على اختيارهم .

لا شك أن التعديلات التى أدخلها سبتميس سفرس على نظام الإدارة اعتراف صريح بإخفاق النظام القديم ؛ ولا شك أيضاً أنه كان يبغى من وراء منحه الأهالى شيئاً من الاستقلال المحلى إنعاش حالة البلاد الاقتصادية ، وإيجاد وسيلة تعطى الإمبراطور ضماناً أكبر للحصول على الضرائب ، لكن لاهذه التعديلات ولا الحقوق المدنية الرومانية التى منحها كركلا الإغريق ، أفلحت فى إنعاش حالة البلاد . بل أخذت تسير من سيئ إلى أسوأ ، مما حفز الإمبراطور ديوكليشان إلى إعادة تنظيم الإدارة من أسسها إلى أعاليها .

٣ — فى العصر البيزنطى : عدل ديوكليشان عن محاولة وضع نظام خاص لإدارة مصر ، وجعل إدارتها شبيهة بإدارة الولايات الرومانية الأخرى . ويجدر بنا هنا أن ننوه بأن هذا الامبراطور قسم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين رئيسين : قسم شرقى وقسم غربى ، وجعل مصر تابعة للقسم الشرقى ، الذى أصبحت فيه آسيا محور الإمبراطورية بدلا من إيطاليا ، فمهد السبيل للإمبراطور قنسطنطين الأول ، الذى اتخذ من بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى عام ٣٢٨ ، وأطلق عليها اسم القسطنطينية . لقد أبقى

ديوكليشان مصر وحدة إدارية واحدة ، وإن كان قسمها إلى ثلاث مقاطعات : (Thebais, Aegyptus Herculia, Aegyptus Jovia) يحتمل أنها كانت تقابل أقسام الدلتا ، ومصر الوسطى ومصر العليا ، التى كانت أقسام مصر فى النصف الأول من حكم الرومان . وفى خلال القرن الرابع تكونت مقاطعة رابعة (Augustamnica) من الأقاليم الشرقية فى المقاطعتين الأولى والثانيــــة ، ثم أضيفت ليبيا إلى مصر ، فأصبحت المقاطعات خمساً ، وغُير اسم المقاطعتين الأولى والثانية ، فأصبحتا على التعاقب Arcadia, Aegygtus. ولم يحدث تغيير بعد ذلك سوى تقسيم كل مقاطعة من مقاطعات Aegyptus Augustamnica, Thebais, وليبيا قسمين. وقد كان ديوكليشان يرى ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية ، فوضع على رأس السلطة المدنية حاكما عاما (Praefectus Aegypti) يهيمن على الإدارة والمالية والقضاء ، وأسند قيادة الجنود إلى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم العام مباشرة ، أما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء (Praesides) يقيم كل منهم فى مقاطعته، لكنهم يخضعون للحاكم العام. وعند ماضمت ليبيا إلى مصر منح الحاكم العام لقبا ممتازا (Praefectus Augustalis) ، وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص (Dux Libyarum, Dux Thebais, Comes Aegypti).

وفى عام ٥٣٨ أدخل جوستينيان تعديلين على نظام الإدارة فى مصر ، قضى أحدهما على اعتبار مصر وحدة إدارية واحدة ، فإن هذا الإمبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الأولى ، وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الأخرى وجعلهم جميعاً خاضعين لحاكم الشرق (Praefectus Praetorio Orientis). أما التعديل الثانى فهو الجمع بين السلطتين المدنية والحربية ، وإسنادهما معاً إلى حكام المقاطعات ، الذين أصبح كل منهم فى مقاطعته رئيس الإدارة والبوليس والقضاء والمالية ، لكن كان حاكم المقاطعة الأولى هو الذى يجمع فى الإسكندرية كل ضرائب مصر نوعاً ونقداً ، ثم يرسلها إلى القسطنطينية . وكان حكام المقاطعات

يُختارون فى بداية الأمر من الأجانب ، لكنهم أصبحوا تدريجيا يُختارون من بين أهالى البلاد . ومنذ عام ٥٦٩ اكتفى الأباطرة بالموافقة على تعيين الحكام الذين كان يرشحهم رجال الكنيسة وكبار ملاك الأراضى . وكان يساعد حاكم كل مقاطعة فى الشئون المدنية رئيسان (Praesides ومفردها Praeses) كان كل منهما بمنزلة قاض ورئيس الإدارة المالية المحلية فى أحد قسمى المقاطعة .

وقد تبع تقسيم البلاد إلى مقاطعات إعادة تنظيم الإدارة المحلية فى أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملى للمديريات ، فإنها قسمت إلى أقاليم (Pagi) أصبحت هى الوحدات الفعلية فى الإدارة المحلية . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جمع الضرائب(Exactor) الذى كان يلى الرئيس (Praeses) فى المرتبة ، وإليه انتقلت اختصاصات القائد فى الشئون المالية . أما اختصاصات القائد المدنية فإنها انتقلت إلى حاكم آخر (Logistes) كان فى الأصل ممثل السلطة المركزية . لكنه أصبح حاكما محليا دائماً يتمتع بنفوذ فى الأقاليم والمدن على السواء ، وآلت إليه اختصاصات حكام المدينة القدماء ، وبعد القرن الرابع حل مكانه حاكم آخر (Defensor) . وقد استمرت مجالس السناتو فى المدن . إلا أن حكام المدن القدماء زالوا بالتدريج ، وأصبح رئيس السناتو وكاتب المدينة يعرفان على التعاقب باسم Logographos, Propoliteuomenos ، وكان يحكم كل إقليم Praepositus وكل قرية Komarch حتى القرن السادس عند ماخلف الاثنين حاكم جديد (Pagarch) كان عادة أحد كبار الملاك فى الاقاليم .

(ب) النظام المالى :

سنعرض أولا لسياسة الرومان وحالة البلاد الاقتصادية فى ظل الحكم الرومانى قبل أن نتناول النظام المالى . يجمع المؤرخون على أن الرومان كانوا يبغون من وراء سياستهم الاقتصادية فى مصر غرضاً واحداً ، هو استغلالها إلى أقصى حد لمنفعتهم الخاصة . وإذا كانت قد تفاوتت آراء بعض الأباطرة عن آراء بعض ، فإن ذلك التفاوت لم يكن فى المبدإ نفسه ، بل فى مقدار ذلك الاستغلال ، إذ بينما كانت تملى الحكمة على بعضهم تجنب تكليف البلاد مايزيد

على طاقتها ، لاشفقة بالبلاد أو أهليها ، بل شفقة بأنفسهم ، كى لايجف معين البلاد ، نرى أن البعض الآخر قد ضرب بتلك الحكمة عرض الحائط ، وراح يبتز كل ماتملك البلاد .

ولما كان مقدار ما تجنيه روما فى النصف الأول من حكم الرومان ، أو القسطنطينية فى العصر البيزنطى ، متوقفا على مقدار ثروة مصر ، كان طبعيا أن يوجه الأباطرة عنايتهم إلى تنمية موارد مصر الاقتصادية ، التى كانت قد اضمحلت فى أواخر أيام البطالسة ، فوجه أغسطس وحصيفو الرأى من خلفائه اهتمامهم إلى ضبط مياه النيل ، وحسن تصريفها ، وما يتطلبه ذلك من كَرْى الترع القديمة ، وإنشاء ترع جـــديدة ، والمحافظة على الجسور . وعنى الأباطرة المصلحون بتشجيع الصناعة ، فتنازلوا عن أغلب الصناعات التى كانت تحتكرها الدولة فى عهد البطالسة ، وسهروا على ترقيـة الصناعات بطرق شتى ، فازدهرت عدة صناعات ناجحة فى عواصم المديريات ، وفى الإسكندرية بوجه خاص . وكان طبعيا أن يهتموا أيضاً بالتجارة الخارجيـة . وخاصة التجارة الشرقية ، ولذلك وجه كثير من الأباطرة عنايتهم ليعيدوا إلى قبضة مصر تلك التجارة التى كان قد استولى عليها العرب والفرس خلال أيام البطالسة الأواخر. ولعل أبلغ دليل على تلك العناية اهتمامهم بشئون الملاحة فى البحر الأحمر ، وبعلاقاتهم مع القبائل النازلة على شواطئه الجنوبية ، وبإصلاح الآبار الواقعة على الطرق الصحراوية ، التى تربط النيل بالبحر الأحمر ، وبشق طرق جديدة ، وبالعمل على استتباب الأمن فى تلك الجهات .

ويبدو لأول وهلة أن القرن الأول من حكم الرومان (من أغسطس إلى آخر حكم نيرون ، أى من ٣٠ ق . م . — ٦٨ م) حمل فى طياته رخاء عميما . لكن إذا دققنا النظر وجدنا أن ذلك الرخاء كان من نصيب روما قبل كل شىء ، ومن نصيب الاسكندرية أيضاً . أما مصر نفسها فقد كانت البقرة الحلوب التى درت تلك الخيرات حتى أخذت تظهر بوادر اضمحلالها ، فإن كل نظام الإدارة كان موجهاً إلى غاية واحدة ، هى تمكين الدولة من استعباد الفلاح فى خدمتها ،

وابتزاز أموال دافعي الضرائب . ويحتمل أنه فى عهد أغسطس وتيبريس لم يُطلب إلى البلاد أكثر مما تقوى عليه ، لكن حتى فى عهد أغسطس كان عبء الأعمال الضرورية لإصلاح الزراعة ثقيلا على كاهل الأهالى ، فكان سبباً فى ثورتهم . وتنبئنا الوثائق بأنه فى عصر تيبريس كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس والسخرة ، ويحتمون فى الأدغال والمستنقعات ، حتى إن بعض القرى هجرت بأكملها تقريباً . وقد ناء الأهالى بعبء آخر ، هو القيام بإمداد الحاميات الرومانية بما تحتاج إليه ، وإمداد رجال الإدارة فى تنقلاتهم من مكان إلى آخر . هذا إلى جانب سلسلة من الضرائب المرهقة .

إن السياسة الحكيمة التى ورثها الأباطرة المستنيرون عن نيرون ، واتبعوها خلال القرن الثانى من حكم الرومان (من جلبا إلى آخر حكم ماركس أورلياس أى من ٦٨ — ١٨٠) أنعشت حالة البلاد الاقتصادية ، إلا أنه تبدو منذ منتصف هذه الفترة بوادر تدل على أن ثروة البلاد كانت آخذة فى التدهور ، وليس أدل على ذلك التدهور من التوسع فى تطبيق نظام الوظائف غير المأجورة فى الإدارة المحلية ، فقد أصبح من المتعذر وجود متطوعين لتحمل أعباء هذه المناصب ، فأصبحت القاعدة منذ بداية القرن الثانى بعد الميلاد تعيين الموظفين غير المأجورين قسراً ، وامتد إرهاق الأهالى العاديين إلى الطبقات الممتازة ، وكان إرهاقاً أشد وطأة منه فى أى فترة مضت . ولعل ذلك يرجع إلى تطبيق نظام المسئولية الإجماعية ، فقد جعلت هيئة أو قرية مسئولة عن أداء أعمال الموظفين غير المأجورين الذين ينتمون إليها ، وكان هذا النظام أحد العوامل الهامة التى أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية . وأخذت بعد ذلك تزداد الحالات التى كان يهرب فيها المرشحون لمثل هذه المناصب من موطنهم ، فراراً من ثقل الأعباء ، فكثر صدور الأوامر إلى الهاربين بالعودة إلى موطنهم ، مع إعفائهم من تبعاتهم القديمة إذا أطاعوا هذه الأوامر . هذا إلى أن ثورة اليهود فى عصر تراجان كانت لطمة قاسية للزراعة فى مصر ، لأنها أبعدت الزراع مدة غير قصيرة عن جانب كبير من الأراضى ، ولعل نتائج « حرب الزراع » كانت أسوأ أثراً ،

إذ عزى إليها تناقص سكان القرى ، لكن ربما كان نقص سكان القرى يرجع إلى أسباب أخرى ، مثل كثرة الضرائب وإهمال الترع والجسور .

وليس تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن الثالث من حكم الرومان (من كومودس إلى أول حكم ديوكليشان أى من ١٨٠ — ٢٨٤) سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر ، يسير من سيئ إلى أسوأ ، بسبب ازدياد عبء الضرائب والوظائف غير المأجورة . وقد زاد حال الزراع سوءا إهمال نظام الرى ، فأصبح عملهم غير مثمر ، حتى إن كثيرين منهم فروا من موطنهم ، مفضلين أن يعيشوا على السطو والنهب ، فتركت مساحات واسعة من الأراضى دون زرع . وزاد الطين بلة أن الحكومة لم تنقص قيمة الضرائب المطلوبة من نواحى البلاد المختلفة ، حتى بعد فرار بعض الأهالى ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذت قيمة الضرائب تزداد على من بقوا فى بلادهم ، بنسبة الذين كانوا يفرون منها . ولعل أكبر العبء كان يقع على التاعسين الذين كانوا يرغمون على الإشراف على جباية الضرائب فى قراهم ، فإن الحكومة كانت تستولى على ممتلكاتهم حتى تسدد الضرائب جميعها . وليس أدل على تدهور مرافق البلاد الاقتصادية بوجه عام من تدهور قيمة العملة تدهورا سريعاً خلال هذا القرن ، فكان لذلك أيضاً آثار بعيدة المدى فى الصناعة والتجارة الخارجية ، فقد صحبه غلاء المعيشة ، واستبدال نظام الاقتصاد الطبيعى تدريجيا بالنقود . فلا عجب إذن أن نضب معين البلاد بسبب السياسة الخرقاء التى اتبعها الرومان خلال الثلاثة القرون الأولى من حكمهم ، مما دفع ديوكليشان عند ارتقائه العرش إلى إدخال تعديلات جديدة على نظام الحكم فى مصر .

لقد أفلحت المجهودات التى بذلها بعض أباطرة العصر البيزنطى إلى حد ما فى وقف تدهور حالة مصر الاقتصادية هنيهة فى بداية هذا العصر . لكن ذهب هباء كل جهود الأباطرة فى سبيل إنعاش حالة البلاد الاقتصادية ، بسبب ضعف الإدارة واضطراب حال البلاد ، وإهمال نظام الرى ، وفداحة الضرائب ، وتدهور قيمة العملة باستمرار . فلم تلبث أن أخذت تضمحل موارد البلاد ، كما أخذ الأهالى

يفرون من التبعات الملقاة على عاتقهم ، وحاولت الحكومة عبثاً ، أن تحول دون ذلك . لقد كان الأشخاص المسئولون عن دفع الضرائب يهجرون موطنهم أو يهربون إلى الأديار فى قلب الصحراء . وكان صغار المزارعين يفرون من قراهم أو ينزلون عن أراضيهم لبعض الأثرياء ذوى النفوذ ، ويصبحون كموالى لهم ، على أن يحموهم جور عمال الحكومة . وقد حارب الأباطرة ذلك دون جدوى حتى آخر القرن الرابع . فأخذت تختفى تدريجياً خلال القرن الخامس طبقة صغار الملاك ، حتى لم يكن لها وجود فى بداية القرن السادس . وازدادت تدريجيا الضيعات الواسعة . فإن معظم أراضى الامتلاك الخاص وجانبا كبيرا من أراضى الدولة آل إلى فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضى ، الذين بسطوا سلطانهم الفعلى على القرى المجاورة ، التى وضعت نفسها تحت حمايتهم ، وأصبحت الحكومة عاجزة أمام نفوذ كبار الملاك ، فانتهى بها الأمر فى القرن الخامس إلى اعتبارهم السلطات المسئولة فى مناطقهم ، وسمحت لهم بسلطان مستقل فيها . ولم يكن لهؤلاء السادة منافسون سوى الكنيسة المسيحية . التى لم تكتف بتحدى سلطة الأباطرة فى الشئون الدينية والمدنية ، بل أضافت باستمرار أملاكا جديدة إلى ممتلكاتها ، وكانت ضيعات الكنيسة بوجه عام فى قبضة الأديار . ولما كانت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديار الدينية ، فإن منتجات أهالى تلك الأقاليم كانت فى قبضة أقطاب الكنيسة ، وإذ كان لهؤلاء سلطان كبير كان فى استطاعتهم مقاومة أى جور من جانب الحكومة . ويحتمل أنه قد ساعد على توطيد مركز كبار ملاك الأراضى خلال القرن السادس ، اتساع الخلاف الطائفى بين المسيحيين فى مصر ، وهو نتيجة للسياسة التى اتبعها جوستنيان ، فإنه عند ما منح بطريرك الملكائيين سلطة مدنية وجدت مصلحة مشتركة بين اليعاقبة الذين أرادوا حماية أنفسهم من سلطان القسطنطينية الدينى ، وكبار ملاك الأراضى الذين كانوا يتطلعون إلى التخلص من إشراف ممثلى الأمبراطور ، فيرجح أن كبار ملاك الأراضى أصبحوا إذ ذاك حماة الكنائس أيضا ، كما كانوا حماة أهالى الأقاليم . بسبب ذلك قوى مركز كبار الملاك ، وغدت الوظائف المحلية الرئيسة وراثية

فى أسرهم ، ولم يعد للسلطة المركزية أى إشراف فعال فى الأقاليم ، فعمت الفوضى والاضمحلال البلاد .

لقد كان حال الصناعة والتجارة أخف وطأة من حال الزراعة ، لكن يجب ألا ننسى أن الزراعة كانت دائما ولا تزال دعامة ثروة مصر . وعلى كل حال فإن الصناعات التى تعهدها أباطرة روما انحدرت رويدا فى هاوية التدهور فى العصر البيزنطى هــذا ، وإن بقى فى الإسكندرية وبعض البلاد الداخلية صناعات هامة حتى آخر هذا العصر . وقد تدهورت أيضا التجارة الخارجية تدريجيا فى هذا العصر ، لتدهور الزراعة والصناعة ، واهتمام الفرس والأمم التى تقطن على شواطئ البحر الأحمر الجنوبية بالتجارة الشرقية . وليس أدل على تناقص التجارة الشرقية من أن الأهالى أخـذوا يهجرون تدريجيا موانئ البحر الأحمر . وفى نهاية القرن السادس كانت القلزم الميناء المصرى الوحيد على شاطئ البحر الأحمر ، الذى يشتغل بنقل التجارة . وبالرغم من أن التجارة الشرقية لم تنقطع ، فإنه يشك فى أن لهذه التجارة صلة بأى جزء من البلاد فيما عدا الإسكندرية . وكان مما ساعد على تدهور التجارة الخارجية ، أن كبار ملاك الأراضى والجمعيات الدينية كانوا يؤلفون من أنفسهم وأتباعهم جاليات . كانت كوحدات اقتصادية تكفى حاجات نفسها . ولما كانت ثروة الإسكندرية تقوم إلى حد كبير على التجارة التى تمر بها ، فإن ذلك عاد عليها بخسائر كبيرة . وقد زاد حال العاصمة سوءا طرد اليهود منها ، لأنهم كانوا عنصرا هاما فى الحياة الاقتصادية ، فعانت عاصمة مصر بعض ما عانته بقية البلاد ، لكنها بقيت أعظم المدن فى البحر الأبيض المتوسط .

حقا لقد كان عبء نظام الرومان المالى ثقيلا ، بل يمكن القول إنه كان أشد وطأة من نظام البطالسة . ولم يقل نظام تقسيم الأراضى فى عهد الرومان تعقدا عنه فى عهد البطالسة ، ونرى أنه أبقى على بعض مظاهر ذلك النظام ، وقضى على بعض آخر ، وأدخل عليه مظاهر جديدة . وكل ما يمكننا أن

نستخلصه من أكداس الوثائق عن ذلك النظام يتلخص فى تقسيم الأراضى كما يلى :

(أولا) أراضى الدولة ، وكانت تتكون من الأراضى الملكية التى ورثها الأباطرة عن البطالسة ، ومن الأراضى التى انتزع الأباطرة ملكيتها من أراضى المعابد وبعض إقطاعات الجنود ، وأملاك الرومانيين من أصدقاء أنطونيوس .

(ثانيا) أملاك الأباطرة الخاصة ، وكانت تتكون من الأراضى التى كان البطالسة قد منحوها أصحاب الحظوة لديهم ، وانتزعها الأباطرة منهم . وكانت أراضى الدولة وبعض أراضى الأباطرة الخاصة تؤجر على نمط شبيه بتأجير الأراضى الملكية فى عهد البطالسة . ويرجح أن الأباطرة كانوا فى بداية الأمر يمنحون بقية أراضيهم الخاصة لذويهم والمقربين إليهم ، لكن منذ النصف الثانى من القرن الأول أخذوا يستردون تلك الأراضى ، ويمنحون طائفة من الزراع حق استغلالها .

(ثالثا) أراضى الامتلاك الخاص ، وكانت تتكون من (١) إقطاعات الجنود التى لم تنزع ملكيتها (٢) الأراضى التى احتفظت المعابد بملكيتها (٣) الإقطاعات التى منحت لقدماء المحاربين (٤) الأراضى التى انتزعت الدولة ملكيتها وباعتها . ويلاحظ أن مساحة أراضى الامتلاك الخاص أخذت فى الازدياد منذ القرن الثانى ، وقلت تبعا لذلك مساحة الأراضى العامة .

(رابعا) أراضى المدن أو القرى ، ويخيل إلينا أنها كانت تتكون من الأراضى التى كان يملكها أفراد تلك المدن أو القرى ، وآلت إلى مدنهم أو قراهم بسبب انقراض نسل أصحابها ، أو تركهم إياها هبة لتلك المدن أو القرى .

وتتلخص موارد الأباطرة من الزراعة فى استغلال أراضى الدولة وأملاكهم الخاصة ، وفى الضرائب ، وكانت أهمها ضريبة القمح . وكانت تفرض هذه الضريبة على الأراضى التى تزرع قمحا ، وكانت تدفع نوعا وترسل إلى روما فى النصف الأول من حكم الرومان ، لكنها كانت ترسل إلى القسطنطينية فى العصر البيزنطى . أما الأراضى التى كانت تزرع حدائق أو كروما أو ماشابه

ذلك ، فقد كانت تفرض عليها ضرائب شتى تدفع نوعا . وكانت هناك أيضا ضرائب على الحيوانات المستأنسة ، تتوقف قيمتها على نوع الحيوان .

إن قلة المعلومات التى لدينا عن الصناعات والحرف تجعل استجلاء حقيقتها أمراً عسيراً . لكننا نرجح أن الدولة كانت لاتزال تحتكر بعض الصناعات هذا ، وإن كانت قد تنازلت عن أغلب الصناعات التى كانت تحتكرها فى عهد البطالسة ، تشجيعاً للمجهودات الخاصة . وعلى كل حال كانت الدولة تشرف على مزاولة الحرف والصناعات ، حتى إنها تعين عدد المشتغلين بكل منها فى كل مدينة أو قرية على حسب ماتقتضيه حاجات البلاد . وكانت تمنح مباشرة ذلك العدد رخصاً لقاء ضريبة يدفعها كل منهم . أو تؤجر حق مزاولة صناعة ما أو بعبارة أخرى حق احتكار تلك الصناعة فى أى مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة ، لقاء جميع الضرائب التى كانت تجبيها الحكومة لو منحت رخصا للاشتغال بتلك الصناعة لأفراد مختلفين فى ذلك المكان . وكان هؤلاء المستأجرون يؤجرون ذلك الحق لغيرهم ، أو يستغلون بأنفسهم تلك الصناعة . وكانت الطريقة التى تتبعها الحكومة تختلف من عام إلى عام باختلاف الظروف وكانت تقدر الضريبة على أساس سنوى ، وتختلف باختلاف الصناعات والأمكنة التى تزاول فيها .

وكانت موارد الدولة من التجارة فى عهد الرومان ضئيلة ، لأنه يخيل إلينا أن الرومان قضوا على الضرائب الفادحة ، التى فرضها البطالسة على التجارة الخارجية ، فإن رغبتهم فى تشجيع تجارة مصر مع الإمبراطورية الرومانية ، أدت إلى إزالة الضرائب على تجارة مصر الخارجية ، فى حوض البحر الأبيض . وإذ كان الرومان قد فرضوا ضرائب على تجارة مصر الشرقية ، فإنه يلوح لنا أن مقدار تلك الضرائب كان خفيفاً . وقد كانت هناك ضرائب على التجارة الداخلية كمكوس على انتقالها من إقليم إلى آخر ، بل كانت تفرض على المسافرين سلسلة من الضرائب ، تختلف قيمتها باختلاف مراكزهم ووسيلة سفرهم .

وكانت تجبى الدولة فوائد جمة من ضرائب شتى ، أهمها ضريبة الرأس

وضريبة لشراء تاج الإمبراطور عند ارتقائه العرش ، وضريبة لإقامة تماثيل للأباطرة ، وضريبة على الأملاك العقارية . وضريبة على بيع الممتلكات . وكانت توجد إلى جانب ذلك عدة التزامات كانت كضرائب فادحة ، أثقلت كاهل الأهالى ، مثل سد حاجات الجنود ، والقيام بعبء الوظائف غير المأجورة ، وتسخير الأهالى فى العمل فى الترع والجسور .

وكان الأباطرة كل عام يقررون مقدار ما تدفعه مصر من الضرائب ، لكن كان تقدير الضرائب التى تفرض على مختلف نواحى البلاد من اختصاص الحاكم العام ، على أساس المعلومات التى كان يقدمها إليه الحكام المحليون . وقد اتبع الرومان فى بداية الأمر نظام جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر تيبريس ، إذ نسمع للمرة الأولى عن جبايتها بموظفين (Praktores) . لكن هذا النظام لم يقض على سابقه قضاء تاماً ، فإنه حتى أواخر القرن الثانى كان بعض الضرائب كالضرائب الجمركية لايزال يجبى على وفق النظام القديم . وحتى نهاية القرن الثانى كان كاتب المدينة أو القرية يعد قائمة بأسماء أهلها الذين لديهم نصاب معين ، وكان القائد يختار من بينهم جباة (Praktores) يشتغلون عادة مدة ثلاث سنوات . وكان الجباة يمنحون قدراً معيناً أجراً لتكاليفهم ، إلا أنه لم يكن كافياً ، فكثيراً مانسمع عن محاولتهم تخفيف أعبائهم باغتصاب مقادير أكبر من الضرائب المقررة ، أو بفرارهم من موطنهم . وكان الجباة عادة يقسمون أنفسهم إلى جماعات ، تقوم كل منها بجباية ضريبة معينة ، إلا أنهم كانوا مسئولين جماعات ووحداناً عن دفع المبلغ المقرر ؛ وكانوا يرغمون على دفع الضرائب التى لم يتمكنوا من جمعها . وكان الجباة يقدمون مايجمعون من الضرائب إلى المصرف أو المخزن المحلى ، بحسب نوع الضرائب. ولكى تتحقق الحكومة من الحصول على جميع الضرائب ، كانت تختار هيئات تضطرها إلى مراقبة الجباة ، ودفع ما يعجز هؤلاء عن تقديمه ؛ وزيادة فى الاحتياط للأموال كانت الحكومة تختار لإدارة كل مصرف ومخزن محلى جماعة

مسئولة عن إدارة المصرف أو المخزن ، وعن تسلم الضرائب كاملة من الجباة ، وتكميل العجز الذى قد يحدث .

وبعد إصلاحات سفرس كان مجلس السناتو فى عاصمة المديرية هو الذى يعين منذ القرن الثالث جباة الضرائب ومراقبيها (Dekaprotoi) فى كافة أنحاء المديرية . وألقيت على مجالس السناتو مسئولية دفع الضرائب ، حتى إن مراقبيها كانوا عادة من رجال السناتو .

وقد بقيت مجالس السناتو فى العصر البيزنطى مسئولة عن جمع الضرائب فى المدن والأقاليم ، لكننا لم نعد نسمع عن مراقبي الضرائب الذين كان يعينهم السناتو فى القرن الثالث . وكان يقوم بجمع الضرائب تحت إشراف المراقب (Exactor) هيئات مختلفة من الموظفين ، كانوا عادة من أعضاء السناتو . لكن عُدل عن هذا النظام فى الأقاليم منذ القرن الخامس ، عند ماعهدت الدولة فى شئون الضرائب ببعض القرى إلى كبار الملاك ذوى النفوذ فيها ، ممن كانوا يدفعون مبلغاً معيناً للخزانة ، يقومون هم بجمعه كما يتراءى لهم . أما القرى التى لم تمنح هذا الحق فإنها كانت تدفع ضرائبها على أيدى حكام الأقاليم .

(حـ) القضاء :

إن معلوماتنا عن النظام القضائى فى مصر فى عهد الرومان قليلة جدا ، حتى إننا كثيراً مانواجه مشاكل متعلقة به دون أن نستطيع إبداء رأى فيها . لكننا نعرف على كل حال أنه فى النصف الأول من حكم الرومان ، كان الحاكم العام على رأس ذلك النظام ، وأن اختصاصه كان لا يُحد ، وأنه لم يكن هناك سبيل إلى الإستئناف من أحكامه أمام غير الإمبراطور . وكان فى استطاعة المتقاضين أن يتصلوا به مباشرة ، وخاصة فى القضايا الهامة . أما فى القضايا العادية ، فإنهم كانوا يلجئون إلى السلطة المحلية ، لكن كان لهم حق الاستئناف إليه من أحكام مرءوسيه ، وكان الحاكم العام يعقد محكمته فى الإسكندرية فى شهرى يونية ويولية ، للفصل فى قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفى بلوزيم فى شهر يناير ، للفصل فى قضايا المديريات الشرقية ، وفى منف فى شهرى مارس وأبريل ، للفصل فى قضايا

بقية المديريات ، إلا أنه كان يرى أحياناً داعياً لزيارة مصر العليا ، وعقد محكمته فى طيبة .

وكانت محكمة الحاكم العام تتكون منه رئيساً ، ومن مساعدين له نعرف أنهم كانوا يختارون فى الولايات الأخرى من جنس المتخاصمين ، لكن لايمكن أن نجزم بشىء فيما يتعلق بمصر . بيد أننا نعرف أنه لم يوجد فى العهد الرومانى محاكم تتألف من قضاة مصريين أو إغريق ، مثل التى كانت توجد فى عهد البطالسة ؛ ونعرف أيضاً أن الرومان كانوا يُحتمون كتابة الوثائق بالإغريقية .

وقد كان المساعد الأول للحاكم العام فى الشئون القضائية هو الديكايودوتس (Dikaiodotes) ، إلا أننا نسمع أيضاً بوجود أركيديكاستس (Archidikastes) فى الإسكندرية ومنف . وكان حكام مصر السفلى والوسطى والعليا (Epistrategoi) ينوبون عن الحاكم العام فى الفصل فى القضايا . لكن لما كان هؤلاء من الرومانيين ، فإننا نجد أن الإغريق كانوا يلجئون عادة إلى القواد الذين كانوا من جنسهم ، للفصل فى قضاياهم ، كما كان المصريون يلجئون إلى شيوخهم ورجال الشرطة ، للفحص عن شكاويهم . وكان الناس يحاكمون على وفق القانون الرومانى أو الإغريقى أو المصرى بحسب أجناسهم .

ويرجح أن هذا النظام قد بقى فى جوهره فى العصر البيزنطى حتى إصلاحات جوستنيان ، لكن حل رؤساء المقاطعات مكان حكام أقسام مصر (Epistrategoi) أما بعد إصلاحات جوستنيان فقد كان حاكم كل مقاطعة الرئيس الأعلى فى شئونها القضائية ، ويُستأنف إليه من أحكام مرءوسيه ، مثل الرئيسين (Praesides) والحكام المحليين فى المدن والقرى والأقاليم . وكان لا يُستأنف من أحكام حاكم المقاطعة أمام غير الإمبراطور . وتحدثنا المراجع القديمة بأنه كانت توجد فى العصر البيزنطى إلى جانب المحاكم العادية محاكم خاصة للفصل فى القضايا التى تمس طبقات معينة ، مثل المحاكم العسكرية ، ومحاكم المطارنة .

(ى) الحالة الاجتماعية :

كان معظم عناصر السكان فى مصر الرومانية يتألف من الرومان، والإغريق، واليهود، والمصريين. ولما كانت سياسة الرومان فى حكم البلاد الخاضعة لهم تقوم على المبدأ المعروف «فرق تسد» قسموا سكان مصر إلى الطبقات الآتية :

(الأولى) طبقة الرومان، وتلك كانت الطبقة العليا فى البلاد. وقد كان عددها قليلا، لأنها كانت مقصورة على الجنود وبعض رجال الأعمال وكبار الحكام حتى أواخر حكم الرومان. أما غالبية المواطنين الرومانيين (Cives Romani) الذين تتحدث عنهم الوثائق التاريخية، فإنهم كانوا يتألفون من الإغريق أو الشرقيين (المتأغرقين)، الذين اكتسبوا الحقوق المدنية الرومانية. وكان يتمتع الرومانيون بمركز ممتاز، شبيه بمركز المقدونيين والإغريق فى عهد البطالسة، ولم يكونوا خاضعين إلا لكبار الحكام فى السلطة المركزية.

(الثانية) طبقة الاغريق؛ لما كان الرومان ينظرون إلى الحضارة الإغريقية نظرة إجلال واحترام، منحوا الإغريق مزايا خاصة. وليس أدل على ذلك من أنهم أبقوا اللغة الإغريقية لغة رسمية، ولم تستعمل اللغة اللاتينية إلا فى الجيش واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى. وخصصت للإغريق الوظائف التى تلى الوظائف الرئيسة مدة طويلة. أما هذه فإن الرومان أبقوها لأنفسهم حتى أواخر حكمهم، وأعفى الإغريق من ضريبة الرأس التى كانت كطابع للعبودية. وكان يسمح للإغريق بالانتظام فى سلك الفرق الرومانية الإضافية فى الجيش، وبذلك كانوا يحصلون على الحقوق المدنية الرومانية بعد تسريحهم. وقد كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للحصول على تلك الحقوق، حتى عصر كركلا، عند مامنحهم إياها. وكان الإغريق ينعمون بحياة راضية، فقد كان من بينهم كبار الحكام المحليين، وكبار التجار والصناع، وبعض أصحاب الأراضى، ووكلاء أصحاب الضيعات من الرومان، إلى جانب عدد كبير من صغار التجار والصناع وأهل الحرف المختلفة. ويمكن تقسيم الإغريق إلى ثلاث فئات، كانت أرفعها مقاماً، وأعزها جانباً، فئة إغريق المدن الإغريقية، وتليها فئة أثرياء الإغريق

فى عواصم المديريات، ثم تأتى فى المؤخرة فئة بقية الإغريق فى كافة أنحاء البلاد.

(الثالثة) طبقة اليهود ؛ وكان يبلغ عددها نحواً من مليون نفس فى بداية حكم الرومان . وقد ترك لهم الأباطرة المزايا التى كانوا يتمتعون بها فى عهد البطالسة ، لكنهم لم يمنحوهم الحقوق المدنية فى الإسكندرية ، حيث كان يعيش أكبر عدد منهم ، ولذلك كانوا أقل منزلة من الإغريق . وكانت تتكون غالبيتهم من أشخاص متوسطى الحال ، يشتغلون بالتجارة بوجه خاص . وكان اليهود مولعين باستعمال اللغة الإغريقية حتى فيما بينهم ، وبقراءة الآداب الإغريقية ، بل إنهم كانوا لا يقرءون كتبهم السماوية إلا فى الترجمة الإغريقية .

(الرابعة) طبقة المصريين ؛ وكانت تكون الطبقة السفلى ، التى عاملها الرومان معاملة المغلوب على أمره ، وفرضوا عليها كافة أنواع الضرائب ، وحرموا عليها استعمال اللغة الديموتيقية حتى فى وثائقها الخاصة ، ومنعوها من الاندماج فى الفرق الرومانية فى الجيش . ولم يأل الرومان جهداً فى مناوأة رجال الدين ، فإنهم فى عهد الوثنية أضعفوا قوة القساوسة ، بأن وضعوهم تحت سيطرتهم ، ونقصوا عدد المعابد التى كانت تتمتع بحق حماية اللاجئين إليها ، ونقصوا عدد القساوسة الذين كانوا يعفون من ضريبة الرأس . وفى عهد المسيحية ناصبوا أقطاب الكنيسة المصرية عداء شديدا ، على نحو ما مر بنا . وكان رجال الدين أرفع المصريين مقاماً فى عهد الوثنية ، أما فى عهد المسيحية فإن زعماء الكنيسة كانوا يتمتعون بسلطان واسع ونفوذ كبير ، لكن كان ينافسهم أصحاب الضيعات الكبرى ، الذين كان يُختار من بينهم كبار الحكام منذ أواخر القرن السادس . ويلوح لنا أن أصحاب الضيعات قد نشئوا على مر الزمن من بين ملاك الأراضى ، الذين كانوا يكوّنون طبقة متوسطة ، ويعيشون فى عواصم المديريات ، حيث اختلطوا بالإغريق ، وأخذوا عنهم لغتهم وملبسهم وأسماءهم ، لكن بالرغم من مظاهرهم الإغريقية ظلوا كبقية المصريين مصريين فى أفكارهم . وكان هؤلاء (المتأغرقون) لا يدفعون من ضريبة الرأس سوى نصف ما كان يدفعه بقية المصريين ، وهم الذين كانوا يؤلفون السواد الأعظم من سكان البلاد ، فمن بينهم

كان أغلب أهالى البلاد وملاك الأرض والزراع ، وأصحاب الحرف المختلفة ، وعمال المناجم والمحاجر وغيرهم .

إن أهم مايعنينا فى الحياة الاجتماعية حالة الإغريق والمصريين الذين كانوا أكثر السكان عدداً . عرفنا أن الروح الإغريقى كان قد ضعف بين إغريق مصر فى النصف الأخير من حكم البطالسة ، وأن ذلك الضعف كان أشد وطأة فى الأقاليم منـــه فى المدن الإغريقية. لكن يظهر أن الفتح الرومانى قد أفلح فى وقف هذا التدهور مدة غير قصيرة ، بسبب الامتيازات التى منحها الرومان للإغريق، وعطفهم على الثقافة الإغريقية، وحرصهم على منع التزاوج بين الإغريق والمصريين ، فانتشرت المعاهد الإغريقية فى طول البلاد وعرضها، وسادت الثقافة الإغريقية مدة طويلة بين إغريق مصر بوجه عام . وقد كانت الإسكندرية أهم مراكز تلك الثقافة . حقا إن شهرتها تضاءلت عما كانت عليه فى عهد البطالسة الأوائل ، إلا أنها استمسكت حتى فى العصر البيزنطى ببعض الظواهر التى كانت سببا فى ذيوع صيتها . فقد كانت الإسكندرية موطن العلوم والفنون ، وتمتعت معاهدها بشهرة واسعة فى الإمبراطورية الرومانية ، فهرع إليها طلاب العلم من كل ممـالك الشرق ، ليدرسوا على أساتذتها الطب والرياضيات والفلسفة والآداب .

لا شك أن تحريم التزاوج فى المدن الإغريقية ـ عدا أنطينوبوليس ـ ووجود المعاهد الإغريقية فيها ساعدا على بقاء العنصر الإغريقى نقيا ، وعلى استمرار الحضارة الإغريقية فى تلك المدن . لكن إذا كان أثر البيئة وانقطاع وفود الإغريق قد أضعفا روح الإغريق وثقافتهم فى النصف الثانى من حكم البطالسة ، ولا سيما فى الأقاليم ، فلا بد أن هذا الضعف كان على أشده فى العصر الرومانى ، وخاصة بعد القرن الثانى ، عند ماعم الخراب الاقتصادى البلاد ، وأخذت المسيحية تهاجم وثنية الإغريق وحضارتهم . لكن هذا ليس معناه أن الحضارة الإغريقية قد اندثرت ، فما من شك أنها حفظت شيئا من قوتها فى المدن الإغريقية ، وخاصة فى الإسكندرية ، إلى نهاية العصر البيزنطى . ولا شك أن

روح الإغريق وحضارتهم كانت أحسن حالا فى المدن الإغريقية منها فى الأقاليم ، حيث كان أثر البيئة أقوى . هذا إلى أن التزاوج كان مباحا هناك ، لكن يجب ألا نبالغ فى أثر التزاوج ، فمن المرجح أنه لم يشمل غالبية الإغريق ، لأن الذين كانوا يتزاوجون منهم كانوا يفقدون مزاياهم الخاصة . ولاريب أيضا أن انتعاش الروح القومى بين المصريين منذ القرن الثالث ، وما صحب ذلك من إحياء التقاليد والعادات القديمة ، وكراهية المصريين للإغريق ، لم يكن مشجعا على التزاوج . أضف إلى ذلك أثر الخلافات الطائفية فى علاقات المصريين بالإغريق ، فقدكان أغلب المصريين من أتباع مذهب اليعاقبة ، على حين كان أكثر الإغريق من أتباع مذهب الملكائيين ، وعلى كل حال فإن أغلب إغريق الأقاليم أصبحوا بمضى الزمن إغريقا فى الاسم والملبس واللغة ، أكثر منهم فى أى شيء آخر ، فكان مثلهم مثل المصريين (المتأغرقين) . ولذلك استمرت مظاهر الحضارة الإغريقية فى الأقاليم حتى الفتح العربى . وجملة القول إنه إذا كانت غالبية العنصر الإغريقى فى مصر بقيت نقية خالصة ، فقد تعاونت عدة عوامل على إضعاف روح الإغريق وثقافتهم ، وكان أثر تلك العوامل أقوى فى الأقاليم منه فى المدن الاغريقية .

أما المصريون فإنهم بقوا بوجه عام مستمسكين بعاداتهم ونظمهم وثقافتهم القديمة ، ولعل ذلك راجع إلى ثلاثة عوامل ، أولها : تأثير الكهنة ورجال الدين أيام الوثنية ، فإنهم تعلقوا بثقافتهم القديمة الخاصة ، التى كانوا يتوارثونها ، ويتنافسون فى الإبقاء عليها ، ويعملون على بث تعاليمها فى نفوس مواطنيهم . وثانيها : تأثير المسيحية عند ماانتشرت بين المصريين ، فقد ناصبت الثقافة الإغريقية العداء ، وأنعشت فى المصريين روحهم القومى ، وبثت تعاليمها بينهم باللغة المصرية ، ونقلت منذ القرن الثالث كتبها الدينية إلى اللغة القبطية . وثالثها : أن أغلبية المصريين كانت أمية لاتعرف القراءة ولا الكتابة ، فبقيت بعيدة حتى عن مظاهر الحضارة الإغريقية . لكننا لانشك أن بعض المصريين اصطبغوا بالحضارة الإغريقية ، فقد أخذت التعاليم الإغريقية تنتشر بين المصريين منذ

النصف الثانى من حكم البطالسة ، ولا بد أنه قد ساعد على هذا الانتشار ماصادفته الحضارة الإغريقية من الانتعاش فى بداية حكم الرومان ، واختلاط المصريين بالإغريق فى هذه الفترة ، لكننا لانشك أيضا أن هؤلاء المصريين (المتأغرقين) كانوا أقلية . وأن صبغتهم الإغريقية لم تتعد المظاهر الخارجية ، حتى ليمكننا القول بأن المصريين بقوا فى جوهرهم مصريين خالصين .

استنفد الصراع بين المصريين والبطالسة جهود المصريين وقواهم ، فقضوا القرون الأولى من حكم الرومان ، دون أن يقووا على الثورة سوى مرات . وكان كلما اشتد الضيق بالأهالى ، وجاوز مايلقونه حد الاحتمال ، تركوا عملهم ولجئوا إلى المعابد يسألون الآلهة نصرتهم وتفريج كربهم ، أو فروا هاربين بين الأدغال والمستنقعات . وكادت ضروب الظلم والإرهاق التى عانوها تقضى على روحهم القومى ، لكن انتشار المسيحية بينهم بعث فيهم ذلك الروح ثانية . بدأ هذا التطور منذ القرن الثالث ، وكان طبيعيا أن يتخذ اتجاها عدائيا للرومان والإغريق ، بسبب ما قاساه المصريون من هذين القبيلين ، ولأن المسيحية عند ما انتشرت بين المصريين ، وأيقظت فيهم شعورهم بأنفسهم ، هاجمت وثنية الرومان والإغريق دون هوادة ، فقد وجدت المسيحية فيها عدوا شديد المراس . وقد ألهبت الخلافات الطائفية روح الوطنية وشعور العداء نحو الرومان والإغريق الذين لم يدخر الأباطرة وعمالهم وسعا فى شد أزرهم ، فلا عجب إذا اعتبرنا انتصار المسيحية فى مصر ، وانتشار مذهب اليعاقبة فى كافة أنحاء البلاد ، انتصارا للمصريين على الرومان والإغريق .

وإذا استعرضنا الآن ماكانت عليه حالة البلاد منذ فتح الإسكندر ، حتى فتح العرب ، كان أول مايسترعى أنظارنا أن غزاة مصر من الإغريق والرومان لم يفلحوا فى فرض طابعهم على الحياة المصرية ، وأن الرومان لم يكونوا أسعد حظا من الإغريق حيال القوة الحيوية الكامنة فى نفوس المصريين ، تلك القوة الروحية الخفية التى صمدت للقوة المادية العاتية ، فأخضعت لسحرها جبروت الغزاة الفاتحين ، وجعلت من المغلوب غالبا .

الباب الثانى

مصر الإســـــلامية

من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى

٢٠ — ٩٢٣ هـ = ٦٤٠ — ١٥١٧ م

حسن ابراهيم حسن

ينقسم الكلام على هذا الموضوع ثلاثة أقسام :

(الأول) من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى (٢٠ — ٣٥٨ هـ = ٦٤٠ — ٩٦٩ م) .

(الثـانى) فى عهد الفاطميين (٣٥٨—٥٦٧ هـ = ٩٦٩—١١٧١ م) .

(الثالث) فى عهد الأيوبيين والمماليك (٥٦٧ — ٩٢٣ هـ = ١١٧١— ١٥١٧ م) .

تمهيد : يظن بعض الناس أن مصر فقدت استقلالها نهائياً منذ الفتح الفارسى سنة ٥٢٥ ق . م . لكننا إذا أنعمنا النظر وتتبعنا الحوادث التاريخية ، نستطيع الجزم بأن هذا الزعم ليس قائماً على أساس ، وأنه مناقض تمام المناقضة للحقيقة والتاريخ . نعم ! توالت على مصر منذ القرن السادس قبل الميــــلاد ، أسرات أجنبية من أصل غير مصرى . بيد أن تولى هذه الأسرات الحكم فيها ، لاينافى أنها كانت دولة مستقلة استقلالا تاماً فى عهد البطالسة ، والفاطميين ، والمماليك ، كما أنها كانت دولة مستقلة أيضاً استقلالا تاماً ، وما كان يربطها بالخلافة إلا السيادة الاسمية وحدها ، وذلك زمن الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين ، وفى عهد الأسرة المحمدية العلوية إلى سنة ١٩٢٢ م ، حين اعترف لها بحقها الطبيعى فى الاستقلال والسيادة .

وليس يتأثر استقلال الدولة ، باختلاف جنس الأسرة الحاكمة عليها عن جنس شعبها ؛ إذ الملك المستقل أياً كان جنسه ، رمز للبلاد التى يستقل بحكمها ، وهو الممثل لاستقلالها وعظمتها . يدلنا على ذلك مانراه من تاريخ إنجلترا التى لاينكر أحد أنها دولة مستقلة ذات سيادة ، منذ سنة ١٠٦٦ م ، وهى السنة التى أغار فيها النرمنديون (Normans) بقيادة وليم الفاتح (William The Conqueror) ، وانتصروا على الدانمرقيين (Danes) فى موقعة هيستنجز (Hastings) ، التى تعد من المواقع الحاسمة فى التاريخ ، وذلك على الرغم من أن هذه البلاد ، لم يحكمها ملك من سكانها الإنجليز الأصليين ، منذ أقدم العصور .

ونحن نعلم أن قبائل من الأصل الكلتى (Kelts) أغارت منذ الأزمان الغابرة من مقاطعة برطانية (Brittany) الواقعة فى شمال غرب فرنسا ، على الأراضى المواجهة لبلادهم ، وسموها برطانية ، نسبة إلى بلادهم التى نزحوا منها ؛ ثم أغار على هـذه البلاد كثير من الأمم الأجنبية ، من الرومان والجوت (Jutes) والإنجليز (Angles) والسكسون (Saxons) والدانمرقيين (Danes) ، إلى أن نازلها النرمنديون وانتصروا فى موقعة هيستنجز (Hastings) ، فظلت تحت حكمهم إلى اليوم .

ولم يقل أحد من المؤرخين إن إنجلترا لم تكن دولة مستقلة ذات سيادة منذ سنة ١٠٦٦ م ، لأنه لم يملكها ملك من سكانها الأصليين ، كما أن الملوك الذين حكموا هذه البلاد قبل الفتح النرمندى ، لم يكونوا من جنس الشعب . وقد أجمع المؤرخون أيضاً على أن إنجلترا تتمتع باستقلالها منذ ذلك الحين . وهو قول صحيح يؤيده الواقع ، لأن النرمنديين اندمجوا فى سكان هـذه البلاد على مر الزمن ، وأصهروا إليهم ونسوا جنسهم الأصلى ، وصاروا إنجليزاً قبل كل شىء ، وبقيت إنجلترا دولة مستقلة تحت سلطانهم ؛ ومازالت تتمتع بهذا الاستقلال إلى اليوم .

إذا سلمنا بهذا ، استطعنا أن نحكم بأن مصر كانت دولة مستقلة ، على الرغم

من تولى الأسرات الأجنبية عليها ، من بطالسة ، وطولونيين ، وإخشيديين وفاطميين ، وأيوبيين ، ومماليك ، وغيرهم ؛ وما زالت دولة مستقلة ذات شعب متجانس تجانساً تاماً فى القومية ، والجنس ، واللغة ، والدين ، والعادات . ولسنا نقيم وزناً لهذه الفترات القصيرة التى كانت فيها تابعة لدولة أجنبية عنها ، شأن غيرها من الدول عامة .

١ — مصر من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

(ا) من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية

١ — عمرو وفتح مصر :

لما تم للعرب فتح بلاد الشام وفلسطين ، وجهوا أنظارهم إلى مصر . وقد عرضت فكرة هذا الفتح لعمرو بن العاص حين قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية من أعمال دمشق سنة ١٨ هـ (٩٣٩ م) فقال له : «ائذن لى فى فتح مصر» ، وذكر له أنها أكثر الأرض أموالا ، وأهلها أعجز عن الدفاع عن أنفسهم ، وقال : «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم» . فتردد الخليفة فى بادئ الأمر ، لتفرق جند المسلمين فى بلاد الشام والجزيرة وفارس ، وخشى أن يتوسع فى الفتح ، لأن أقدام المسلمين لم تكن قد ثبتت بعد فى البلاد التى فتحوها . على أن عمراً هوّن على الخليفة فتح مصر ، وعظم أمرها رغبة فى خيراتها ، وقد وقف بنفسه على أحوالها فى الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة ، وعرف خصب أرضها ووفرة خيراتها ، وبين للخليفة أن استيلاء المسلمين عليها يساعد على تثبيت فتوحهم فى الشام وفلسطين ، وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاء مصر فى يد الروم يعرض سيادة العرب فى هذه البلاد للخطر . ومما شجع عمرا على هذا الفتح إثقال المصريين بالضرائب ، واختلافهم مع الروم فى العقائد الدينية ، وحرمانهم من الحقوق المدنية ، وما أضمره القبط للروم من حقد وكراهة .

عرف الخليفة عمر بن الخطاب شجاعة عمرو وحزمه ، فأذن له فى فتح مصر

على رغم مايحيط بهذا الفتح من صعاب . وكان عمرو يثق بنفسه ثقة لاحد لها ، فسار إلى مصر على رأس أربعة آلاف رجل ، وفتح العريش من غير مقاومة لعدم منعة حصونها ، وقلة حامية الروم الذين نهكتهم الحروب مع الفرس ، ثم استولى على الفرما ـ وكانت تعتبر مفتاح مصر ـ فأصبح إتمام الفتح عليه سهلا هيناً . وقد سلك نفس الطريق الذى سلكه الفاتحون قديماً : وهو طريق إبراهيم الخليل ، وطريق يوسف الصديق ، وطريق قمبيز والإسكندر ، وطريق التجار والسائحين والحجاج فى كل العصور ؛ وأخذ يخترق الصحراء حتى وصل إلى بلبيس ، ففتحها بعد شهر لم ينقطع فيه القتال بين العرب والروم ، ثم واصل السير حتى وصل إلى أم دُنين ، وكانت على النيل فى مكان حديقة الأزبكية الآن تقريباً .

ولما تمّ النصر للعرب يمموا شطر حصن بابليون وحاصروه وقت فيضان النيل (سنة ٢٠ هـ) ، ولم ير عمرو بداً من أن يطالب المدد من الخليفة ، فأمده بأربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة هم : الزبير بن العوام ، وعُبادة بن الصامت ، والمِقْداد بن الأسود ، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد . وقد ضيّق العرب الخناق على الروم ، فلم ينقض على هذا الحصار شهر واحد حتى طلب المقوقس زعيم الروم إلى عمرو وقف القتال وإبرام الصلح ، فأرسل إليه عمرو كتاباً يقول فيه : « ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث : إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا وعليكم ماعلينا ، وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون ، أو القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين » .

ولما رأى المقوقس الجد من العرب ، عقد الصلح معهم ، وكتب بذلك إلى هرقل إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ، فلم يوافق على هـذا الصلح ، واستدعاه إلى القسطنطينية ، وعاد القتال بين الفريقين سيرته الأولى ، وهاك نص هذه المعاهدة عن المقريزى : « اصطلح عمرو والمقوقس على أن يفرض لهم (أى للمسلمين) على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران ، على كل نفس شريفهم ممن بلغ الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير

الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شىء ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين ، أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم ، لاتعرّض لهم فى شىء منها .

شدد عمرو الحصار على الحصن ، ثم جاء الخبر بوفاة هرقل ، فدب اليأس فى نفوس الروم ، وعلى حين غفلة فاجأ المسلمون الأعداء ، وتسلق الزبير ابن العوام سور الحصن ، وتعالت الأصوات بالتكبير ، فظن الروم أن المسلمين قد اقتحموا الحصن ، ووقع الرعب فى قلوبهم . على أن فتح حصن بابليون لم يكن نهاية هذه الحروب التى نشبت بين العرب والروم فى مصر ؛ فقد رأى عمرو أن يتجه شطر الإسكندرية ، حاضرة الديار المصرية فى ذلك الحين ، وكانت محصنة تحصيناً قوياً ، كما كانت على اتصال دائم بالإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التى كانت تمدها بما تحتاج إليه من جند وعتاد ، ولكن المساعدة التى قدمها القبط الذين رأوا فى العرب محررين لبلادهم من ظلم الروم ، كان لها أثر عظيم فى تيسير فتح هذه المدينة بعد أربعة عشر شهراً لم ينقطع فيها القتال .

ولكن عمرا رأى ببعد نظره أن يؤمن حدود مصر الغربية بفتح برقة وطرابلس ، ومد نفوذ العرب إلى بلاد النوبة لتأمين حدود مصر من ناحية الجنوب ، وأصبح بحيث يستطيع التفرغ لما تتطلبه البلاد من ضروب الإصلاح .

٢ — منشآت عمرو فى مصر :

كان أول ماقام به عمرو فى سبيل هذا الإصلاح تأسيس مدينة الفسطاط ، واتخاذها حاضرة لمصر . ولا غرو ، فإن مدينة الإسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الإسكندر، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية، فلم يكن بد إذن من اتخاذ الحاضرة الجديدة فى نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب ، ومن ثم وقع اختيار عمرو على موضع الفسطاط، لقربها من النيل والجبل والمزارع . وتمتد هذه المدينة شرقاً حتى سفح جبل المقطم ، وشمالا حتى جهة

فم الخليج، وقناطر السباع، وجبل يشكر، وغرباً حتى النيـل، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي. وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون فى تسمية الفسطاط بهذا الاسم، ولكن أقرب أقوالهم إلى العقل ماذكره بعضهم من أنها مأخوذة من لفظ (Fossatum) اليونانى (ومعناه مدينة حصينة) الذى أخذه العرب عن الروم فى أثناء حروبهم ببلاد الشام[١].

وقد اتخذ عمرو داره فى مدينة الفسطاط، واختط لكل قبيلة من القبائل العربية خِطة تنزل فيها، وكانت شـوارع المدينة أشبه بحارات مصر اليوم، تتكون بيوتها من طبقة واحدة، ثم أخذت تزداد فى الاتساع والعلو حتى بلغت طبقاتها ثمانيا، وكان الأهالى لايسكنون فى أسفل الدار لعدم جفافه، وقلة ضوء الشمس والهواء فيه، وإنما كانوا يتخذونه مخزناً للمؤن.

وإلى الشمال من حصن بابليون أسس عمرو أول مسجد بنى فى مصر الإسلامية، وهو المسجد العتيق، المعروف الآن بجامع عمرو[٢]. «بيد أن المسجد لم يكن مكاناً للعبادة فحسب، بل كان أيضاً مركز الحركة السياسية والاجتماعية، وتلك كانت عادة المسلمين، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل السفراء فى المسجد، ويدبر أمور الدولة، ويخطب فى شئون المسلمين السياسية والدينية فى المسجد أيضاً، فعلى منصة المنبر أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين فى العراق، واستحث قومه على السير إلى تلك البلاد؛ وعلى المنبر وقف عثمان يدافع عن نفسه، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقى من فوق المنبر خطبته الأولى، التى كانت

(١) أما ماقيل من أن يمامة باضت بأعلى فسطاط عمرو، فلم يشأ أن يقوضه حتى يطير فراخها، أو لأن العرب تقول لكل مدينة «فسطاط»، أو لأنهم لما سئلوا حين عادوا من الإسكندرية: أين تنزلون؟ فقالوا: الفسطاط، يعنون فسطاط عمرو الذى خلفه، فبعيد أن يكون سبباً.

(٢) كان طول جامع عمرو أول الأمر خمسين ذراعا، وعرضه ثلاثين. وكان له ستة أبواب، ولم يكن له صحن ولا محراب مجوف، وكان سقفه منخفضا، وقد تولاه ولاة مصر بالزيادة حينا بعدحين، غير أنه لم يبق من البناء القديم اليوم شىء، وإن البناء الذى يشاهد الآن قد بنى بعضه منذ سبعة قرون، وبعض منذ خمسة، وبنى أغلبه منذ سنة ١٢١١ هـ. على أن المسلمين يعنون بهذا المسجد عناية كبيرة تبركا بموضعه القديم الذى بنى فيه.

بيانا لسياسته فى الحكم » ، فكانت المساجد أشبه بناد يجتمع فيه كبار الرجال ، واتخذها علماء التفسير والحديث مقرا لهم ، ثم صارت معاهد للتعليم يتلقى فيها الأطفال اللغة ، وأصول الدين . واتخذها أيضاً القضاة مكاناً للحكم بين الناس .

كذلك أعاد عمرو حفر الخليج الذى كان يصل النيل بالبحر الأحمر . وقد قيل إن أول من حفره هوطوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر ، الذى قدم فى عهده خليل الله إبراهيم . وقيل أيضاً إنه حفر فى عهد نخاو بن بسامتيك . وكان يبدأ شمال مدينة بسط (وكان موقعها بجوار مدينة الزقازيق) ، وأتمه دارا فى عهد الفرس ، حتى أصبح يصب فى البحر الأحمر ، ثم اتصل فيما بعد بخليج تراجان الذى كان يبدأ على مقربة من حصن بابليون ويمر ببلبيس ، ثم يستمر فى سيره إلى أن يتصل بخليج نخاو ، فيتكون منهما خليج واحد هو الخليج الذى أعاد حفره عمرو بن العاص ، وعرف فيما بعد باسم خليج أمير المؤمنين ، نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، ثم عرف باسم خليج القاهرة . وقد قيل إن عمراً جدد هذا الخليج فى ستة أشهر (سنة ٢٣ هـ) ، وحملت فيه الميرة إلى بلاد الحجاز فى عهد عمر ، ثم أهمله ولاة مصر بعد عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) ، فغلب عليه الرمل ، وظل كذلك حتى طمرته الحكومة المصرية نهائيا سنة ١٨٩٧ .

ومن إصلاحات عمرو فى مصر إنشاء مقاييس النيل . فقد رأى أن النيل حياة مصر ، لأن محصول البلاد مرتبط بزيادته ونقصانه ، حتى عنى حكامها منذ أقدم العصور بإقامة المقاييس فى مواضع متعددة على جانبى النهر ، ليقفوا بها على حالته اليومية ، ويستطيعوا ضبط الخراج ، وتوزيعه على البلاد . لهذا أقام عمرو المقاييس فى مواضع متعددة تحقيقاً لهذه الغاية .

٣ — النظام الإدارى :

وأصلح عمرو أيضاً النظام الإدارى فى مصر ، وإن كان دولاب الأعمال الحكومية قد ظل فى جملته بعد الفتح على ما كان عليه فى عهد الحكم الرومانى ، اللهم إلا ما كان فى عهد الفاطميين . فالمدير أو المحافظ ، والمأمور أو نائب

المدير، والخولى أو المفتش الزراعى ، لا يختلفون حتى اليوم فى مصر من جهة اختصاصهم عما كانوا عليه فى عهد الرومان ، إلا فى الأسماء الرومانية التى كانت تطلق على من كانوا يشغلون هذه المناصب قبل الفتح الإسلامى . وقد أوضح جرافتن ملن (Grafton Milne) فى كتابه : History of Egypt) Under Roman Rule) أن لفظ مديرين يطابق لفظ (Epistrategoi) عند الرومان وأن المأمور كان يؤدى أعمال الـ (Toparch) ، والخولى أو المفتش الزراعى هو نفس الـ (Sitologos) عند الرومان .

وكان الوالى أعظم موظفى الدولة فى الحكومات الإسلامية ، يعين من قبل الخليفة ، وينوب عنه فى حكم البلاد ، وهو الرئيس الأعلى للقضاء ، والصلاة ، والخراج ، والجند ، والشرطة ، وما إلى ذلك من الأعمال .

وكانت الصلاة أهم أعمال الوالى لارتباطها بالإمامة الدينية ، وهى منشأ الحكم فى الإسلام ، فكان الوالى يقيم الصلاة فى الجمع والأعياد ، ويؤم الناس فى الصلوات الخمس ، وينيب عنه بعض كبار المسلمين بعد أن تعددت المساجد الجامعة على أثر انتشار الإسلام فى مصر ودخول كثير من المصريين فيه .

وكانت ولاية عمرو على مصر عامة ، فكان يشرف على القضاء والخراج والجند والشرطة . وقد نظم القضاء على وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، وقسم البلاد المصرية كورا ، وأقام على كل منها قاضياً قبطياً يفصل فى النزاع الدينى والمدنى لغير المسلمين على وفق شرائعهم . وإذا حدث نزاع دينى بين عربى وقبطى تقدم المتقاضون إلى مجلس مؤلف من قضاة يمثلون الفريقين المتنازعين .

وسار عمرو مع المصريين فى جباية الخراج بمقتضى شروط الصلح . وكان الخراج يأتى من ناحيتين : الأولى الضرائب الشخصية ، وهى جزية الرءوس التى فرضت على أهل الذمة من القبط واليهود والإغريق ، والثانية ضرائب الأطيان . فكان كل من فرضت عليه الجزية يدفع دينارين فى كل سنة ، وهو مبلغ زهيد لا يزيد على ثمانية قروش فى الشهر ، وذلك فى مقابل تأمين أهل الذمة على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، والدفاع عنهم لصد كل معتد على البلاد . ومع

ذلك فقد أعفى من دفع هذه الضريبة النساء والأطفال والشيوخ . وراعى عمرو فى جباية ضريبة الأطيان حالة النيل من حيث زيادته ونقصانه ، حتى إنه اضطر أحياناً إلى تأجيل دفعه . وقد أجمع المؤرخون على أن خراج مصر بلغ فى السنة الأولى من ولاية عمرو عشرة ملايين دينار ، ووصل فى السنة التالية اثنى عشر مليوناً ، وأن هذا القدر لم يرض الخليفة عمر الذى بلغه أنه وصل فى عهد المقوقس إلى عشرين مليوناً ، وقام الخلاف بين عمرو وعمر بسبب ذلك ، ودارت بينهما مكاتبات طويلة .

كذلك نظم عمرو الجيش ، وأنشأ له ديواناً يشرف على شئون الجند ، الذين كانوا يرابطون فى معسكرات خاصة بهم ، وكان عملهم مقصوراً على الجهاد فى سبيل الله ونصرة الدين .

وكان صاحب الشرطة أشبه بالمحافظ فى عصرنا ، يعتمد عليه الوالى فى حفظ النظام ، واستتباب الأمن ، والقبض على الجناة والعابثين والمفسدين ، وينوب عن الوالى فى الفسطاط إذا غاب . لذلك كانوا يعبرون عن وظيفة صاحب الشرطة بخلافة الفسطاط ، كما كان يصلى بالناس إذا غاب الوالى ، ويتولى أعطيات الجند ، وما إلى ذلك من الأعمال .

٤ — سياسة عمرو فى مصر :

اشتهر عمرو بن العاص بالحزم وحسن السياسة ، فتحبب إلى القبط وأطلق لهم حرية الدين ، وأقام العدل بينهم ، فتمتعوا بالهدوء والطمأنينة ، وتخلصوا من عسف الروم وظلمهم . ويتبين لنا ذلك واضحا جليا من الكتاب المنسوب إليه ، الذى أرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، يصف فيه مصر ، ويشرح له السياسة التى عزم على السير على نهجها فى وادى النيل : « اعلم يأمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر . له أوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه ، تمده

عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصلخم عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق النهر ، كأنهن فى المخايل ورق الأصائل ، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما يبدأ فى جريته ، وطما فى درته . فعند ذلك تخرج بأهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون فيها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم . فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يأمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الفعال لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، ولا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل .

فلما ورد هذا الكتاب على الخليفة عمر قال « لله درك يابن العاص ، لقد وصفت لى خبرا كأنى أشاهده » ! وقد روى هذا الكتاب كثير من المؤرخين الغربيين وترجمه الكاتب الفرنسى أوكتاف أوزان فى جريدة الفيجارو الفرنسية ، وقال إنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم ، واقترح تدريسه فى كافة المدارس ، لكى يتعلم منه الطلاب دقة الوصف ، ومتانة التعبير ، وصحة الحكم .

على أنه برغم ما قام به عمرو فى مصر من ضروب الإصلاح ، فإنه لم يتمتع بولايته طويلا ، فلم يكد عثمان بن عفان يتولى الخلافة حتى عزله ، وولى عبدالله ابن سعد بن أبى سرح مكانه . ثم قامت هذه الفتنة التى انتهت بقتل عثمان ، وتولية على بن أبى طالب الخلافة ، فانضم عمرو إلى معاوية فى عدائه لعلى ، والمطالبة بدم عثمان ، وحاربا عليا فى موقعة صفّين ، التى تم فيها النصر لمعاوية . وكان من أثرها أن تحولت الخلافة إلى البيت الأموى ، وكوفئ عمرو بولاية مصر ، التى جعلها له معاوية طعمة مدة سبع سنين ، على أن يدفع أرزاق الجند والموظفين ،

وما تتطلبه البلاد من ضروب الإصلاح، ويبقى لنفسه مابقى من المال، وأصبح عمرو يتمتع فى هذه البلاد باستقلال يكاد يكون تاما .

٥ — مصر منذ وفاة عمرو بن العاص الى قيام الدولة الطولونية :

(١) مصر فى العصر الأموى :

بيد أن ولاية عمرو الثانية على مصر، لم تدم أكثر من ثلاث سنين، فقد توفى سنة ٤٣ هـ، وتعاقب على هذه البلاد كثير من الولاة إلى أن دخلت تحت حكم الطولونيين سنة ٢٥٤ هـ. وبرغم طول هذا العصر الذى يربو على قرنين، لم تتقدم مصر فيه كثيرا، لقصر عهد الولاة، وتزعزع مركزهم، واشتطاطهم فى جمع الضرائب. ولهذا ظل تاريخ مصر طوال هذا العصر يحوطه شىء كثير من الغموض والإبهام، وكثر نشوب الفتن والثورات التى كان يذكى نارها القبط، وهم السواد الأعظم من الأهلين حينا، والعرب حينا آخر، فضلا عما كان لتدخل مصر فى الخلافات الخارجية التى قامت بين الخلفاء والخارجين عليهم من أثر .

بيد أن هذا كله لا يحول دون تصوير هذا العصر تصويرا يقرّب إلى الذهن حقيقة الحال التى كانت عليها هذه البلاد .

لم تكن مظاهر هذا العصر مقصورة على قيام الفتن والثورات الداخلية والخارجية، وظهور روح القومية بين القبط، وخاصة بعد كتابة الدواوين باللغة العربية فى عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ٨٧ هـ، بعد أن كانت تكتب بالقبطية، وما انطوى عليه هذا العمل من إقصاء هؤلاء القبط عن كثير من أعمال الدولة، بعد أن كانوا يقومون بجباية الخراج ويتولون الوظائف الكتابية، وما كان أيضا من ظهور روح العصبية بين القبائل العربية؛ وعلى الرغم من هذا كله، كان لهذا العصر مزاياه ومظاهر حضارته .

مسلمة بن مخلد : ولا غرو، فقد ولى فى هذا العصر عدد غير قليل من الولاة

اشتهروا بحسن السياسة ، فنشروا العدل بين الناس ، واهتموا بترقية الزراعة والصناعة وفن العمارة وغيرها ؛ ومن هؤلاء الولاة مسلمة بن مخلد ، الذى كان أحد القواد الأربعة ، الذين أمد بهم الخليفة عمر بن الخطاب عمرو بن العاص وهو على حصار حصن بابليون . فقد ولى مصر زُهاء خمس عشرة سنة ، واشتهر بعطفه على القبط ، وأذن لهم ببناء كنيسة فى مدينة الفسطاط ، ولم يحفل بإنكار الجند عليه إقرار القبط على بناء الكنائس ، مع منافاة ذلك لشروط الصلح ، وبنى مسلمة فى جزيرة الروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة (صناعة السفن) ، كما اهتم ببناء المساجد وإصلاحها ، فهدم جامع عمرو بن العاص ، وبناه بناء جديداً سنة ٥٣ ﻫ ، وأمر فى السنة نفسها ببناء منارات المساجد كلها . وكان يقيم الصلاة بنفسه طوال مدة ولايته ، ونظم الأذان ، فأمر مؤذنى جامع عمرو أن يؤذنوا بالفجر إذا مضى نصف الليل ، فإذا فرغوا من أذانهم أذن كل مؤذنى الفسطاط فى وقت واحد ، ومنع دق الناقوس عند أذان الفجر .

عبد العزيز بن مروان : وكان عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ ﻫ) من أحسن ولاة مصر فى هذا العصر . فقد صحب أباه مروان بن الحكم حين جاء لاسترداد مصر من عامل عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد دعا لنفسه بالخلافة سنة ٦٤ ﻫ ، وصادفت دعوته نجاحاً عظيماً فى بلاد العرب والعراق ، وفى مصر حيث انضم إليه أنصار العلويين ، لاعتقادهم أنه يدعو لأهل البيت . وقد دخل مروان مدينة الفسطاط سنة ٦٥ ﻫ . وبنى الدار البيضاء ، واتخذها مقرا للإمارة .

ولما عزم مروان على العودة إلى بلاد الشام ، ولى ابنه عبد العزيز على مصر ، صَلاتها وخراجها ، وجعلها طعمة له ، ولكن عبد العزيز خشى أنصار ابن الزبير ، وخاف عاقبة عدائهم إذا بقى فى مصر ، نخفف أبوه من خوفه ، وأوصاه بوصية رسم له فيها الخطة التى يتألف بها قلوب المصريين قاطبة ، وأوضح له أن هذا الأمر لايمكن تحقيقه إلا إذا أسرهم بجوده وإحسانه ، وجذبهم إليه بالمودة ولين الجانب والبشاشة ؛ وأوصاه بأن يظهر لكل زعيم أنه خاصته دون

غيره من الزعماء ، وبذلك يجتهد كلهم فى خدمته ويجمع على طاعته . وفى ذلك يقول الكندى : « قال عبد العزيز : يأمير المؤمنين ! كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له مروان : يابنى ، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عينا لك على غيره ، وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيرا ومشيرا ، وما عليك يابنى أن تكون بأقصى الأرض ؛ أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك ، وخمولك فى منزلك ؟ » .

وقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه ، فنجحت سياسته فى مصر النجاح كله ، واستطاع أن يدخل كثيراً من ضروب الاصلاح ؛ فبنى مقياساً للنيل ، وزاد فى جامع عمرو من ناحية الغرب ، وأدخل فى شماله رحبة فسيحة ، وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى ، بطرف مدينة الفسطاط ، و نقش عليها اسمه سنة ٦٩ ﻫ ، واتخذ مدينة حلوان حاضرة لولايته سنة ٧٣ ﻫ بعد أن أصيب بالجذام[١] ، ونقل إليها بيت المال ، وأنشأ بها بركة كبيرة ، ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم ، على قناطر معلقة (Aqueducts)[٢] تصل عيون الماء بالبركة . وغرس عبد العزيز فى حلوان الأشجار والنخيل ، وبنى بها المساجد وغيرها من الأبنية الفخمة ، حتى قيل إنه بذل فى سبيل ذلك مليون دينار.

وبلغ من عناية عبد العزيز بن مروان بالعمارة والتماثيل ، أنه بنى فى مدينة الفسطاط حماماً لابنه زَبان ، وأقام على بابه تمثالا عجيباً من الزجاج ، على صورة امرأة ، وأطلق عليه اسم أبى مرّة ، ثم أطلق هذا الاسم على القيسارية التى كان يمتلكها عبد العزيز[٣] .

وكان عهد عبد العزيز بن مروان عهد يسر ورخاء لمصر ، التى ظهرت بمظهر

---

(١) وهذا يخالف ماذكره بعض المؤرخين من أنه انتقل إلى حلوان لتفشى الوباء فى الفسطاط .

(٢) أخذ العرب عن الرومان هذا النوع من القناطر ، وكانت منتشرة فى بلاد الدولة الرومانية فى القرن الثانى الميلادى .

(٣) كانت هذه القيسارية تعرف فى زمن ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ ﻫ باسم حمام بثينة .

النشاط الأدبي والمـادى . وقد تغنى المؤرخون والشعراء بأعمال البر والإحسان والكرم ، التي قام بها هذا الوالى . فقال بعض المؤرخين : « إنه كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ، ويطاف بها على قبائل مصر » . وقال أحد الشعراء :

كل يوم كأنه يوم أضحى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مُـترعات كل يوم تمدها ألف قدر

على أن مصر لم تنعم بهذا الرخاء طويلا بعد موت عبد العزيز ؛ فقد زج الجند العربي فيها بنفسه فى النزاع الذى انتهى بسقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية . فإنه لما أتى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية إلى مصر فاراً من وجه العباسيين ، تعقبه صالح بن على العباسى ، ولحق به فى قرية بوصير من أعمال الفيوم ، وقتله فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٢ ه ، ثم تعقب ذوى قرباه وأنصاره ، ودخل الفسطاط ، ووطد دعائم الدولة العباسية فى هذه البلاد .

(ب) مصر فى العصر العباسى (١٣٢ — ٢٥٤ ه) :

وكان من أثر تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين أن قامت فى مصر حاضرة جديدة حلت محل الفسطاط ، هى مدينة العسكر . فقد رأى صالح ابن على العباسى (فى المحرم سنة ١٣٢ - شعبان سنة ١٣٣ ه ، ١٣٦ - ١٣٧ ه) أن مدينة الفسطاط تضيق بعسكره ، فاختار الموضع الذى كان يعرف بالحمراء القصوى[١] . ولما خلف صالح على ولاية مصر أبو عَوْن أمر أصحابه بالبناء ، ثم بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى مدينة العسكر جامعاً ، عرف بجامع العسكر سنة ١٦٩ ه ، وأخذ الناس فى عمارة الدور حتى اتصلت هذه الحاضرة الجديدة بالفسطاط .

ومن ولاة العصر العباسى فى مصر موسى بن عيسى ، الذى ولى هذه البلاد ثلاث مرات (سنة ١٧١ و ١٧٥ و ١٧٩ه) . وقد اشتهر بالعدل وحسن الإدارة ، واكتسب محبة الأهلين ، وتحبب إلى النصارى ، فأذن لهم ببناء الكنائس التى

(١) تخربت هذه الحمراء قبل قدوم مروان بن محمد إلى مصر واستحالت صحراء .

هدمها سلفه ، وأشار عليه بذلك قاضياه الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، بحجة أن إعادة الكنائس المستحدثة من عمارة البلاد ، كما زاد فى جامع عمرو ابن العاص .

بيد أن مصر لم تكن فى هذا العصر آمنة كل الأمن ، فقد زجت بنفسها فى النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين ، حين دعا محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على ، المعروف بالنفس الزكية ، إلى نفسه سراً ، وتلقب بأمير المؤمنين ؛ ثم ظهر سنة ١٤٥ هـ . وصادفت دعوته نجاحاً عظيما فى الحجاز ، وقام أخوه إبراهيم بنشر الدعوة له فى بلاد العراق . وعلى رغم قتل محمد وأخيه على يد عيسى بن موسى العباسى ، ناصر الجند العربى فى مصر ابنه علياً حين قام بنشر الدعوة لأبيه .

كذلك كان للجند العربى فى مصر نصيب كبير فى الفتنة التى قامت بين الأمين وأخيه المأمون . غضب هؤلاء الجند لخلع الأمين أخاه ، وترك الدعاء له على المنابر ، وتولية عهده ابنه موسى بدلا منه ، ونكثه العهد الذى أودعه أبوه الرشيد الكعبة المشرفة ، فخلعوا الأمين سنة ١٩٦ هـ ، وأخرجوا واليه من مصر .

على أننا إذا أنعمنا النظر فى هذه الفتن السياسية ، نرى أنها قد ألبست لباس الدين ، ليكون تأثيره فى النفوس أقوى وأشد . هذا إلى الاختلافات المذهبية التى أدت إلى انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين ؛ نعم ، كان لكل من هذين المذهبين فى مصر أشياع وأنصار ، كما كان لمذهب الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبى طالب ، أنصار فى مصر . أضف إلى ذلك ظهور المذاهب الأربعة ، وما كان لها من أثر فى هذه البلاد . بيد أن مذهب مالك قد أصبحت له السيادة فى القرن الثانى للهجرة ، وظل على ذلك نحواً من قرن ، ثم تحولت هذه السيادة إلى المذهب الشافعى . على أن تأثير هذه المذاهب لم يظهر فى ثوب عدائى مصحوب بقيام الفتن والثورات .

ظلت الحال كذلك فى مصر حتى جاء عهد المأمون ؛ فقد ثار المصريون سنة ٢١٠ هـ ، فبعث عبد الله بن طاهر بن الحسين لإخماد الثورة ، فاستولى على

الفسطاط ، وأقر الأمن فى نصابه ، ثم تفرغ لإصلاح البلاد ، وزاد فى جامع عمرو . ولكن ولايته لم يطل أمدها ، فعاد إلى بلاد العراق ، وعادت الثورات فى مصر سيرتها الأولى ، وانتقض القبط ، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين ، فندب المأمون قائده الأفشين ، ثم جاء هو نفسه إلى هذه البلاد ، وأعاد الأمن إلى نصابه .

ويقول المقريزى : إن سيدة قبطية أضافت الخليفة المأمون . وأخاه المعتصم ، وابنه المتوكل ، وقاضيه يحيى بن أكثم فى دارها ، وأهدت إليهم عشر صينيات ، على كل منها صُرة فيها ألف دينار ، وكانت عشرة آلاف الدينار من ضرب سنة واحدة . وهذا يدل على وفرة الثروة التى كانت لهذه السيدة وغيرها من بنى جلدتها . وقد أضاف هذا المؤرخ أن الخليفة المأمون أقطع هذه السيدة ضِياعاً ، وأعفاها من دفع الخراج عن بعض ما تملكه من الأرض .

ولما ولى المعتصم الخلافة تحول النفوذ من العنصر العربى إلى الأتراك . وقد بلغ عدد جند العرب فى مصر فى عهد معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفاً ، ثم أخذ هذا العدد يتزايد من جراء قدوم نساء هؤلاء الجند وأولادهم ، واتخاذهم مصر وطناً ثانياً لهم . أضف إلى ذلك اندماج هؤلاء العرب فى أهالى البلاد الأصليين بالمصاهرة ، على أنه برغم هذه الزيادة المطردة فى العرب النازحين إلى مصر ، طلب عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج من قبل الخليفة هشام بن عبدالملك الأموى (١٠٥ — ١٢٥ هـ) أن يؤذن له فى إسكان العرب من قبيلة قيس فى أرض الحوف الشرقى ، جهة بلبيس ، حيث كان يقيم نفر من جديلة ؛ وسرعان ما بلغ عدد هؤلاء النزلاء خمسة آلاف ، اشتغلوا باستثمار الأرض ، وتاجروا فى الإبل والخيل ، وحملوا عليها غلات أرضهم إلى القلزم (مدينة السويس الآن) حيث كانت تنقل إلى بلاد العرب . ثم أخذت القبائل العربية تفد إلى مصر شيئاً فشيئاً ، فجاءت قبيلة الكنز من قيس فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وأقاموا فى الصعيد ، واندمجوا فى الأهلين ، وأصهروا إليهم. على أن اندماج العرب فى المصريين اندماجاً فعليا ، قد زاد زيادة واضحة ، بعد

أن أسقط المعتصم أسماء العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب فى الريف، واحترفوا بالزراعة وغيرها طلباً للرزق. وأخذ العنصر العربى يضعف شيئاً فشيئاً، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم، ولم يحكم مصر وال من العرب بعد ذلك إلا عنبسة (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ).

بيد أن مصر قد دخلت قبل تولية عنبسة بعشرين سنة فى عصر جديد. فقد كان الأتراك يُقطَعون الولايات الإسلامية، على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى ذاع فى أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم، فولى الرشيد عبد الملك بن صالح مصر (١٧٨ — ١٧٩هـ) صلاتها وخراجها، وولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين هذه البلاد (٢١١ — ٢١٣هـ) على هذا النحو الإقطاعى، وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون فى تلك السياسة، فولى أشناس التركى مصر (٢١٩ — ٢٢٩ هـ)، وقلد الواثق إيتاخ (٢٣٠ — ٢٣٥ هـ). وكان الولاة يستخلفون نواباً عنهم، يحكمون البلاد باسمهم، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر، وينقشون اسمهم على السكة، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة بسامرا وما فيها من نعيم وترف، ويأتوا إلى مصر للإقامة فيها. وفى سنة ٢٥٤ هـ ولى مصر باكباك، أحد هؤلاء الأتراك، فأناب عنه أحمد ابن طولون. ولا شك أن هذا التطور فى تعيين الولاة من الترك دون غيرهم من العرب، كان نتيجة هذه السياسة التى جرى عليها المعتصم، من إسقاط العرب من ديوان العطاء، كما أسلفنا، واستبداله بهم الموالى من أتراك بلاد ماوراء النهر، (نهر سيحون)، الذين قبضوا على زمام الأحكام، ورشحوا للمناصب على اختلافها. ووصلوا إلى أعلى مراتبها، من الاندماج فى سلك البلاط، إلى تقلد أكبر الولايات؛ وتغلغل نفوذهم فى كل شىء، حتى فى قصور الخلفاء، الذين أصبحوا فى قبضة يدهم وتحت رحمتهم.

(ب) الدولة الطولونية فى مصر

١ — أحمد بن طولون :

كان أحمد بن طولون أحد أولئك الأتراك ، وقد اشتهر منذ نعومة أظفاره بعلو الهمة ، وحسن الأدب ، وأحب الغزو ، وصحب الزهاد والعلماء ، وأهل الورع ، فتأدب بآدابهم . وفى سنة ٢٥٤ ﻫ (٨٦٨ م) تقلد مصر نيابة عن واليها باكباك ، ولم يلبث أن تمتع بالسلطة التامة ، ولم يعد يربطه بالخلافة إلا هذه المظاهر الثلاثة ، وهى : ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ، ونقشه على السكة ، وإرسال جزء من الخراج لدار الخلافة . وعلى الرغم من أن الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م) التى أسسها أحمد بن طولون لم تدم إلا ثمانياً وثلاثين سنة ، أخذت مصر فى الشطر الأول من هذا العصر بقسط وافر من التقدم والإصلاح .

ولم يكد أحمد بن طولون يقضى على الصعاب التى اعترضته فى سبيل تثبيت ولايته فى مصر ، حتى قامت فى وجهه صعوبة أخرى ، كادت تقضى على آماله ، لولا ما أوتيه من حسن السياسة ، وعلو الهمة ، ورباطة الجأش . فقد ناصبه العداء أبو أحمد الموفق طلحة ، أخو الخليفة العباسى المعتمد ، الذى ضيق على أخيه الخليفة ، وشل يده عن مباشرة أمور الدولة ، حتى أصبح مسلوب السلطة معدوم النفوذ ، ففكر هذا فى الاحتماء بابن طولون ، فرحب ابن طولون بانحيازه إلى مصر ، ونقل كرسى الخلافة إليها ، لأن وجود الخليفة تحت حمايته يزيد فى نفوذه ويقلل من نفوذ خصمه الموفق . ويقول ستانلى لينبول : « ولاشك أن ابن طولون رحب بفكرة إيواء الخليفة ، لأن هذا يعود عليه بالنفع :

(أولا) لأنه يكفيه مئونة الجزية السنوية التى كان يدفعها لدار الخلافة .

(وثانيا) لأنه يقلل من نفوذ أبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى .

(وثالثا) لأن وجود الخليفة تحت حمايته فى مصر يزيد فى نفوذ كل وال طموح ؛ وربما غير هذا مستقبل الخلافة ومستقبل مصر إلى حد كبير » .

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال أخيه الموفق بحرب صاحب الزنج الذى شق عصا الطاعة فى الولايات الشرقية ، وخرج من سامرا فى جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ ، متظاهرا بأنه يريد الصيد ، غير أن الموفق أرسل إلى ابن كُنداج ، عامل الموصل والجزيرة ، رسولا يأمره برد الخليفة ، والقبض على من معه من القواد ، فساقه إلى سامرا ، وكوفئ ابن كنداج بولاية مصر والشام ، ولكنه لم يستطع دخول مصر والاستيلاء عليها لمناعتها ، وقوة حاميتها ، ورهبة جيشها الذى أعده ابن طولون لصد كل من تحدثه نفسه يوما بمهاجمتها .

ثُمّ عرضت لابن طولون علته التى أودت بحياته سنة ٢٧٠ هـ ، ودفن بسفح المقطم ، بعد أن حكم نحو ست عشرة سنة ، كانت حافلة بالنصر والظفر .

وكان ابن طولون بعيد النظر ، عالى الهمة ، قوى البأس ، شديد المراس . اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ، ومن بلاد النوبة إلى آسيا الصغرى ، وخشى بأسه إمبراطور الروم ، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم ، وأرسل إليه مَن تحت يده من المسلمين . وكان ابن طولون سياسيا محنكا ، وقائدا ماهرا ، خبيرا بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش ، كما كان إداريا حازما ، وقف على موارد الثروة على اختلافها ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته ، من غير أن يرهق الأهلين بالمكوس والضرائب ، وعمل على ترفيههم ، ونشر العدل بينهم ، فاستتب الأمن ، واستقرت الأمور ، وسادت الطمأنينة بين الناس ، وشمل الرخاء البلاد فى عهده ، حتى بيع عشرة الأرادب من القمح بدينار واحد . هذا إلى تحصينه الثغور ، واتخاذه جيشا كامل العدد والعُدة ، وضرب بسهم صائب فى الإصلاح ، فاهتم بالزراعة ، وعنى بإقامة الجسور وحفر الترع .

وكان مضرب الأمثال فى الكرم والجود ، وفى الشجاعة والبسالة ، وفى صدق الفراسة ، وفى العدل والتواضع . وكان يقرب إليه العلماء ، ويجزل لهم العطاء ، كما كان كثير التصدق على الفقراء . فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار وكان إلى ذلك يبذل فى أعمال الخير ألف دينار فى كل يوم . وقال المقريزى :

كانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع ، على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة ، فى اثنين منها فالوذج ، والاثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل فى داره وينادَى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ؛ وتفتح الأبواب ، ويدخل الناس وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته ، ويعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين ، ولذلك كان من أكثر الولاة احتراما لحفاظه ؛ ذلك إلى كثير من الأخلاق الحميدة ، والصفات الكريمة ، التى يحتاج استقصاؤها إلى مجلدات .

٢ — **خمارويه** :

بعد وفاة أحمد بن طولون ، اجتمع الجند ـ على ماقضت به العادة فى ذلك الوقت ـ وولوا مكانه ابنه خُمارويه ، ولم يسع الخليفة العباسى إلا الموافقة على تعين الوالى الجديد . وما انفكت مصر فى عهد خُمارويه مثار حسد الموفق ، كما كانت فى عهد أبيه ، فواصل لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطى كاتب أبيه إلى الشام بجيش كثيف ، وعززه من البحر بأسطول قوى . وخرج الموفق من بغداد ، وانضم إليه ابن كنداج والى الموصل ، ومحمد بن أبى الساج والى أرمينية والجبال ، واستولوا على دمشق ، فلم ير خُمارويه بدا من الخروج بنفسه ، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج فى أعماله وتم الصلح بين والى مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة ؛ وحينئذ أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر ، والدعاء له مع الخليفة .

وكان من أثر هـــذا الانتصار أن استولى خمارويه على الرَّقّة ، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ، ودعى له على منابرها ، كما أخضع ابن أبى الساج

(٢٧٦ هـ = ٨٨٨ م) وطارد جيوشه إلى مدينة بَلَدَ على نهر دجلة ، حيث بنى على شاطئه سريراً فخماً من الذهب ليجلس عليه ، إشادة بما حازه من نصر مؤزر ، كما كان من أثر هذا الانتصار أن اعترف بسلطانه والى طرسوس (٢٧٦ هـ) ، بعد أن كان قد نبذ طاعة الطولونيين سنة (٢٧٠ هـ) . ولم تقتصر أعمال خمارويه الحربية على ماتقدم ، بل اتسع نفوذ مصر فى عهده إلى ما وراء ولاية طرسوس ، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٨-٢٧٩هـ) .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (٢٧٩ هـ) على توطيد سلطان خمارويه . وقد استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل إليه اثنتى عشرة خلعة ، وسيفاً وتاجاً ووشاحاً . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسى ، ولكن الخليفة اختارها لنفسه .

واستطاع خمارويه بما هيأه له بيت ماله ، أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لايخشى فقراً ولا يهاب إعوازاً . وإن نظرة واحدة إلى جهاز ابنته قطر الندى لتملأ نفس القارئ دهشة وعجباً ، لغلو خمارويه غلوا يتجلى من قول ابن دقماق فى كتابه (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) إنه « حمل معها مالم يُر مثله ، ولا سمع به إلا فى وقته » ، وقول المقريزى : « إنه لم يبق خطيرة[1] ولا طُرفة[2] من كل لون وجنس إلا حمله معها ، فمن هذا الجهاز دِكة[3] من أربع قطع من ذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق ، فيه حبة من الجوهر لايعرف لها قيمة . هذا إلى ما كان هنالك من مائة هاوَن من الذهب ، يُدق فيها العود والطيب ، وألف تكة ، ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . ولنترك قيمة بقية الجهاز إلى اتساع مدارك القارئ وقوة تصوره

---

(١) الخطير : النبيل . (٢) الطرفة : الغريب المستحسن .

(٣) بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه .

وخياله . ولا غرو ، فقد نسج خمارويه على منوال أبيه فى حبه للجود والكرم ، وشغفه بمد يد المساعدة للفقراء والمعوزين . فكان ينفق على مطابخه ثلاثة وعشرين ألف دينار فى كل شهر ، حتى كان الناس يسمون هذه المطابخ « مطبخ العامة » .

أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يُبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالنزل أومكان الاستراحة ، تنزل فيه فى طريقها إلى بغداد . وأعدت هذه القصور بكل ماتحتاج إليه ، فكانت فى سفرها ممتعة بكل وسائل الراحة ، وضروب الرفاهية ، كأنها لم تفارق قصر أبيها . ويقدر المؤرخون صداق قطر الندى بمليون درهم[1]. وليس هذا بالشيء الكثير بجانب ماصرف على جهازها ، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهرى الذى عهد إليه فى إعداد الجهاز ، نال جائزته ، وهى أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ماتحتاج إليه العروس .

كل هذا يدلنا على مبلغ ماوصلت إليه مصر فى عهد الطولونيين من تقدم الصناعة ورواج التجارة ، وعمارة الأسواق ، لدرجة لم تبلغها فى القرن الخامس الهجرى ، وهو العصر الذى عاش فيه الفقيه القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى . فقد قال فى كتابه (خطط مصر) : ولا يُعرف اليوم فى أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير ، إذا طلبت توجد فى الحال .

٣ — حضارة مصر فى عهد الطولونيين :

مما تقدم نرى أن مصر قد أصبحت تهابها الدولة البيزنطية ، وتحرص الدولة العباسية على المحافظة على ودها ، بخطبة قطر الندى ابنة خمارويه للخليفة العباسى المعتضد ، مع أن مصر لم تَعْد أن تكون ولاية من الولايات التابعة للدولة العباسية فى ذلك الحين . ولا شك أن السر فى ذلك ، هو قوة مصر وثروتها ، واتساع رقعة البلاد التى تحت سلطانها ، حتى أصبحت بحيث يرغب فى مصاهرتها الخليفة

(١) الدرهم اسم وحدة من العملة الاسلامية ، وكان الدينار يساوى أول الأمر عشرة دراهم ، غير أن ذلك يختلف بين عصر وعصر .

نفسه . هــــذا إلى مابلغته مصر فى ذلك العصر من الرقى فى الصناعة والزراعة والتجارة ، وفى الثقافة العامة .

مدينة القطائع :

ويدلنا على ماوصلت إليه هذه البلاد فى عهد الطولونيين من الحضارة والمدنية واستبحار العمران ، مايحدثنا به المؤرخون من وصف خلاب لمدينة القطائع حاضرة الدولة الطولونية . فقد ذكروا أن مدينة « العسكر » التى أسسها صالح ابن على العباسى سنة ١٣٢ هـ ، ضاقت بسكانها من أتباع ابن طولون ، فاختط مدينة القطائع ، وبنى فيها قصراً فخماً ، اتخذ أمامه ميداناً فسيحاً يعرض فيه جيشه ، ثم اختط كبار رجال دولته وقواده وغلمانه وأتباعه حول هذا المكان ، واتخذ كل منهم قطيعة خاصة به ، فسميت المدينة كلها بالقطائع . وكانت تمتد غرب القلعة ، وحدُّها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبة الآن ، ومن الغرب نواحى المشهد الزينبى ، ومن الجنوب مدينة العسكر . وقد عمرت مدينة القطائع وامتدت مبانيها ، حتى اتصلت بمدينة الفسطاط ، التى أسسها عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ .

وبنى ابن طولون لنفسه فى هذه المدينة قصراً فخماً ، تأنق فى بنائه وتجميله ، وجعل له ميداناً فسيحاً يضرب فيه بالصوالجة[1] ، وعمل له أبوابا كثيرة ، كما أسس جامعه المشهور (٢٦٣ — ٢٦٥ هـ) ، الذى لايزال باقياً إلى اليوم أعجوبة من أعاجيب البناء العربى . وقد بناه ابن طولون لإقامة الصلاة فيه ، لضيق جامع العسكر بالمصلين ، واتخاذه معقلا له إذا تهدده خطر خارجى أو داخلى ، وليكون أشبه بمدرسة تدرس فيها العلوم الدينية ، ومحلا تعان فيه أمور الدولة ، وتعقد فيه المحاكم ، وما إلى ذلك . وجعل ابن طولون فى جامعه ميضأة ، وخزانة بها الأدوية والأشربة التى قد يحتاج إليها المصلون ، وعين له طبيباً خاصا يقوم

(١) المراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز باسم « بولو » ، وهى شبيهة بلعبة كرة القدم .

بمداواة ماقد يطرأ على المصلين يوم الجمعة ، وهو بمثابة طبيب الإسعاف الآن .

وما زال ابن طولون يعنى بالصحة العامة ، فقد أنشأ المارَستان للمرضى فى أرض العسكر سنة ٢٥٩ ﻫ ، وجعل له حمامين : خص أحدهما بالرجال ، والآخر بالنساء ، وأباحهما مجاناً للناس على اختلافهم ، من غير تمييز فى الأديان والمذاهب . وأدخل ابن طولون فى هذا المارستان ضروباً من النظام ، جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . فكان المريض إذا دخل تنزع ثيابه ، ويودع مامعه من المال عند أمين المارستان ، ثم تقدم له ثياب أخرى ، ويُنزل به فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة ، كما كان يُعطى الأدوية والأغذية مجاناً حتى يتم شفاؤه ، فاذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلهما ، أذن له بمغادرة المارستان ، بعد أن ترد إليه ثيابه وماله . وبلغ من عناية ابن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى ، أنه كان يتفقده بنفسه فى يوم الجمعة ، فيطوف على خزائن الأدوية ، ويتفقد أعمال الأطباء . ويشرف على المرضى ، ويبالغ فى مواساتهم وإدخال السرور عليهم .

واقتدى خمارويه بأبيه أحمد بن طولون فى بذل الأموال الضخمة على مبانيه ومتنزهاته وغير ذلك ، فحول الميدان الفسيح الذى كان أمام القصر ، بستاناً غرس فيه الرياحين على اختلافها ، وتأنق فى هذا البستان ، فكسا النخل نحاساً مذهبا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وجذوع النخل أنابيب الرصاص ، وأجرى فيها الماء ، فكان يخرج من تضاعيف النخل عيون الماء ، منحدرة إلى نافورات ، يفيض منها الماء إلى مجار تسقى البستان على اتساعه . أما الريحان فكان على صور نقوش وكتابات ، يتعهدها البستانى بالمقراض حتى تظل هذه النقوش والكتابات على حالتها الأولى ، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر ، واستورد من جنوَى عيدان النيلوفر العجيب الشكل ، كما أهدى إليه من خراسان وغيرها عيدان الثمار والزهور ، وطعم شجر المشمش باللوز .

وفى قصر ابن طولون بنى خمارويه بيتاً أطلق عليه « الدكة » ، جعله على مثال قبة الهواء التى أنشأها حاتم بن هرثمة ، عامل الأمين العباسى على مصر ، على جبل

المقطم ، حيث قلعة الجبل الآن . وكان يختلف إلى هذه الدكة خمارويه ومن أتى بعده من الأمراء ، طلباً للراحة وتبديل الهواء .

وما زال العمران يمتد ويترامى فى مدينة القطائع ، حتى وصلت مبانيها إلى مائة ألف منزل ، فقد نقل المقريزى عن أبى الخطاب بن دحية فى كتابه « النبراس » أنه كان بمدينة القطائع مائة ألف منزل ، امتازت بالتأنق فى البناء وإحكامه ، وكانت محاطة بالجنان والبساتين .

وكانت مدينة القطائع فى عهد الطولونيين ، حافلة بالعلماء ، والمحدثين ، والمتصوفة ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤرخين ، نذكر منهم على سبيل المثال القاضى بكار بن قتيبة ، الذى كان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الإسلامى ، وأبا الفيض ذا النون المصرى ، الذى كان لمدرسته أثر كبير فى الدولة الطولونية .

ومن المحدثين الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى . ويذكر المؤرخون أن ابن طولون أعطاه فى أول درس ألقاه فى جامعه كيساً به ألف دينار . وكان لهذا العطاء أثره ، فقد ألف الربيع كتاباً فى الحديث المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتاً فى الجنة » . وممن نبغ فى هذا العصر ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ ﻫ . وهو أول مؤرخى مصر الإسلامية . وكتابه المشهور « فتوح مصر والمغرب والأندلس » من أهم المراجع التى يعتمد عليها . وقد بلغ الأدب بمصر فى عهد هذه الدولة درجة عظيمة من التقدم . ولا أدل على ذلك مما رواه المقريزى عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى ، الذى قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » إنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة ، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون » . فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، فكم يكون عددهم ؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال ؟

بين الطولونيين والإخشيديين :

انتهز الخليفة العباسى المكتفى بالله حالة الضعف التى وصلت إليها مصر ، بعد وفاة خمارويه ، فرصة سانحة لاستردادها من أيدى الطولونيين ، والتقى الأسطولان

العباسى والمصرى عند تنيس ، فحلت الهزيمة بالمصريين، ووقعت تنيس ودمياط فى يد القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب ، وفر هارون بن خمارويه إلى مدينة العباسة (بجوار الزقازيق) ، حيث قتله عمه ، وخلفه على ولاية مصر . وفى عهده سقطت هذه البلاد فى يد محمد بن سليمان الذى دخل مدينة القطائع ، وأشعل فيها النار ، وأزال معالم الطولونيين ، وأعاد مصر إلى سلطان العباسيين المطلق .

على أن الاضطرابات قد استمرت فى هذه البلاد ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها ، لاستبداد الأتراك بالسلطة ، وضعف مصر نفسها ، وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج . هذا إلى أن مصر قد تعرضت فى ذلك الوقت لغزوات الفاطميين ، الذين أسسوا دولتهم فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وحاولوا الاستيلاء على مصر غير مرة ، لاتخاذها مركزاً لنشر دعوتهم ، ومقرا لخلافتهم ، وبسط نفوذهم فى الشرق . وظلت مصر على هذه الحال ، إلى أن وليها محمد بن طغج الإخشيد ، فدخلت فى عهده فى طور جديد من التقدم والإصلاح .

(حـ) الدولة الإخشيدية فى مصر

١ — الإخشيد :

كان محمد بن طُغج مؤسس الدولة الإخشيدية من أولاد ملوك فَرغانة ، وكان ملكهما يلقب بالإخشيد ،كما كان يلقب ملك الفرس بكسرى ، وملك الروم بقيصر ، وملك الحبشة بالنجاشى . وقد اشتهر أمر الإخشيد فى الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ هـ ، حين ولى إقليم طبرية وجبل الشراة ، نيابة عن تكين والى مصر والشأم ، ثم اشترك فى صد الفاطميين عن مصر سنة ٣٠٧ هـ، فولاه تكين الإسكندرية ، ثم عهد إليه الخليفة العباسى المتقى بولاية مصر سنة ٣٢٣ هـ ، إثر انتصاره على الفاطميين ، حين حاولوا غزو مصر سنة ٣٢١ هـ، كما أمر بزيادة لقب «الإخشيد» على اسمه ، ودُعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ .